رضوان مرتضى

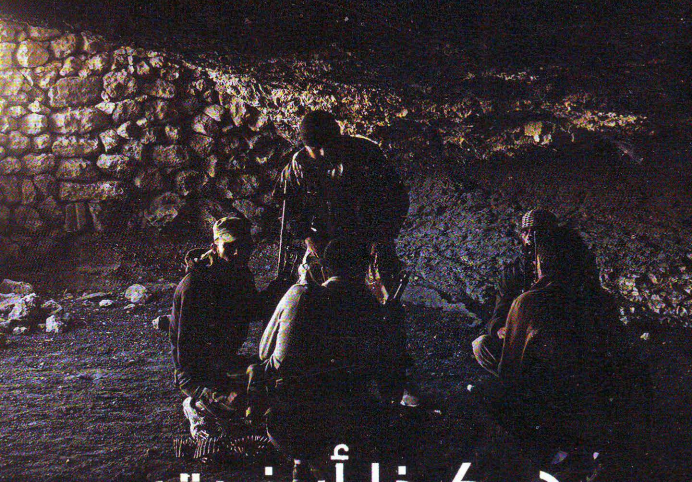

هكذا أرخت الثورة السورية لحيتها

الفارابي

رضوان مرتضى

هكذا أرخت الثّورة السّورية لحيتها

شارك في إعداد هذا الكتاب

علي السقا

تدقيق: وفيق قانصوه

أبحاث

علي مرتضى مسلمة الشهّال

علي حمود

دار الفارابي

الكتاب: هكذا أرخت الثورة السورية لحيتها

المؤلف: رضوان مرتضى

شارك في الإعداد: علي السقا

الأبحاث: علي مرتضى ومسلمة الشهّال وعلي حمود

صورة الغلاف: رضوان مرتضى - من مغارة في جبال القلمون

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٨

ISBN:978-614-432-860-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء ١١
مقدمة لا بُدّ منها........................ ١٣
الفصل الأول **٢١**
أنا الشيعي.. أنا السنّي ٢٣
«نريد شيئاً عن عبد الله عزام»........................ ٣٥
كيف تُصبح إرهابياً؟........................ ٥٦
الإحباط السنّي؟........................ ٦٥
الفصل الثاني **٨٣**
هكذا أرخت الثورة السورية لحيتها ٨٥
كيف احتال حمزة القرقوز على عناصر الجيش؟ ١١٠
«غيفارا سوريا» يفضح المبعوث الأمني! ١١٥
تسجيلات عقاب صقر: حفاضات وحليب.... وسلاح!. ١٢٢
في سوريا اعتُقلت: أنا أبو محمد الجولاني! ١٤٠
الإمام علي في منزل «جهادي عتيق» ١٥٧
الوسيط الذي ذهب «فرق عملة»!.................. ١٦١

دعوة لزيارة عاصمة «الدولة الإسلامية» ١٦٤
عماد مغنية في باب التبانة ١٦٧
موعد دائم مع الإرهاب ١٧٦
أمير الشمال ... شبح يبيع الأغنام ١٨٦
تلميذ الشيخ فستق يردّ له الجميل ١٩٣
شيخٌ ظريف يستفزّ المشايخ ١٩٨
التلّي يُعدم خاطف الُمصوّر حسين......................... ٢٠٦
في عرسال كنت سنّياً: بوابة
«عرش الإله» تنتهي بأشجار الكرز ٢١١
في القصير، كاد يقتلني حزب الله ٢١٥
«عاشوراؤهم وعاشوراؤنا» ٢١٨
أبو القعقاع ربيب النظام..
ماذا عن تنظيم «الدولة الإسلامية»؟ ٢٢١
«أبو طاقية».. صاحب الـ«هوليوود سمايل» ليس بريئاً.... ٢٢٣
ماجد الماجد قتلته صورة... وحُقنة سامة؟! ٢٢٩
الفصل الثالث **٢٣٧**
علي... ابن المخيم المغدور.............................. ٢٣٩
«أبو الأفغان» الذي أعدّ لـ «جحيم لبنان»
باعه «عميل مزدوج» ٢٥٠
عمر الأطرش المثقف... ناقلاً للانتحاريين ٢٥٣

الصورة الأولى لـ «أمير النصرة» ٢٦٠
إمارة رومية........................ ٢٦٣
مكافآت مالية مقابل رأسي.................. ٢٦٨
صحافي مشتبه فيه من كل الأطراف............ ٢٧٤
هكذا يعـيش القتلة ٢٧٨
«القاعدة» في سوريا: من التأسيس إلى الانشقاق ٢٨٣
الجربان أميراً للجرود: حكاية تأسيس «داعش»
على الحدود اللبنانية ـ السورية.................. ٢٨٩
«أبو مالك التلّي» «فنّان» قاتل...
هزمه حزب الله أربع مرات ٢٩٩
أنا وسيارتي: عن موتٍ خارج ساحاته.............. ٣٠٥
الفصل الرابع ٣١١
في الطريق إلى بيجي: أسماك دجلة تعيش على الجثث... ٣١٣
الهروب من «دولة الخلافة»:
الفارّ «تُصادَر» زوجته وأبناؤه.................. ٣٢٣
الخاتمة ٣٣٣

الإهداء

إلى

أخي علي.. غادرتني باكراً، لكن روحك تسكنني. أشعر بك معي في كلِّ يومياتي.

أُمي الحنونة.. أُفرمل جنوني في كثير من الأحيان لأجل عينيك.. تتراءين أمامي في كل لحظة اندفاع أو شدّة.. فأتراجع لأجلك

أبي.. يا صديقي الطيب الحازم الرقيق.. ضحتك بركة لا تفارقني.

ندى وجواد ... ملح حياتي ... أُحبكما أكثر مما تظنّان..

مقدمة لا بُدّ منها

قد يبدو غريباً للبعض كيف أنتج المجتمع اللبناني منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي توجهاً جهادياً أفرز متطوعين للقتال في أفغانستان منذ العام ١٩٨٦، تلبية لـ«واجب ديني في الدفاع عن الإسلام والمسلمين». ثمة أسئلة كثيرة طرحت حول تنامي الحالة الجهادية في المرحلة التي أعقبت انطلاق «الربيع العربي». وهنا لا أزعم أني أمتلك إجابة وافية؛ فالمسألة على جانب كبير من التعقيد يختلط فيه السياسي بالتاريخي والديني بالاجتماعي. لكن ما سأقوله في مقدمة هذا الكتاب، إنّ معايشتي للجهاديين في أكثر من مكان وبلد، جعلت الصورة أمامي شبه جليّة. وبعيداً عما جاد به كتاب كثيرون منذ أحداث ١١ أيلول/سبتمبر حول تعريف ماهية الإرهاب، بمئات آلاف الكتب، قليلون هم من عاينوا عن قُرب نشاط «الجهاديين». من حادثوهم واختلطوا بهم واستنطقوهم. أدعي أنني من أولئك القليلين الذين غامروا بحياتهم من أجل الحقيقة. لكنها كانت «مغامرة» تستحق لأنها أدخلتني في قلب المشهد، لأرى كل شيء بأمّ العين.

«الجهاد اللبناني» فرع صغير من شجرة الجهاد العالمي. عمرها

يربو على أربعين سنة، يوم قرر المسلمون العرب الركون إلى الدين بوصفه الخلاص الأوحد. حين بدأوا بالعودة إلى الجذور التي تضرب عميقاً في ثقافتهم. وهذا لم يكن ليحصل، لو لم تفشل كل المشاريع الوطنية التي بدأتها الدول العربية بعد نيلها الاستقلال واحدة تلو أخرى. لقد تجلى الفشل واضحاً مع تنامي تداعيات النكبة الفلسطينية في العام ١٩٤٨ . فالنكبة منحت فكرة القومية العربية زخمها، باعتبار أن إسرائيل هي زرع الاستعمار الذي نبت للقضاء على أي مسعى وحدوي عربي. وقام أساساً على الهوية الثقافية الجامعة للمسلمين والمسيحيين كمكونات طمحت إلى التخلص من السلطنة العثمانية قبل انهيارها. لكن سقوط كل النماذج التي تبنتها الأنظمة العربية، من الاشتراكية إلى القومية والعلمانية دفع المسلمين إلى الرجوع إلى ما يرونه ملجأهم الوحيد. صحيح أن ثمة إنجازات اقتصادية واجتماعية كبرى تُحسب للدول التي تبنت النظام الاشتراكي، إلا أنها كانت مقرونة بأشكال متفاوتة من السطوة العسكرية وشبه العسكرية.

لقد اعتبر كثير من المسلمين أن الأنظمة العربية التي لم تتبن الإسلام نظاماً للحكم، إنما اختارت نُظُماً «غريبة» عن مجتمعاتهم، قد سقطت أمام إسرائيل وسقط معها كل نموذج غير الإسلام. ورأوا أنّ هذه الأنظمة لم تستطع استعادة فلسطين بما لها في وجدان المسلمين والعرب من قدسية دينية، لا بل خسرت أراضي أخرى أمام العدو الإسرائيلي في العام ١٩٦٧ .

توالت الهزائم أمام إسرائيل مع عقد مصر، أولى الدول العربية الوازنة التي رفعت لواء العروبة، أول صلح مع تل أبيب في العام ١٩٧٩. أُتبعت باتفاقية فضّ الاشتباك بين سوريا وإسرائيل عام ١٩٧٤. من دون أن ننسى دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت في العام ١٩٨٢، وانهزام المقاومة الفلسطينية وما استتبعه من غرق في دوامة الاتفاقيات والمفاوضات. كل ذلك جاء بالتزامن مع انتهاج سياسات متفاوتة الحدة مع كل التيارات الإسلامية، من الإخوان المسلمين وصولاً إلى السلفيين. هذا ما عمل عليه الرئيس المصري الأسبق أنور السادات عبر استخدام التيارات الإسلامية لضرب خصومه، قبل أن يعود ويبطش بحَمَلة فكرها. حصل ذلك في حماه مع الحرب التي نشبت بين الحكومة السورية وجماعات تابعة للإخوان المسلمين في العام ١٩٨٢.

وعليه، فإنّ الحالة الجهادية في البلاد العربية، هي نتاج تضافر كل العوامل التي تحدثنا عنها، يضاف إليها ما شهدته المنطقة من تحولات كبرى التي منحت مقولة «الإسلام هو الحلّ» شرعيتها. هذه التحولات يمكن الحديث عن أبرزها وهي:

أولاً: انطلاق المقاومة الإسلامية في لبنان (حزب الله) بدعم إيراني مع اجتياح عام ١٩٨٢. هذه المقاومة حققت انتصاراً في العام ٢٠٠٠ شكّل سابقة تاريخية عجزت الجيوش العربية عن تحقيقها. فقد تمكن تنظيم عسكري صغير يحمل الإسلام، بنسخته الشيعية عقيدة

والجهاد وسيلة، من إخراج الجيش الإسرائيلي من الأرض اللبنانية بلا شروط. ثمّ نشأت بعدها حركة المقاومة الإسلامية حماس في فلسطين (الإخوان المسلمون) في العام ١٩٨٧.

ثانياً: اشتركت الكثير من الدول العربية، التي عقدت صُلحاً مع إسرائيل أو التي استمرت في عدائها، في عمليات فساد تسببت باهتراء الإدارة وضرب جوهر الدولة، بحماية أذرع أمنية حديدية. هكذا امتلأت السجون والمعتقلات بالسجناء بتهم مختلفة، لا بل أحياناً حتى من دون تُهمٍ.

ثالثاً: الانفتاح الاقتصادي الذي شرعت فيه دول عربية من دون وضعها خططاً تنموية واضحة ومجدية، فتخلت عن الكثير من أدوارها في حماية الشرائح الاجتماعية الدنيا. الأمر الذي خلّف فقراً شديداً ونزوحاً من الأرياف إلى المدن وانتشار أحزمة البؤس وارتفاع مستويات البطالة والأميّة.

رابعاً: الغزو الأميركي للعراق في العام ٢٠٠٣ وفرز الإدارة الأميركية حينذاك العالم بين أخيار وأشرار، وإقران صفة الشر بالإسلام والمسلمين. لقد أعاد الاحتلال الأميركي للعراق رسم وجه المنطقة. ورغم تشديد الأنظمة العربية قبضتها الأمنية على شعوبها لحماية نفسها، عمدت إلى تسهيل حركة المقاتلين الذاهبين إلى العراق والآتين منه، مثلما جرى في سوريا. بعد ذلك، انفجر الخلاف السنّي الشيعي مع

إعدام صدام حسين عشية عيد الأضحى في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٦ بأمر من حكومة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي. تحوّل العراق إلى ساحة لاحتراب أكثر من طرف محلي ودولي ترافق مع نشاط استثنائي لأجهزة الاستخبارات العربية والغربية. فإلى جانب مقاومة المحتل، كانت هناك حروب أخرى شارك فيها السنّة والشيعة وتنظيم القاعدة الذي وجد ملاذه هناك، مستقطباً الجهاديين الذين قاتلوا في أفغانستان أو أولئك القادمين من دول مثل سوريا ولبنان ومصر والأردن وفلسطين وغيرها.

خامساً: محاولة الأميركيين فرض تصوّرهم الجديد للمنطقة بالقوة، خلقت انقساماً بين أنظمة عربية آثرت المهادنة وأخرى فضّلت المواجهة. في تلك المرحلة المفصلية، اغتيل رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري في شباط من العام ٢٠٠٥. تبنت «جماعة النصرة والجهاد في بلاد الشام»، وهي تنظيم جهادي غير معروف، الاغتيال. لكن حلفاء سوريا السابقين اتهموها وحزب الله بالجريمة. لقد أحدث اغتيال أكبر شخصية سنّية في لبنان انقساماً مذهبياً حاداً بين السنّة والشيعة، وتفاقم مع الحرب الإسرائيلية التي انطلقت لتدمير حزب الله في العام ٢٠٠٦، حيث تشكلت جبهة أمنية، وكذلك سياسية معادية له داخل الحكومة ومجلس النواب. هذا الواقع تعامل معه حزب الله بالقوة عام ٢٠٠٨ في ما عُرِف بـ «أحداث ٧ أيار» حيث شنّ هجوماً عسكرياً ضد خصومه أفضى في النهاية إلى اتفاق الدوحة.

سادساً: في حمأة الانقسام المذهبي بين السنّة والشيعة والذي عملت على تغذيته أكثر من جهة، من دون إغفال الأخطاء الفادحة للطرفين، بدأت أنظمة عربية تتهاوى واحداً تلو الآخر جراء تظاهرات شعبية ضخمة، خرجت منذ العام ٢٠١٠ تحت عناوين العدالة الاجتماعية والحرية، ودعت إلى إسقاط الأنظمة التي حكمتها على مدى عقود. وما سمي حينئذٍ بـ«الربيع العربي» تحول سريعاً إلى «خريف عربي». ولم يكن هناك قوى سياسية قادرة على التحكم في التحركات الشعبية وضبطها وتوجيه مسار مطالبها، فضلاً عن الغياب الطويل للمعارضة الداخلية الحقيقية من الحياة السياسية العربية. ولذلك كان من الطبيعي أن تندفع التيارات الإسلامية لالتقاط الفرصة الذهبية مراهنة على نجاحها، كونها الوحيدة الأكثر تنظيماً وتفاعلاً مع الشارع وهمومه منذ سنين طويلة، وبالتالي هي وحدها القادرة على توجيهه. وهذا ما حصل بالفعل.

سابعاً: دخول حزب الله إلى سوريا للقتال إلى جانب جيشها، ضد طفرة التنظيمات التي تعمل على إسقاط النظام بقوة السلاح، وتحوله إلى «عدو شيعي» لكل عربي سنّي يعادي النظام. هذا العداء المذهبي لحزب الله الذي كان قد بدأ يتغذى منذ اغتيال الحريري، وجد تعبيراته في أكثر من تفجير انتحاري استهدف معقله الشعبي في بيروت والبقاع. وثبت تورط لبنانيين سنّة وفلسطينيين من سكان

المخيمات في لبنان بذلك. وقد وجد هذا النشاط تغطية سياسية من بعض القوى اللبنانية، ظهرت في السماح لمقاتلين من المعارضة السورية بالسيطرة على مساحات واسعة من الحدود اللبنانية السورية. حصل ذلك بعد أن تحوّلت سوريا مغناطيساً لجهاديي العالم. فقد بدأت الهجرة إلى القِبلة الجديدة. «أرض الجهاد» هذه من منظورهم ستشهد «تحقق وعدٍ إلهي». إذ يعتقد هؤلاء أنهم المقصودون في كتاب القرآن بأولئك «الظاهرين على الحق الذين يقاتلون في أكناف بيت المقدس». ويستندون إلى أحاديث شريفة وقُدسية ذات دلالات غيبية، ليخلصوا إلى أنهم يخوضون «معركة فاصلة في بلاد الشام تسبق تحقق الوعد الإلهي القائل بإقامة دولة الإسلام». وفوق ذلك، يؤمن هؤلاء بأنهم «منصورون»، و«النظام في سوريا ساقطٌ لا محالة». لقد جعلت نقطة الاستقطاب هذه من أرض الشام موطئ قدمٍ للجهاديين القادمين من بقاع الأرض تلبية لـ«نداء الجهاد». انفلش دور الجهاديين في الميدان السوري حتى كادوا يُسيطرون على مفاصل البلاد قبل أن يقلب حزب الله والجيش السوري المعادلة، بمؤازرة روسية.

أعتقد أن هذه النقاط، ربما، تعطيك عزيزي القارئ صورة معقولة نسبياً عمّا ستراه داخل هذا الكتاب. ولذلك سأتركك مع الأحداث التي عايشتها والأشخاص الذين حادثتهم وكنت بينهم مُخاطراً بحياتي. مقاتلون «علمانيون» سابقون تحولوا إلى جهاديين، أو جهاديون

يسعون لإقامة «دولة الإسـلام» وتحكيم الشريعة بإعادة الخلافة الإسلامية. قطّاع طرق وسماسرة أرخوا لحاهم لكنهم لم يتغيروا. معتقلون سابقون أو مظلومون جُلّ همّهم الثأر ممّن أساؤوا إليهم. في هذا الكتاب لن يكون القارىء أمام أسود وأبيض. داخل هذا الكتاب ستكتشف تناقضات النفس البشرية. لعليّ أنجح في تقديم الحقيقة بوجوهها الأربعة.

الفصل الأول

أنا الشيعي.. أنا السنّي

ترجّلتُ عن الدراجة النارية. كان الوقت ظهراً. الحرّ شديد. جمع من الناس، هم أهالي الموقوفين الإسلاميين ومحامون، أمام مبنى من طبقتين أقرب إلى العمارة الرومانية، هو مبنى المحكمة العسكرية في بيروت. غالباً ما يتداعى هؤلاء إلى الاعتصام أمام مبنى المحكمة، لدى انعقادها، مطالبين بمحاكمة أبنائهم المعتقلين منذ سنوات في السجن المركزي في بلدة رومية (شرق بيروت). سلّمت بطاقة هويتي وهاتفي الجوّال إلى العسكري المناوب، ومررت عبر جهاز كشف المتفجرات والأسلحة، قبل الانتظار قليلاً لدخول قاعة المحكمة لحضور جلسة محاكمة الموقوف نعيم عباس، أحد أخطر قيادات تنظيم «القاعدة» المتّهم بتنفيذ أكبر عدد من التفجيرات في لبنان.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أدخل فيها قاعة المحكمة. بدأ يحدث هذا بشكل شبه دوري منذ قررت، قبل سنوات، أن أتخصص بمتابعة ملف الإرهاب في عملي الصحافي.

داخل القاعة، مقاعد خشبية يخترقها ممر يتسع لثلاثة أشخاص. أسفل قوس المحكمة كرسي القاضي. أمامه، إلى الأسفل قليلاً، ينقسم

الحضور: إلى اليمين موقوفون خلف القضبان. على مسافة قصيرة منهم، قبالة القاضي، منصة يقف خلفها الموقوف الذي تجري محاكمته ووكيله. وإلى اليسار يجلس المحامون وخلفهم الصحفيون.

دخلت القاعة خلال فترة الاستراحة التي يأخذها القاضي بين جلسة وأخرى. امتدّت الاستراحة نحو خمس عشرة دقيقة كنت أنتظر أن أرى بعدها نعيم عباس. لكن، بدلاً من ذلك نودي على اسم أحمد الأطرش. مشى الموقوف إلى المنصّة يرافقه حارسان. لكن لا الاسم ولا صاحبه عَنَيا لي شيئاً، قبل أن يخاطب القاضي المتهم قائلاً: «أنت نسر عرسال إذاً!». كان الأمر صادماً. سرعان ما بدأ شريط سريع من الذكريات يدور في رأسي.

***

ولدت في ليبيا لأبوين لبنانيين هربا من جحيم الحرب الأهلية التي عصفت بالبلد الصغير منذ عام ١٩٧٥. في «الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى»، تشرّبت في طفولتي تاريخاً عربياً وإسلامياً «مجيداً». كلما اقترب العربي غرباً من مضيق جبل طارق، زاد تأثره بـ«الأمجاد» التي عبرت هذا المضيق يوماً إلى جزء من أوروبا. طوال عشر سنوات قضيتها في ليبيا، كنت وزملائي في المدرسة متيقنين أننا سنعيد يوماً «أمجادنا» والحضارة التي كانت إلى هذا العالم.

كانت البيئة الاجتماعية الليبية على تناقض تام مع ما عايشته بعد عودتي إلى لبنان في العام ١٩٩٢. في ليبيا لم أكن شيعياً، ولم يخبرني

والداي بأنني كذلك (والدتي من أصول سنّية) بسبب العداء للشيعة. في المدرسة حفظت أجزاء كبيرة من القرآن، وتعرفت إلى الثقافة الإسلامية السنية عبر أهم مراجعها، صحيحَيْ البخاري ومسلم. كان الليبيون منفتحين. لكنهم كانوا يعتقدون، جهلاً، بأن الشيعة كفار. وكنت، أنا أيضاً، أعتقد بذلك، الأمر الذي تسبّب لي لاحقاً، بعد عودتي إلى لبنان، بصراع هوية حقيقي. ويبدو لي اليوم أن هذا الجهل قد تفاقم، حتى تحولت ليبيا بعد الثورة إلى معقل لتنظيم الدولة الإسلامية.

في فترة ضياع الهوية تلك، رحت أقرأ كتباً لكتّاب سنّة تشيّعوا مثل «ثم اهتديت» و«ليالي بيشاور» و«الخديعة» وغيرها. كنت يومذاك تلميذاً في مدرسة جميل الرواس للذكور (المعروفة بـ «البر والإحسان») في منطقة الطريق الجديدة في بيروت، وهي منطقة ذات أكثرية سنّية.

في طريقي من حيث سكنّا في الضاحية الجنوبية لبيروت (ذات الأكثرية الشيعية) إلى المدرسة ومنها، كانت تلاحقني صور معلقة على الجدران لشهداء من أعمار مختلفة. في صدر منزلنا، كانت ثمة صورتان، بالأبيض والأسود، إحداهما لعمي عدنان مرتضى، وكان من فتوات بيروت معروفاً بدفاعه عن الفقراء، قبل أن يُقتل غيلة في منطقة وطى المصيطبة (غرب بيروت). والثانية لخالي خضر شعبان، الذي كان مقاتلاً في صفوف المقاومة الفلسطينية، وقتل في قصف سوري على منطقة تل الزعتر (مخيم للاجئين الفلسطينيين في شرق بيروت)

مطلع الحرب الأهلية. شيء ما كان يشدّني إلى التحديق بصور الشهداء، ومقارنة وجوههم بوجهَي عمي وخالي اللذين كانا بطلين، كما أخبرني أهلي، واجها الموت بشجاعة.

في الضاحية، أيضاً، كانت تُرفع صور لمعمّمين: الإمام الخميني، الإمام موسى الصدر، الشيخ راغب حرب، السيد عباس الموسوي. حفظت أسماءهم من دون أن أدرك من يكونون، قبل أن أعرف لاحقاً أن لهم تأثيراً كبيراً على من يقاتلون العدو الإسرائيلي في الجنوب المحتل، حيث قريتي الصغيرة. ومن شعارات «الموت لأميركا» و«أميركا الشيطان الأكبر» وغيرهما أدركت أن الناس هنا في لبنان، كما هناك في ليبيا، يكرهون أميركا أيضاً.

شيئاً فشيئاً بدأت أستعيد هويتي الشيعية المفقودة. لا يزال محفوراً في ذاكرتي مشهد الانقسام، في مدرستي، بين الطلاب السنّة والشيعة خلال الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣، بعدما رفع السنّة شعار «ياصدام يا حسين يا حفيد الحسنين». كان صدام حسين، بالنسبة إليّ، مجرماً قتل الشيعة. سريعاً، كوّنت شلة من الطلاب الشيعة في وجهة شلة سنّية «معادية»، ولم يكن يخلو الأمر من تضارب بين الشلتين. في إحدى المرات استدعانا الناظر، أنا وزعيم الشلة «المعادية». أوقفنا إلى الحائط وقرأ علينا آيات من القرآن عن الفرقة والضعف وعن الوحدة والقوة. حثتني هذه الحادثة على إجراء مراجعة لكل ما كنت فيه، وبثّت فيّ رغبة لأن أعرف أكثر عن الإسلام. بداية، درست، لفترة قصيرة في

الطريق الجديدة في بيروت، على يد شيخ حبشي من آل غادر كان يعمل عطاراً، قبل أن أنتقل إلى دراسة دينية أكاديمية بدأتها بدروس خاصة مع خريجين من كلية الدعوة.

أذكر، من تلك الفترة، شريطاً بثته إحدى الفضائيات التي كانت قد بدأت بالظهور لرجل بزيّ أفغاني تقليدي يمتشق بندقية كلاشنيكوف في أرض جرداء. كان أسامة بن لادن، في عيون كثيرين من زملاء الدراسة السنّة، مجاهداً محبوباً ترك عائلته الثرية وحياة الرخاء في بلاده إلى جبال أفغانستان الوعرة، دفاعاً عن الإسلام في وجه الاحتلال السوفياتي، ومن ثم الغزو الأميركي. لا أخفي أنه كان لذلك الشريط تأثير عليّ: ما الذي يدفع ثرياً لترك حياة القصور إلى المغاور؟ بدا لي أسامة بن لادن، بزهده، واحداً من أولئك القادرين على استعادة «الأمجاد» العربية والإسلامية التي كنّا نتغنّى بها في ليبيا، بعد النكسات والهزائم المتتالية.

كنت، وأنا بطريقة ما نتاج للبيئتين السنّية والشيعية، أبحث عن شخصية جامعة أتمثّلها. رأيت إلى الإمام علي بن أبي طالب، ثالث الخلفاء الراشدين وأول الأئمة الاثني عشرية، تلك الشخصية التي تحظى باحترام كل المسلمين وإجماعهم على بلاغته وعدالته، وخصوصاً على قوته وحكمته. وهاتان الأخيرتان، أي القوة والحكمة، قررت أن أطبع شخصيتي بهما؛ الأولى عبر إتقان فنون القتال والرماية، والثانية عبر القراءة والمزيد من البحث.

بعد دراستي الدينية السنّية، قررت الالتحاق بحوزة شيعية. اصطحبني والدي إلى المرجع الشيعي السيد محمد حسين فضل الله الذي نصحني بإنهاء الدراسة الثانوية أولاً مع قراءة الكتب والمراجع الإسلامية. وهذا ما كان. عدت إلى السيد فضل الله بعدما أنهيت المرحلة الثانوية، فأشار عليّ باستكمال دراستي الجامعية. قال لي بصوته الهادىء: «مجتمعنا يحتاج إلى حملة شهادات أكثر منه إلى حملة عمائم»!

ككل طالب لبناني ينهي دراسته الثانوية، لم يكن واضحاً لديّ الاختصاص الذي سأستكمل فيه تحصيلي العلمي. تقدمت إلى امتحانات الدخول في أكثر من كلية، ونجحت في الالتحاق بكلية إدارة الأعمال. اخترت اختصاص العلوم المصرفية، ورغم تفوقي في مادة الاقتصاد، شعرت بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان، فتركت الكلية. درست الإعلام بمحض الصدفة (والصدف كثيرة في حياتي). كنت قد تقدمت بطلب انتساب إلى كلية السياحة. في طريق عودتي من الكلية، وبسبب ازدحام السير، سلك والدي، السائق العمومي، طريقاً مختصراً لتفادي الازدحـام. مررنا قرب مبنى تابع للجامعة اللبنانية، كتب على مدخله «كلية الإعلام والتوثيق». شيء ما في داخلي دفعني إلى أن أطلب من والدي التوقف. دخلت إلى المبنى مستفسراً، فعلمت أن اليوم التالي هو الأخير لتقديم طلبات الدخول. تقدمت إلى الامتحانات واجتزتها بنجاح لتبدأ مسيرتي في عالم الصحافة والإعلام

عام ٢٠٠٣ قبل أن أتخرّج عام ٢٠٠٦، تاريخ الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز من العام نفسه. بدأت بعدها مرحلة تجريبية في قسم التحرير في تلفزيون المستقبل ثم تنقلت بين أكثر من وسيلة إعلامية، من «قناة الجديد»، مروراً بالمؤسسة اللبنانية للإرسال «LBCI»، ثم المجلة القضائية المتخصصة وكذلك صحيفة الشرق السعودية. طوال تلك الفترة تمكنت من تنويع عملي بين الكتابة والتقارير التلفزيونية، فانتقلت إلى إعداد أفلام وثائقية لعدد من القنوات المحلية والعالمية، آخرها فيلم «الكبتاغون: مخدر الحرب السورية»، عُرِض على شبكة «BBC ARABIC» البريطانية. وقبله وثائقيان بعنوان «معركة يبرود» و«في جبال القلمون»، عرض الأول على قناة «الجديد» والثاني بثته قناة «الميادين». كذلك أنجزت فيلماً قصيراً عن أطفال الشوارع تحت عنوان «Lost Boys» عُرض على «Guardianonline». وجدت نفسي في المرئي والمكتوب، وليس بواحد من دون الآخر، وذلك بعدما اختبرت كل واحد منهما على حدة، ووجدته قاصراً بحيث يكمل أحدهما الآخر. تدرجت في قناة الجديد من موظف في قسم الرصد إلى مراسل أُعدُّ تحقيقات خاصة قبل أن أُصبح مشرفاً على تحقيقات المراسلين في قسم الأخبار، ومنتجاً لأحد البرامج في القناة. وانضممت إلى أسرة «الأخبار» العام ٢٠٠٧، وعملت، تحت إشراف الدكتور عمر نشابة، في قسم «العدل» الذي يعنى بالملفات الحقوقية وملفات الأمن والقضاء. وبسبب طبيعة عملي، احتككت بتجار سلاح ومخدرات

وبمجرمين و«طفار» وسجناء (أبرياء ومرتكبين)، وبقضاة وضباط ومحامين وأمنيين ورجال استخبارات من أجهزة أمنية لبنانية وأجنبية. بعد اندلاع أحداث نهر البارد (مخيم فلسطيني في شمال لبنان) عام ٢٠٠٧ بين تنظيم «فتح الإسلام» والجيش اللبناني، أتاحت لي زياراتي للسجن المركزي في رومية الالتقاء بـ«جهاديين» إسلاميين تابعت ملفات محاكماتهم، فأقمت علاقات مع هؤلاء وكوّنت مخزوناً معرفياً بأحوالهم وخلفياتهم. وهو مخزون ساعدني، عقب اندلاع الأحداث في سوريا والصعود الصاروخي للإسلاميين فيها، على نسج علاقات مع سفراء ومندوبين أمميين ومنظرين أصوليين وعناصر وقيادات في تنظيمَيْ «القاعدة» و«الدولة الإسلامية». وبين هؤلاء، كثر كان لهم دور بارز في مسار الأحداث في بلادنا، وتحولوا في الغالب إلى أصدقاء لي، مع بعض عداوات قليلة لم أفهمها. بعضهم قتل، وبعضهم سجن فيما لا يزال آخرون يبحثون عن «الحقيقة» أو عن مصالحهم. أنا مثل بعضهم: باحث عن الحقيقة.

كما ذكرت آنفاً، لعبت الصدف دوراً بارزاً في مساري الصحفي. أجريت مقابلة مع شاب مسلح في جبال القلمون، اشتُهر بإجابة صارخة مصوّرة ردّاً على سؤالي: «ماذا تفعل إن أمسكت بشاب شيعي؟»، بالقول: «أشلخه من الجنب إلى الجنب. أذبحه طبعاً». بعد أشهر قليلة تبين أن الشاب هو نفسه الفلسطيني نضال المغير الذي نفذ عملية انتحارية استهدفت المستشارية الإيرانية في بيروت في شهر تشرين

الثاني عام ٢٠١٣ . بالصدفة، التقيت شباناً سوريين أبلغوني أنهم عملوا في سوريا مع النائب اللبناني عقاب صقر، وسلّموني تسجيلات هاتفية تثبت تورطه في دعم مسلحي المعارضة السورية بالسلاح. وبالصدفة، أيضاً، أجريت مقابلة في مقهى في منطقة الحمرا البيروتية مع شاب أقرّ بأنه أقدم على ذبح عشرة أشخاص في سوريا. شكّك كثيرون في حقيقة وجود «ذبّاح» في قلب بيروت لدى نشر المقابلة. في الليلة نفسها وقعت جريمة مروعة في شارع الحمرا أمام أعين الناس: شاب سوري ذبح شاباً سورياً على الرصيف. أثناء رحلة لي إلى وادي خالد (شمال لبنان) برفقة أحد «الجهاديين»، تطرق الحديث إلى الاستشهاد والاستشهاديين، فما كان من الشاب إلا أن كشف عن حزام ناسف يلفّه إلى وسطه! ظننت في الأمر مزاحاً قبل أن أكتشف أن الحزام حقيقي. شعرت بالرعب وطلبت منه توخي الحذر لئلا ينفجر عن طريق الخطأ، فحرّر وسطه من الحزام ليثبت لي أن ليس في الحزام «زر» تفجير، وأن هناك حلقة يجب سحبها قبل الانفجار بثلاث ثوان! الأمر نفسه تكرر لاحقاً مع الشاب العرسالي عمر الأطرش المتهم بنقل سيارات مفخخة إلى ضاحية بيروت الجنوبية، والذي لا يتنقل من دون حزامه الناسف. أما المصادفة التي جعلتني قريباً جداً من الموت فجاءت إثر مقتل الأطرش بعد يوم واحد من نشري مقابلة صحافية معه، بصاروخ استهدفه أثناء قيادته سيارة مفخخة في جرود عرسال. يومذاك، حاول

«نسر عرسال» استدراجي لقتلي ذبحاً ثأراً لرفيق دربه ظناً بأن لي دوراً في استهدافه. لا سيما بعدما حدد أحد المسؤولين عن تفخيخ السيارات المدعو «أبو جعفر القسطل» مكافأة مالية قدرها ٨٠ ألف دولار ثمناً لرأسي.

نسر عرسال» كان الاسم العسكري لابن بلدة عرسال أحمد الأطرش، قريب الشيخ عمر الأطرش. حادثني عبر «واتساب» من رقم سوري، محاولاً استدراجي ليقتلني. كتب لي: «السلام عليكم»، فرددت السلام.

- حضرتك الصحافي رضوان مرتضى؟
- نعم.
- أنا أحمد النسر.
- أهلاً.
- أنا رفيق الشهيد عمر.
- نعم. تقبّله الله. كان من خيرة الشباب.
- أنا تسلمت مكانه من وادي حميد إلى قارة، وأريد منك خدمة.
- تفضل.
- بدنا ناخدك عالمقبرة. أريدك أن تأتي لتصوير قبر عمر ليتأكد الناس أنه استشهد. الناس غير مصدقين.

قلت لنفسي: «سأموت هناك». انقبض قلبي، وشردت لربع ساعة لم أكتب فيها أي كلمة.

هذه العبارة لمعت أمام عيني ثم ساد صمت. شعرت أنّ في الأمر مكيدة.

كتب «ألو وينك؟»، ثلاث مرات قبل أن أجيب.

- نعم حبيبي؟
- متى ستأتي؟.
- الآن مشغول. أعطني أسبوعاً.

عاود «نسر عرسال» محادثتي بعد أسبوع: «السلام عليكم. كيفك يا شيخ؟ شو صار معنا؟». أجبته: «بهاليومين»، ثم سألته:

- من أين أتيت برقمي؟ هذا الرقم لم أعطه لأحد بعد.
- حصلت عليه من تلفون عمر.
- لكن تلفون عمر تشظّى في انفجار السيارة المفخخة التي استهدفته بصاروخ!.
- صراحة لم أكن أُريد إخبارك. حصلت عليه من عائلة عمر. يحبونك كثيراً.
- لكن أهل عمر لا يعرفونني، وهذا الرقم لم يكن مع عمر قطّ. يا أخي الصدق منجاة. يفضل أن تكون صادقاً من الأصل.
- هناك شخص أعطاني إياه ولا يريد أن يصرح عن اسمه. وإذا لم تكن واثقاً وخائفاً على نفسك فأرسل مصوراً.

خلال تلك الفترة كنت قد تكلمت مع الشيخ عمر الأطرش، ولما سألته عن «نسر عرسال»، قال لي: «هيدا مجنون. ما تطلع عشان

ما يبليك ويبلينا». فكرت أن أرسل مصوراً، لكنني عرفت من فرع المعلومات أنهم يريدون الانتقام من قناة «الجديد». لهذا فإن أي مصوّر سأرسله سيقتل بالتأكيد.

لقد لعبت الصدف دوراً بارزاً في مساري الصحافي. فقد شاء القدر أن يُقتل عمر الأطرش، أحد أبرز المتّهمين في نقل السيارات المفخخة إلى ضاحية بيروت الجنوبية، بعد نشري مقابلة معه بأيامٍ معدودة، إثر استهدافه بصاروخ أثناء قيادته سيارة مفخخة في جرود عرسال. كما صدف أن أجريت مقابلة مع شابٍ مسلّحٍ في جبل القلمون، تبيّن أنه الفلسطيني نضال المغيّر الذي نفّذ لاحقاً عملية انتحارية استهدف فيها المستشارية الإيرانية في بيروت، بحسب ما أعلنت مديرية التوجيه في قيادة الجيش. حتى أن الشيخ عمر الأطرش، الذي يُحاكم بجرم نقل انتحاريين إلى الضاحية الجنوبية، والذي قابلته قبل أيام من توقيفه، لعب دوراً أساسياً في إنقاذي من محاولة استدراج مجموعة مسلّحة لي عبر المطلوب أحمد الأطرش الملقّب بـ «نسر عرسال»، الذي كان ينوي قتلي ذبحاً، بحسب اعترافاته أمام المحققين لدى فرع المعلومات. في المحكمة العسكرية، بدا لي الأطرش، بوجهه المشوّه نتيجة رصاصة اخترقت وجنته وذراعه التي يشدها برباطٍ إلى كتفه، أشبه بمسخ. لكن ذلك لم يحل دون شعوري بالشفقة عليه. وامتنعت عن الادعاء عليه رغم إشارة مفوض الحكومة لدى المحكمة العسكرية القاضي صقر صقر بإبلاغي بذلك، بعد إدلائه باعترافاته أمام فرع المعلومات.

«نريد شيئاً عن عبد الله عزام»

خلال عملي تعرفت إلى قضاة وضباط أمن ومجرمين. وبما أن كل هؤلاء حسّاسون جداً تجاه أمنهم الشخصي، كان من الصعب عليّ أن أقابلهم مستخدماً جهاز تسجيل أو مزوّداً بورقة وقلم لكتابة الملاحظات، فلجأت إلى الحفظ والتذكر حتى باتت لديّ ذاكرة قوية.

في ٢٠٠٩، طلبت مني إدارة التحرير صحيفة «الشرق» السعودية تقريراً عن «كتائب عبد الله عزام». كنت آنذاك، بحكم عملي في قسم «العدل» في صحيفة «الأخبار»، أتردّد على سجن رومية المركزي وألتقي سجناء من «الجهاديين».

أطلعت زميلي، يومذاك، فداء عيتاني على طلب الصحيفة السعودية، فأجابني باستغراب ممزوج بالاستهزاء: «أنت مجنون، إشبك شي بعقلك؟ بيقتلوك»! اعتذر عيتاني مني في اليوم التالي، لكنني كنت قد قررت دخول التحدي. حصلت من مصادري في الأجهزة الأمنية على لائحة بأهم الشخصيات «الجهادية» و«القاعدية» في لبنان، تضمنت أسماء مثل توفيق طه ونعيم عباس وأسامة الشهابي، وشخصيات أخرى من «كتائب عبد الله عزام» و«فتح الإسلام». كان

معظم هؤلاء موجوداً في مخيم عين الحلوة، وهو أكبر تجمعات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. أعددت ملفاً لكل صاحب اسم شبيه بتلك التي تُعدّها الأجهزة الأمنية، وقررت أن أبدأ من دون تنسيق مع أحد. إذ إن كلّ من فاتحته بالأمر كان يردّ عليّ بالكلمتين نفسيهما: «مجنون... بيقتلوك».

عام ٢٠١٠ ليل ٢١ رمضان، كان المساء ثقيلاً فوق المخيم الواقع شرقي مدينة صيدا في جنوب لبنان. الشخص الذي كنت أسعى للقائه، يرافقني زميلي الفلسطيني قاسم قاسم وزميل مصور، هو أسامة الشهابي، أحد أشهر المطلوبين في المخيم الفلسطيني. الشاب الذي طلبت منه أن يوصلني إلى منزل الشهابي، ردّ عليّ بلهجة حاسمة: «أدلّك ولا أوصلك». لم تكن هناك أي مظاهر حراسة حول منزل من يُتّهم بأنه أمير «فتح الإسلام». مضى وقت قليل بعدما طرقت الباب، قبل أن يفتح أسامة نافذة الباب مستفسراً. «سلام. أنا رضوان مرتضى. صحافي». فتح الباب مستغرباً. استأذنته بالدخول مع الزملاء، فأومأ بالموافقة، مردفاً أنه يريد أن يقرأ القرآن لأن الليلة من ليالي القدر. طمأنته إلى أن الزيارة ستكون قصيرة للتعارف على أن أتواصل معه لاحقاً، فطلب مني التنسيق مع أخيه زياد الشهابي المعروف بـ «أبو المنذر». في اللقاء الأول، كان حذراً تجاه كل حركة أقوم بها. كانت عيناه تتابعانني وأنا أرفع كوب الشاي لارتشافه. لم أُرِد أن أضاعف من توتره، فانصرفنا على وعد باللقاء.

الشهابي ملقب بـ «أبو الزهراء»، وهو من المنتمين أساساً إلى حزب التحرير الإسلامي، وذو ثقافة دينية واسعة. يتردد أن والدته أو جدته شيعية، وأن له أخاً متشيّعاً. ويتميز بتبنيه مواقف فقهية لا تتوافق مع آراء كثيرين من الأصوليين المتشددين. إذ إنه، على سبيل المثال، يكاد ينفرد باعتبار أحاديث آل بيت رسول الله مصدراً من مصادر التشريع، إلى جانب القرآن والسنّة. وهو موقف قريب مما يعتقده الشيعة في هذا الشأن. كما أنه لا يقول بقتال حزب الله في لبنان، بعكس الموقف الذي ذهبت إليه «كتائب عبد الله عزام» والتنظيمات المتشددة الأخرى، مبرراً ذلك بأن «حزب الله لم يقاتلنا، فلماذا نقاتله؟». على أية حال، كان ذلك قبل بدء الأحداث في سوريا.

في اللقاء الثاني ذهبت لزيارته وحيداً. أكد لي أنه «مؤمنٌ بمبدأ أنّ الجهاد فرض واجب على كل مسلم حتى قيام دولة الإسلام في الأرض». وشدد على أنه منخرط في مشروع «ضرب اليهود والمشروع الصهيوصليبي». عن علاقته بتنظيم «القاعدة» قال: «لو شققت قلبي لوجدت فيه شيخ المجاهدين أسامة بن لادن»، مؤكداً ارتباطه العقيدي والعاطفي بـ«مشروع الجهاد العالمي» الذي يتبناه التنظيم. «فالمسلم غريب أينما وجد حتى تأسيس دولة الإسلام».

سألته: «هل أنت أمير فتح الإسلام؟» فنفى، لكنه أكد «أنني شاركت في تأسيس جند الشام». طلبت منه مساعدتي على إعداد تقرير عن «فتح الإسلام» فوافق، قبل أن يسألني: «هل أنت شيعي أم سنّي؟».

أجبته من دون تردد: «شيعي». فردّ: «أهلاً وسهلاً بك كائناً من كنت صديقاً وأخاً، إن شاء الله».

برز تنظيم «فتح الإسلام» الذي يعتنق الفكر «القاعدي» مع اندلاع أحداث نهر البارد (مخيم للاجئين يسكنه ٣٠ ألف فلسطيني بالقرب من ميناء مدينة طرابلس ــ الشمال) عام ٢٠٠٧. فجر ٢٠ أيار من ذلك العام، قُتل ٣٥ عسكرياً من الجيش اللبناني غدراً، وبطريقة شنيعة، لتبدأ حرب بين الجيش ومسلحي التنظيم، انتهت في ٢ أيلول من العام نفسه بسيطرة الجيش على المخيم المدمّر بعدما كابد نحو ١٧٠ شهيداً ومئات الجرحى. في نهاية المعركة، انسحب من بقي حياً من مسلحي التنظيم المحاصرين في عملية لا تزال ملابساتها غامضة حتى اليوم. بعدما ضيّق الجيش الخناق على المخيم، قسّم نحو ٧٠ مقاتلاً، يتزعمهم أميرهم شاكر العبسي، أنفسهم إلى عشر مجموعات، وبدأوا بالخروج تباعاً. نجحت ست مجموعات في الخروج بعدما سلكت مجرى النهر، بينها مجموعة العبسي التي توجهت إلى مخيم البداوي، حيث آواها إمام أحد المساجد الشيخ حمزة قاسم (وهو أحد نزلاء سجن رومية) نحو أربعة أشهر، غادر بعدها أفراد المجموعة مخبأهم في شاحنة محملة بأقفاص دجاج وتمكنوا من دخول الأراضي السورية خلسة.

هناك بدأ العبسي يخطط لإخراج «الإخوة» من السجون. فيما ظهرت دعوات «قاعدية» لــ «تأميره» على «بلاد الشام»، أبرزها عن

«أمير دولة العراق الإسلامية» الشيخ «أبو عمر البغدادي»، الذي أصدر بياناً حمد الله فيه «على نجاة الشيخ شاكر العبسي قاهر الصليب، ونسأل الله أن يكون إماماً في بلاد الشام». كانت تلك، بحسب ما حدثني به أحد مشايخ «السلفية الجهادية»، بمثابة «إشارة إلى الشباب المسلم للالتحاق بالشيخ العبسي» الذي كان يعيد بناء التنظيم ويعمل على إعادة جمع شمل المقاتلين.

في الخامس من تموز ٢٠٠٨، اندلعت «انتفاضة» سجن صيدنايا، قرب دمشق، التي قتل فيها «نحو ٥٠٠ سجين مسلم»، بحسب الشيخ القيادي في «فتح الإسلام». علماً أنّ العدد المذكور لم يتقاطع مع ما أعلنته الحكومة السورية. مع الإشارة إلى أنّ السجن المذكور يؤوي بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ سجين، من بينهم ٢٠٠ من الإسلاميين ممن شاركت غالبيتهم في القتال في العراق. الرواية الرسمية ذكرت أن محكومين بجرائم تطرف وإرهاب أقدموا على إثارة الفوضى والإخلال بالنظام العام في السجن واعتدوا على زملائهم أثناء قيام إدارة السجن بجولة تفقدية، فيما قال «جهاديون» إن الأحداث اندلعت «بسبب قيام بعض الحراس برمي المصحف الشريف على الأرض، ودوسه بالأقدام».

هذه الحادثة، بحسب الشيخ السلفي نفسه، «تركت أثراً بالغاً في نفس العبسي الذي عقد العزم على الانتقام من النظام السوري. فبدأ، يعاونه شخصان أحدهما «أبو الشهيد السوري»، يعدّ لتوفير ٥٠٠ كلغ من مادة السي فور الشديدة الانفجار لاستهداف أحد المقار الأمنية».

تمكنت الاستخبارات السورية، عبر أحد المخبرين، من كشف مكان العبسي أواخر عام ٢٠٠٨. «اقتحم عدد كبير من عناصر الأمن السوري الشقة التي كان يختبئ فيها، وتخلل العملية انفجار غامض». منذ ذلك الحين، يؤكد مقربون من العبسي، أن «أحداً لا يعلم شيئاً عن مصيره»، مع ترجيح «استشهاده لأنه لم يكن يتنقل من دون الحزام الناسف الذي كان يلفه على وسطه».

ردّ التنظيم على أحداث سجن صيدنايا ومقتل العبسي ففجّر «الاستشهادي أبو عائشة» (سعودي) سيارة مفخخة في منطقة القزّاز في دمشق في ٢٠٠٨/٩/٢٧، ما أدى إلى مقتل ١٧ وإصابة ٦٥ بجروح. عقب الانفجار، أوقفت السلطات السورية سبعة سوريين وثلاثة فلسطينيين ويمنياً واحداً. ومن بين الموقوفين وفاء شاكر العبسي وزوجها ياسر عناد، والمسؤول الأمني في «فتح الإسلام» عبد الباقي الحسين (أبو الوليد).

قبل مقتل العبسي، إن كان ذلك صحيحاً، وأثناء وجوده في سوريا، نُصِّب الفلسطيني عبد الرحمن عوض المعروف بـ«أبو محمد» أميراً للتنظيم في لبنان. أكّدت لي مصادر سلفية، يومذاك، أنّ «الشيخ أبو محمد توجه عام ٢٠٠٤ للجهاد في بلاد الرافدين، وتولّى منصب القائد العسكري في محافظة صلاح الدين التي كان يتولى إمارتها «أبو سيف الأردني». بعد نحو عام ونصف العام في العراق، نسّق عوض مع «أبو ربيع»، مسؤول الأمن في تنظيم «القاعدة»، في شأن عودته إلى

لبنان للمشاركة في بناء مشروع للنصرة في بلاد الشام». في لبنان، أقام عوض في مخيم عين الحلوة وعمل بائعاً متجوّلاً للقهوة، وقصد سوريا غير مرة حيث التقى العبسي. غير أنّ مشروعه «لبناء مشروع جهادي متكامل في بلاد الشام، لقي صعوبات بسبب قلة مداخيله المالية، والتضييق الأمني، فقرر الخروج من مخيم عين الحلوة لعدم تحويله إلى نهر بارد ثانٍ، رفقاً بالأطفال والشيوخ والنساء». ويروي الشهابي أن عوض أبلغ عناصره في أحد الاجتماعات: ««أمامنا خياران: إما قتال الدولة اللبنانية، وإما المغادرة إلى دولة جهادية كالعراق. هناك إما نستشهد، وإما ننتصر ونعود بخبرات أكبر إلى بلاد الشام». وأكّد أن عوض ذهب إلى العراقَ بنية «سحب الإخوة من لبنان وسوريا إلى بلاد الرافدين لاكتساب خبرات تساعد على التأسيس لمرحلة الشام»، باعتبار أن التغيير هناك قادم يقيناً. أما الهدف الثاني، فكان «الاتفاق مع دولة العراق الإسلامية على مشروع إمارة بلاد الشام».

مشروع الخروج إلى العراق بدأ بإرسال عوض ثلاثة «استشهاديين» إلى بلاد الرافدين، هم ابنه هشام وشادي مكاوي وخالد الأفندي. تولى أحد المهربين من البقاع إيصالهم إلى سوريا بالتنسيق مع مهرب سوري، ونجح الثلاثة في الوصول إلى مقصدهم. بعدها، قرر عوض الخروج بالطريقة نفسها. لم يكن المهرب البقاعي يعرف هوية الرجلين اللذين أبلغ استخبارات الجيش أنه في صدد مساعدتهما على العبور إلى سوريا خلسة. كل ما كان يعرفه أنهما من «فتح الإسلام». في

١٤ آب ٢٠١٠، كمنت دورية للاستخبارات للسيارة التي كانت تقل الرجلين في مدينة شتورة (شرق لبنان). وبحسب بيان لمديرية التوجيه في الجيش اللبناني، بادر الرجلان اللذان شعرا بالكمين بإطلاق النار في تجاه عناصر الدورية، فرد هؤلاء بالمثل، ما أدى إلى مقتلهما، قبل أن يتبين أنهما عبد الرحمن عوض وغازي حمزة المعروف بـ«أبو بكر مبارك». أما عناصر التنظيم فيؤكدون أنّ عوض وحمزة «أُعدِما ولم يحصل إطلاق نار، وأنّ أكثر من مئة رصاصة اخترقت سيارتهما».

مثّل غياب شاكر العبسي، سواء قتلاً أو اختفاء، ومقتل عوض، ضربة قوية لـ«فتح الإسلام». ساد الغموض هيكلية التنظيم، وتوزع بقايا عناصره على المخيمات الفلسطينية في لبنان، فيما تعرض جناحه السوري الذي يضم نحو ٣٠٠ مقاتل، لضربة هو الآخر مع إصدار أحكام بالإعدام على خمسة من قيادييه، أبرزهم زوج ابنة العبسي ياسر عناد (أبو إبراهيم) من حماه، والشيخ عبد الباقي الحسين المعروف، وهو خطيب جمعة من معرة النعمان.

«أصحاب المبادئ الحية لا يموتون بموت قادتهم، وصدق دعوتنا باستشهاد قادتنا»، قال لي قيادي في «فتح الإسلام»، مضيفاً: «نحن ماضون على الدرب نفسه»، ساخراً ممن يسوق الاتهامات للتنظيم بأنه «صنيعة النظام السوري» بحسب ما روّج أفرقاء مناوئون لسوريا في لبنان إبان أحداث نهر البارد.

مرّت عدة سنوات على أحداث نهر البارد، كان أربعة عناصر من

«فتح الإسلام»، يقودهم «الشيخ أبو الليث السوري»، في طريقهم إلى العراق لأخذ البيعة الرسمية من قيادة تنظيم «القاعدة»، فقتلوا في كمين على الحدود السورية ـ العراقية، ونعتهم «دولة العراق الإسلامية». هكذا تلقى مشروع التنظيم ضربة، لكنه بقي قائماً. المقاتلون القدامى والمنضوون الجدد نشطوا، في ما بعد، في «دعم الثورة السورية» بطريقة غير معلنة، في انتظار اللحظة المناسبة للظهور والعمل تحت لواء «القاعدة في بلاد الشام». وهم في ذلك شأنهم شأن بقايا تنظيم «جند الشام» الذي يناهز عدد أنصاره في مخيم عين الحلوة عشرات الأشخاص، يُعدّون العدّة في انتظار قيام تنظيم جهادي تزكيه قيادة «القاعدة»، ويحصل على بيعتها لينضووا تحت لوائه. هنا برز تنظيم «كتائب عبد الله عزام ـــ سرايا زياد الجراح» الذي نشط في سوريا تحت مسمى «سرايا أبو أنس الشامي»، كأحد أبرز التنظيمات المرشحة لأداء هذا الدور. لكن قيادياً حارب في نهر البارد أسرّ لي بوجود خلاف على الأولويات بين «فتح الإسلام» و«الكتائب». وأوضح أن أولوية تنظيم العبسي قتال أميركا، كاشفاً عن «عملية نوعية يجري الإعداد لها ضد إسرائيل من الداخل أو من لبنان، ولن تكون مجرد إطلاق صواريخ»، فيما أولوية «الكتائب» قتال حزب الله إلى جانب إسرائيل. لكن المطلعين أكدوا أن الخلاف سيتلاشى حالما تعطي قيادة «القاعدة» الكلمة الفصل قبل أن يطل «أمير القاعدة في بلاد الشام».

بدأت، مع الوقت، بالتعرف إلى عناصر من «كتائب عبد الله عزام».

أحد هؤلاء شاب اسمه رامي ورد. صاحب «مطعم ورد» في مخيم عين الحلوة وقد أصبح، فيما بعد، مرافقاً للمطرب «التائب» فضل شاكر. قلت لرامي: «أريد مقابلة أشخاص من الكتائب»، فسألني مستفسراً عن السبب. أجبته: «لإعداد مقابلة صحافية». «الإعلام ظالمهم»، قال ثم سأل: «لمن؟». «للشرق السعودية»، أجبته.

لم يكن رامي، صاحب اللحية الخفيفة، ممن يتكلمون عبر الهاتف مطلقاً. اصطحبني إلى رجل بدا وجهه مألوفاً. داخل كاراج أُقفل بابه علينا، نحن الثلاثة، وجدت نفسي أمام رجل ملثم. باشرني بسؤال استفزازي: «هل تجرؤ على نقل ما نقوله؟». «حرفاً حرفاً»، أجبته بثقة. «لكن الإعلام يحرّف»، ردّ معترضاً، فأجبته بأنني أكتب في السياسة لـ«الشرق» وفي الشؤون الأمنية لجريدة «الأخبار» اللبنانية، ولديّ، بالتالي، هامش من الحرية لكتابة ما أشاء، وأنا أتحمل المسؤولية عن كل كلمة أكتبها.

سألني: «بتكتب بالأخبار، يعني أنت مع المقاومة؟». أجبته بسؤال: «ألست مع المقاومة؟». تجاهل سؤالي، وقال: «أنت سنّي أم شيعي؟». «شيعي في الهوية»، أجبته. فردّ: «لكن مقاومتنا غير مقاومتك في حزب الله».

- «من قال لك إني مع حزب الله؟».
- «جريدة الأخبار معهم».
- «أنا لديّ انتقادات».

- «أنت مشروعك غير مشروعنا».
- «لكنني صحافي ومهمتي البحث».
- «منرجع منحكي»، أجابني ببرود منهياً المحادثة.

خرجت برفقة رامي ورد الذي أوصلني إلى المطعم، وقال لي قبل أن يغادر: «مشكلتك أنك شيعي، لكن سندرس ملفك أمنياً».

بعد أسبوع ذهبت مجدداً للقاء ورد. أقرّ لي يومذاك بأنه عنصر في «كتائب عبد الله عزام». وكان عليّ أن أتصنع الدهشة رغم علمي المسبق بذلك. قال: «أنا مجاهد. نريد مقاتلة إسرائيل، لكن حزب الله لا يقبل. نحن ملاحقون من الأجهزة الأمنية، والحزب ظالم لأهل السنّة. فهل تجرؤ على نشر هذا الكلام؟». قبلت التحدّي ونشرت كلامه وكلاماً آخر منسوباً إلى «قيادي» في «الكتائب» التقيته في زيارة ثالثة. وذكرت أن هذا التنظيم الأصولي الصاعد ينتظر أخذ البيعة لتولي مسؤولية القيادة الجهادية، مشيراً إلى أن استراتيجيته تقوم على «قتال العدو الإسرائيلي وحماية الطائفة السنّية المظلومة في وجه الخطر الشيعي المتمثل بحزب الله». كما ذكرت ما أكده القيادي لي عن توافر «معلومات» عن نية لدى استخبارات الجيش لاستهداف «الكتائب» بـ«ضغط من حزب الله»، ونقلت تهديده بـ«أننا سنضرب عمق الضاحية» في حال حدث ذلك، وإشارته إلى أن «هناك ٢٠ استشهادياً جاهزون ينتظرون الإشارة». واستنكر «منع حزب الله المسلمين السنّة من قتال إسرائيل»، وتأديته «دور حامي الحدود» و«وضع نفسه في

خانة العدو»، ليخلص إلى «أننا سنقاتل عدوّين: إسرائيل، وحزب الله الشيعي الذي يحمي حدودها»!

نشرت المقال في ٢٥ كانون الثاني ٢٠١٢، ضمن سلسلة مقالات تحت عنوان «البحث عن أمير لبلاد الشام». في اليوم نفسه، اتصل بي رامي ورد وبدا فاقداً لصوابه. «أنت تتبلّى عليّ»، قال لي. ظننته يموّه عبر الهاتف لإبعاد شبهة تورطه في إجراء مقابلة معي. ذكّرته بأنّه تحدّاني نشر كلامه، فأجابني مهدداً: «لولا أن صديقاً أوصلك إليّ، لكنت لحّمتك على الحائط». علمت بعدها أن العلاقة معه انتهت، وأنّه، على الأرجح، تلقى توبيخاً شديداً من قيادته.

كان «كتائب عبد الله عزام» تنظيماً يعمل في الظل، لكن المقال الذي نشرته اضطره إلى إصدار بيان وصفني فيه بأني «مرتزق لحزب الله الإيراني».

كنت قبل ذلك، وفي إطار جمعي للمعلومات عن «الكتائب»، التقيت مدير فرع المعلومات التابع لقوى الأمن الداخلي في منطقة الجنوب العقيد عبدالله سليم. حصلت منه على تقرير يستند إلى معلومة استخبارية من مخبرين اكتشفت لاحقاً، بعد نشرها، أنها خاطئة، ومفادها أن عبد المجيد عزام، حفيد عبد الله عزام، وصل إلى مخيم عين الحلوة حاملاً ٣٠٠ ألف دولار لتمويل عمليات ضد القوات الدولية العاملة في جنوب لبنان (UNIFIL). حاولت الاستقصاء عن عبد المجيد عزام، فقوبلت بالاستهزاء. سألت عنه «أبو شريف عقل»، المتحدث

الرسمي باسم «عصبة الأنصار الإسلامي» (أحد أكبر التنظيمات الإسلامية المتشددة في عين الحلوة) وشخصيات بارزة في «الشباب المسلم» (تجمّع شبّان أصوليين)، فنفوا وجوده. التقيت قيادات من حركة فتح فأعطوني معلومات مطابقة لتلك الواردة في التقرير. عندها أيقنت أن أحدهم هو من كتب التقرير لفرع المعلومات.

طلبت وساطة الشيخ أسامة الشهابي بيني وبين «الكتائب»، ورويت له تفاصيل ما حدث، فوعدني بإصلاح الوضع، وقال: «سأقول شهادتي فيك». فيما بعد، أخبرني أن ورد وغيره أنكروا أن أكون قد قابلت أحداً منهم. أعطيته أوصاف ورد وتفاصيل حول مكان اللقاء، فاقتنع بروايتي. أعتقد أن تدخّل الشهابي ساعد على حل المشكلة بيني وبينهم، لكنهم قرروا، لفترة، عدم التواصل معي كوني شيعياً، ولأنني أكتب في «الأخبار التابعة لحزب الله».

نتيجة احتكاكي بهم، تبيّن لي أن «الجهاديين»، كسائر العرب، هم أبناء بيئتهم. لذا تراهم يفضلون أن يتوجهوا إلى جمهورهم عبر وسائل إعلام موالية لهم، في حين يعزف جمهورهم عن وسائل الإعلام التي يعتبرها «معادية». لاحظت ذلك في الحساسية المفرطة لدى «الجهاديين» تجاه قناتَيْ «الجديد» و«الميادين»، وواجهت صعوبة بالغة في إقناعهم بأن من مصلحتهم عرض التقارير التي أجريتها عنهم على شاشات لا توالي سياستهم. رغم ذلك، تلقيت تهديدات كثيرة، واتُهمت بـ«العمالة» للنظام السوري. وفي إحدى المرات، حصلت من

أحد الضباط على مضمون اتصال بين شيخين (أحدهما يدعى حسام صيادي من باب التبانة ـ طرابلس) يتحدثان فيه عن خطة لاستدراجي بزعم إجراء مقابلة لخطفي وقتلي. أخذت التهديد يومذاك على سبيل المزاح، لكنني صرت أكثر حذراً.

غالباً ما تختلف ردود الفعل في شأن ما أكتب. تلاحقني اتهامات بالعمل لمصلحة الأجهزة الأمنية أو حزب الله، وأخرى بالعمالة لتنظيم «القاعدة». أما أسوأها فتلك التي تتهمني بأني «عميل مزدوج». معظمهم يسألني السؤال نفسه: كيف تستطيع الوصول إلى هناك؟ ألا تخشى على نفسك؟ أنت مع من؟ إجابتي واحدة في كل الظروف: أنا صحافي، وأفعل ما يتاح لي للقيام بعملي. الأصدقاء المقربون يوصونني بالحرص، فيما الزملاء الصحافيون ينقسمون بين مشجع ومثبّط للعزائم. بعضهم اتهمني بالفبركة، حينذاك صرت أحمل كاميرتي معي وأوثق ما أكتبه بالصوت والصورة.

الصحافي، في المكان الحساس الذي كنت فيه، يجد نفسه بين طرفين يكنّان عداوة شديدة بعضهما لبعض: أجهزة الاستخبارات من جهة والجهاديون من جهة أخرى. لذلك اعتبرت أنه يتوجب عليّ، منذ قررت الدخول في عالم الخطر، أن أواجه أي تهديد أتلقاه بالتبسّم. يمكنك ذلك عندما تكون متحرراً من أي انتماء سياسي، ومهمتك هي النقل والإيضاح بحثاً عن الحقيقة. وكنت أضع نصب عينيّ دائماً نظرة الأجهزة الأمنية، المحلية والعالمية، إليّ، خصوصاً بعدما علمت

بمراسلة من الاستخبارات الأميركية إلى أحد الأجهزة اللبنانية تفيد بأنني على تواصل مع قيادات في «القاعدة».

في منزل أسامة الشهابي مجدداً. كانت علاقتي به قد توثّقت وزياراتي قد تكررت. كان الوقت ظهراً عندما كنت في حضرة الشهابي والشيخ جمال حمد، ورجل ثالث عرّف الشيخان عنه بأنه «أبو عبيدة المجاهد اليمني». أجبت: «أنا أيضاً ينادونني بأبو عبيدة الليبي». ولهذه الكنية قصة. فأثناء جولة في منطقة القلمون، قال لي أحد عناصر «كتائب عبدالله عزام»: «عائلتك صبغتها معروفة، ولا يجب أن يعرفك أحد هنا»، مقترحاً عليّ أن أتبنّى لقباً. اقترح عليّ ألقاب «أبو المغيرة» و«أبو الزبير» و«أبو عبيدة»، فاخترت الأخير وزدت عليه صفة «الليبي» لإبعاد الشبهات لكوني نشأت في ليبيا. وهكذا بتّ أُعرف في أوساط «الجهاديين» بـ«أبو عبيدة الليبي».

حان وقت صلاة الظهر. دخلت لأتوضأ فرآني «أبو عبيدة اليمني» أخلع جواربي. قال لي: «لا داعي لذلك. يمكنك الوضوء فوقها». صمتت لبرهة، قبل أن أتخذ قراري بأن أصلّي أمامهم على الطريقة الشيعية. إذ إن الشهابي يعرف أنني شيعي وخشيت أن يؤخذ الأمر، إن أنا صليت كما السنّة، نوعاً من المداهنة أو التقية. علماً أنني أصلي بالطريقتين معتقداً أن الصلاة تُقبل، كيفما وضعت يديك، طالما الحضور القلبي والتوجه إلى الخالق بنيّة خالصة موجودان. أمّ الشهابي الصلاة فيما وقفت في الوسط مسبلاً يديّ، بين الشيخ يميناً و«أبو عبيدة

مع القيادي في تنظيم القاعدة الشيخ أسامة الشهابي

اليمني». بعد الصلاة ساد صمت ثقيل. استأذنت بدخول الحمام لأكسر الصمت. بعد عودتي، قال الشيخ أسامة: «سألاني عنك، فأخبرتهم بأنك شيعي، لكنك صادق». ثم صرخ ممازحاً: «ناولونا السكين لنذبحه»، فضحك الجميع. بعد فترة، أصبح «أبو عبيدة اليمني» صديقاً لي على الفايسبوك، وعلمت أنه فلسطيني أُطلق عليه لقب اليمني لبشرته الضاربة في السمرة، وأنّه بطل في رياضة الملاكمة و«الكيك بوكسينغ». وإضافة إلى كنيته، كان يلقّب أيضاً بـ«المعتصم بالله» و«أبو المدارس».

في القلمون، خطوت أولى خطواتي الفعلية بين «الجهاديين» الذين يرسلون شعورهم ولحاهم. لم يُخفِ كثيرون منهم استغرابهم

من بقائي عازباً لأنني، برأيهم، في سن لا يصح أن أبقى فيها من دون علاقة جنسية ضمن الزواج. أصرّ أمير إحدى المجموعات المسلحة على معرفة سبب عدم زواجي، فأجبته بأنّ أسعار الشقق باهظة في بيروت. عندها قال لي: «اختر المنزل الذي تشاء من بيوت رأس العين في القلمون السوري. واختر زوجة نطلبها لك للزواج على سنّة الله ورسوله». لوهلة، خُيِّل إليّ أنّ لي ابناً اسمه مصعب يلعب في أزقة يبرود. ابتسمت في سرّي قبل أن أطرد الفكرة وأُجيب مضيفي: «إن شاء الله يا شيخ. الله ييسّر».

لعلّ أول ما لفت نظري هو جهل كثير من المقاتلين بالشريعة، وبخاصّة الوافدين الجدد على هذه التنظيمات. في رحلتي إلى القلمون أذكر أن عنصرين من كتيبة تقاتل تحت راية «جبهة النصرة» اختلفا حول الوضوء، بعدما أراد أحدهما الصلاة من دون وضوء رغم وجود الماء. عرضت عليهما أن أحكم بينهما، فقبلا. قلت: «إذا حضر الماء بطل التيمم»، فقال أحدهما: «أنا أصلاً ما بعرف صلّي»! عندما حل وقت الصلاة، قدمني قائد المجموعة لإمامة صلاة الجماعة. كان الأمر سهلاً عليّ، بسبب خلفيتي الدينية، لكن ذلك لم يمنع ارتجاف صوتي خوفاً من خطأ غير محسوب. والطريف أن بعضهم فسّر ارتعاش صوتي أثناء الصلاة خشوعاً.

حزب الله ومعظم التنظيمات الجهادية، لديهم الكثير من المشتركات، لكنهم يفترقون بشكل تشعر معه أن لا رابط بينهم أبداً.

الطرفان يقيمان بعضهما بعضاً بغير ما هما عليه في الحقيقة، إلا في ما ندر. المواجهة بينهما، حرب يجزم طرفاها بأنها شر لا بد منه. وسواء أقر معسكرا القتال بصفات ممدوحة أو مذمومة لدى الآخر، فإن ذلك لن يغير أن حرب وجود يخوضها الطرفان في سبيل إله واحد. كل يسعى إلى إنهاء الآخر بوسائله. والثابت أن القاعدة وحزب الله ضدان لا ولن يجتمعا.

لم يسبق لمقاتلي حزب الله و«القاعدة» أن تواجهوا قبل أحداث سوريا. بل على العكس، كان هناك تعاون في أكثر من مكان. حتّى أنّ مقاتلي «القاعدة» كانوا يتدرّبون في معسكرات حزب الله في البقاع. بالنسبة إلى المقاتلين الإسلاميين، فإنّ مقاتلي حزب الله يحاربون تحت تأثير «الكبتاغون». أما مقاتلو الحزب، فيرون في مسلحي الطرف الآخر «مجانين يحملون ملاعق طعام في جيوبهم استعداداً لتناول طعام الغداء مع النبي».

«حزب الله تكفيري». هكذا يراه مقاتلو «القاعدة». وهكذا هم أبناء تنظيم «الجهاد العالمي» في عيني عدوهم اللدود وعيون كثيرين. لا يستهين مقاتلو الحزب بخصومهم. والأمر نفسه بالنسبة إلى مقاتلي «القاعدة». ينصف كلاهما خصمه، من دون إغفال السلبية التي تطغى على المشهد العام. قال لي أحد مقاتلي «جبهة النصرة»، وهو لبناني كان يرابط على جبهة السحل ومزارع ريما في القلمون، «بعض مسلحي الحزب كأنو راكبهم جن. كنا نرمي عليهم، لكنهم لم يتراجعوا. أصبنا

ثلاثة منهم وواصلوا النزول. لا يفعل ذلك سوى مجنون. لديهم جرأة غير طبيعية. أعترف بذلك»، لكن رفيقاً له يتدخل في الحديث ليعطي رأياً آخر: «مؤكد أنهم يتعاطون حبوباً مخدرة... كبتاغون»! فسألته: «لكنهم يتهمونكم بتعاطي الحبوب المخدرة أيضا؟» فأجابني: «الحبوب محرمة في شرعنا». عندها رد محدثنا على زميله: «الحبوب عندهم حرام أيضاً. حتى لو كان عدوك، لا يجوز أن تبخسه قدره.. لقد رأيتهم بعينيّ هاتين».

أحد الجرحى الذين أصيبوا في معركة السحل ونقل إلى أحد مستشفيات عرسال، قال لي إن لدى مقاتلي حزب الله «كثافة نارية تخال معها أن السماء تمطر ناراً، كما أنهم يعولون على الخونة منا». شاب من إحدى قرى البقاع الغربي، قاتل في الداخل السوري، كشف لي أن «الاختلاف بين ابن الحزب وابن القاعدة كبير. عددهم أكبر وأسلحتهم أحدث وأقوى. ولديهم طائرات ودبابات وصاروخ بركان وصواريخ أخرى لا نعرف عنها شيئاً. كما أن لباسهم وسلاحهم وطعامهم يكلف آلاف الدولارات، فيما ابن القاعدة يستدين ويدفع من جيبه ثمن سلاحه وذخيرته». لكن الجيش السوري يمتلك أسلحة متقدمة، فلماذا يختلف الأمر مع حزب الله؟ رد مسرعاً: «صحيح أن عقيدة الحزب فاسدة، لكن الإيمان الأعمى لعناصره بها يجعلهم أشجع في القتال». وهل يملك أي فكرة عن الحزب، أجابني: «الحزب تكفيري ولن يتمنع عن

ذبحنا جميعنا»؟ لكن، ألستم أنتم من يذبح «تقرباً إلى الله»؟ أجابني: «نذبح لنُرهب عدونا، وهم يذبحون أيضاً».

في المعسكر المقابل، لا تختلف الصورة كثيراً. يرى مقاتل من حزب الله أن «القاعدة وحش من ورق ضخّمه الإعلام». برغم ذلك، يميز الشاب الثلاثيني الذي شارك في معركتَيْ القصير والقلمون بين مسلحي «الجيش الحر» والمقاتلين السلفيين. قال لي إنّ «أفراد الحر هواة، فيما السلفيون أكثر شراسة لأنهم عقائديون»، لكنهم «ليسوا منظّمين. وأمام الغزارة النارية لن يصمد أي مقاتل ولو كان قلبه من حجر». مقاتل آخر، شارك في معركة القلمون. يتحدث عن «جنون لدى مسلحي القاعدة». روى لي كيف «يهجمون بالعشرات ويقتلون بالعشرات من دون أن يتوقف تدفقهم حتى تتعب يدك من الضغط على الزناد». شاب حزبي ثالث حدثني عن «سطوة القاعدة وتفوقها في القتل والتوحش في المناطق الخاضعة لسيطرتها فقط، أما في المواجهة المباشرة، فلا خبز لهم معنا».

بطبيعة الحال، لا يميز بعض مقاتلي حزب الله بين مسلحي «النصرة» أو «الدولة الإسلامية»، ويرون أن «كلهم تكفيريون ومعركتنا معهم وجودية». يحكي أحد هؤلاء عن «شجاعة قل نظيرها لدى بعض مسلحي القاعدة لدرجة رفضهم الاستسلام في إحدى المواجهات داخل أحد المستشفيات في دير عطية بعدما حاصرناهم فيها. رفضوا تسليم أنفسهم وظلوا يقاتلوننا حتى قتلوا جميعاً بعد تفجير أحدهم نفسه داخل أحد طوابق المستشفى».

وحدثني بعض مقاتلي الحزب عن «بطولات فردية تميز بها بعض المقاتلين الإسلاميين، لكنهم في النهاية لا يقاتلون يداً واحدة»، ويضيف: «ما من توزيع للأدوار ولا خطط لديهم هجومية أو دفاعية»، مشيراً إلى أن القتال بالنسبة إليهم «هبج»، وإن كان يبرع كثيرون منهم في القتال الفردي نتيجة مراكمتهم تجارب قتالية من العراق وأفغانستان والشيشان.

كيف تُصبح إرهابياً؟

غالباً ما يطرح السؤال حول ما الذي يجعل من الإنسان إرهابياً. لكن لا يتم الركون إلى إجابة واحدة بأي حال. وإذ لا أستطيع الجزم بأني على اطلاع بكل الأسباب التي تكوّن شخصية الإرهابي، إلا أنه بمقدروي أن أستعرض بعض الأسباب المؤدية إلى ذلك، نتيجة ما رأيته من احتكاكي المباشر بهم.

يمكن التفريق، وفق أدبيات الجهاديين، بين نوعين من الإرهاب. إرهاب ممدوح وآخر مذموم. الإرهاب الممدوح يستند إلى الآية الكريمة التي تقول ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾، لأن الغاية منه هو سبيل الله، أما كل ما عدا ذلك فهو مذموم.

أستطيع القول إنّ أغلب المطلوبين، إما يعانون مشاكل نفسية أو مادية. وإما وقعوا تحت تأثير ما ينشر على الإنترنت، خصوصاً أن جزءاً كبيراً منهم يستخدم الشبكة العنكبوتية. ذلك أن غالبية من يسيرون على

نهج الجهاد يتحولون إلى مطلوبين أمنياً ما يستدعي بقاءهم في بيوتهم والتواصل عبر الإنترنت. كما ساهم تطبيق الواتساب في نشر الرسائل ومقاطع الفيديو والإصدارات، إضافة إلى اللقاءات التي تحصل في المساجد. وهنا من المفيد التذكير بأن المساجد في أوروبا تؤدي دور أكبر وسيلة للاستقطاب، لأن معظمها بني بأموال سعودية، والأئمة الذين يؤمون الناس فيها يحملون الفكر السلفي الوهابي وقد تتلمذوا على أيدي مشايخ بلاد نجد.

هذا في أوروبا. أما في لبنان، وتحديداً في المخيمات الفلسطينية، فإن الأسباب تكاد لا تحصى. أسباب تتضافر لتجعل المخيمات وأهمها مخيم عين الحلوة، ولّادة «جهاديين» يبحثون عن خلاص ما بأي سبيل. الظلم بكل وجوهه يعادل القتل. هذا ما يعيشه أغلب سكان عين الحلوة. ومن أوجه الظلم تلك، أن تُضحي مطلوباً للأجهزة الأمنية اللبنانية وأنت لم تقترف أي جرم أو حتى جنحة. في مخيم عين الحلوة، أنت ضحية أي تهمة قد تلصق بك زوراً نتيجة تقارير المخبرين الذين ينتشرون كيفما كان. حتى أن هناك نكتة يتداولها أبناء المخيمات الفلسطينية تقول إن «المخبرين أكبر الفصائل» الفلسطينية في المخيمات. لقد عكست وتعكس هذه النكتة السمجة الواقع الأمني الذي يعيش في ظلّه الفلسطينيون في مخيمات اللجوء على امتداد الأراضي اللبنانية، إذ إنّ لكل من الأجهزة الأمنية اللبنانية عيوناً داخل هذه المخيمات التي يعرف أهلها، جيداً، هؤلاء «الفسّادين»، بل

يعرفون، أيضاً، لأي جهاز أمني يتبع كل مخبر منهم، ومن هو الضابط المسؤول عنه، وكيف جرى تجنيده!

ما من مخيم خالٍ من المخبرين، خصوصاً أن الدولة تتعاطى مع اللاجئين الفلسطينيين كملف أمني تابع لوزارة الداخلية والبلديات، على عكس بعض الدول العربية، مثل سوريا، التي تتعاطى معهم كملف اجتماعي تابع لوزارة الشؤون الاجتماعية. ومهمة المخبرين تُختصر بمراقبة «كلّ شاردة وواردة» تحصل في المخيم. ينتشر هؤلاء في كل مكان: في صفوف التنظيمات، الفصائل، والجمعيات التي قد يكونون منتسبين إليها، كما تجدهم في الأزقة وأماكن اللهو، وصولاً إلى هدفهم الأكبر: المساجد وحلقات التدريس الديني. وعبر هذه الأخيرة يسعى هؤلاء إلى اقتناص «الصيد الثمين» المتمثل في تحركات الأصوليين الإسلاميين داخل بعض المخيمات، وخصوصاً عين الحلوة. وبالنسبة إلى أبناء المخيمات، والمعنيين منهم بالملف الأمني، فإن الخطر الذي يمثله هؤلاء المخبرون على مجتمعهم هو «مزاجيتهم» في كتابة التقارير، إذ يعمد بعض «العَسَس»، كما يُلقّبون، إلى «تمرير أسماء أشخاص، قد يكونون على خلاف معهم، في تقاريرهم التي يرفعونها، فيتحوّل هؤلاء إلى مطلوبين لأجهزة الدولة»، بحسب ما قال لي مسؤول أمني فلسطيني في مخيم شاتيلا. ووصل الأمر ببعضهم إلى تدبيج تقارير تتهم بعض الأشخاص بترويج المخدرات، مثلاً، على خلفية مشاكل شخصية، لذلك تؤدي هذه الممارسات إلى إشكالات مستمرة بين المدنيين والمخبرين المستقوين بالسلطة.

بعض «الفسّادين» وصلت بهم الوقاحة إلى درجة التبجح أمام معارفهم وأصدقائهم بـ «عملهم الإضافي». ففي مخيم شاتيلا، ينقل بعض المسؤولين الفلسطينيين رواية عن عملية دهم نفذتها قوة من الأمن الداخلي لأحد بيوت المخيم، بعدما حصلت على «إحداثياتها» من أحد المخبرين. وكانت الصدمة من «حجم وقاحة المخبر» عندما شارك في عملية الدهم، بعدما رافق عناصر القوة «على المكشوف» إلى المنزل المستهدف.

والعمل الأمني الذي يقوم به المخبرون، نيابة عن القوى الأمنية اللبنانية في المخيمات، لا يقتصر على كتابة التقارير ورفعها لـ «فوق»، فبحسب مسؤولين فلسطينيين، بعض الأجهزة الأمنية اللبنانية يعمل على تسهيل مرور المواد الممنوعة وتأمين غطاء لهؤلاء المخبرين لإمرارها بهدف الإيقاع بالعدد الأكبر من المطلوبين للدولة.

ففي مخيم عين الحلوة، أكثر المخيمات الفلسطينية إثارة بالنسبة إلى الأجهزة اللبنانية، هناك تاجر سلاح معروف لا يخفي طبيعة عمله، ويقصده «هواة» شراء الأسلحة الحربية حيث يجدون ما يبحثون عنه بـ«أسعار جيدة». لكن «مشكلته الوحيدة» أنه على تواصل مباشر مع بعض الأجهزة الأمنية اللبنانية. روى لي بعض أبناء المخيم قصصاً كيف أن الرجل «يلبي طلبات زبائنه، ويسارع فور خروج الزبون إلى الاتصال بالقوى الأمنية التي تلاقي الشاري عند باب المخيم لتحتجزه، وتعيد قطعة السلاح إلى الرجل».

ينتشر «المخبرون» بكثافة في عين الحلوة. فعدا كونه أكبر المخيمات الفلسطينية وأكثرها كثافة سكانية في لبنان، يسكن المخيم الفلسطيني بعض المطلوبين الإسلاميين. «عيون» الدولة في عين الحلوة معروفون، إضافة إلى أسماء ضباط الارتباط المسؤولين عنهم. ليس هذا فحسب، فهؤلاء يكادون يكونون مفروزين إلى جداول وفقاً لأي جهاز أمني يعملون لحسابه.

بالنسبة إلى القيادات الأمنية الفلسطينية في المخيم، يتسبب المخبرون في «أزمة في العلاقة بيننا وبين القوى الأمنية اللبنانية»، كما روى لي قائد قوات الكفاح المسلح محمود عيسى الملقب بـ«اللينو». حدثني كيف يكتب هؤلاء تقارير «ضد أشخاص يكرهونهم»، ويضمّنونها معلومات مغلوطة، لافتاً إلى أنه «من الناحية الأمنية، فإن كل هذه التقارير مفيدة، لأنه من بين مئة معلومة خطأ لا بد أن تمر معلومة صحيحة يمكن الاعتماد عليها».

الفقر يحيل الكثير من الأشخاص العاطلين من العمل في المخيم إلى مخبرين. الحصول على بطاقة تشريج هاتف مسبقة الدفع أو حتى ساندويش قد يجعلك تمتهن وظيفة المخبر. ولكي يحافظ على «مهنته» أو بسبب مشكلة شخصية معه يدس اسمك زوراً في تقرير، فيعمم اسمك، وتعرف أنت بذلك بطريقة أو بأخرى فلا تعود تخرج من المخيم نهائياً. وهذا يعني أنك ستصبح بلا عمل. لأن خروجك يعني المخاطرة بتوقيفك لسنوات قبل أن تثبت براءتك. وبما أنك تتحول إلى مطلوب فلن تهتم بما ستقترفه من جرائم وسرقات وإطلاق نار.

هذه الحال البائسة تقوم المجموعات الجهادية باستغلالها. فتشرع في تعبئة هؤلاء المطلوبين والعاطلين من العمل واستقطابهم. هؤلاء الذين يشعرون أنهم ناقمون وعاجزون. هل جميع المطلوبين في المخيم متورطون؟ ليس الجميع. لكن من ليس متورطاً سيصبح كذلك لاحقاً ثم يغرق شيئاً فشيئاً. هل جميعهم سيئون بمن فيهم الجهاديون؟ كلا. هل بعضهم عملاء لأجهزة معينة؟ قد تكون هناك اختراقات من أجهزة معينة. لكن يستحيل أن يكون هناك انتحاري كذاب. الانتحاري هو أصدق إنسان. فهو يقود سيارة مفخخة ويفجر نفسه. يقدم أغلى ما يملك، أي جسده وروحه من أجل القضية التي يؤمن بها. قد يكون بعض قادتهم على صلة بأجهزة مخابرات، لكن المنفذين هم أدوات صادقة. لعله الحلم بحياة أفضل هو ما يقود هؤلاء إلى مصير كهذا. يشبهون كل الناس. إذ يستحيل ألا يكون هناك أمل ما جميل تعيش لأجله، وإلا فإنك ستموت. الطبقية وحب المال ينخران العدالة نفسها، حتى تصح مقولة «ناس بسمنة وناس بزيت». ففي ملف عبرا من كان يملك المال كان يتم توقيفه ثم يفرج عنه وبعضهم كانوا يسافرون خارج البلد. في لبنان لا يوجد عدالة. الطبقية ولادة حقد طويل. لكن هذا الحقد يولد أملاً ذا طابع عنيف، بشكل يسعى أصحابه لتحقيقه بالقوة. من هنا يرى الكثير من الجهاديين أن «الدولة الإسلامية» هي الحل والحلم لأنها لا يمكن إلا أن تكون دولة عادلة، لكن هذا لن يحصل في ظل الجهل والفهم القاصر للعدالة. فهؤلاء الذين يحلمون بها هم

أنفسهم ضد المساواة بين البشر. ورغم أن الإمام علي ابن أبي طالب يقول إن «الناس صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق». لكن هذا غير معترف به عند معظم الجهاديين. فالمسيحي بالنسبة إليهم أدنى مرتبة، ولا يمكن أن يُساوى مع المسلم. بعض هؤلاء يحيون العقيدة الإسرائيلية نفسها التي تعتبر اليهود «شعب الله المختار».

لفتني مشهد لا يمكن أن أنساه. كنت أصور في بيت «أبي هريرة»، القيادي في «فتح الإسلام» الذي قتل في التبانة عام ٢٠٠٨ أثناء محاولة توقيفه من قبل أحد الأجهزة الأمنية. في العام ٢٠١١ التقيت ولده وعمره ٨ سنوات. أخذني إلى قبره الكائن في مقبرة الغرباء. وبالصدفة، سألته عمّن قتله، فقال: حزب الله. علماً أنه لم تكن هناك وقتذاك أي مشكلة مع الحزب الذي وقف ضد الدخول إلى مخيم نهر البارد.

في إحدى المرات كنت أعد تقريراً عن أطفال السلاح. أولاد في سن ١٠ سنوات يشاركون في اشتباكات التبانة - جبل محسن. التقيت شاباً اسمه خالد، وقلت له «بدي آخدك نصور كم لقطة إنت وصبي بجبل محسن»، خالد كان هو من يقود المجموعة. كان يعرف الطرقات والزواريب. في مرة فتح قنبلة في منتصف السوق. والده اشترى له رشاشاً هدية وكان عمره ١١ سنة، كما أنه يمتلك مسدساً.

سألته يومذاك لماذا يكره العلويين، وهل يقبل أن يتخذ من بينهم صديقاً. فأجاب لو كان صديقي علوياً لكنت قتلته بيدي هاتين. ولما سألته عن السبب، قال: «يسبون أئمتنا والصحابة، والسيدة عائشة،

هؤلاء لا يجب أن يبقوا أحياء يجب أن يموتوا كلهم». قلت له: «لكنه صغير»، فأجابني: «صغيرهم وكبيرهم مثل بعض». علماً أنّ والده ليس متطرفاً، ولديه علاقات مع العلويين في جبل محسن.

المؤشر الأول حول الدافع إلى التطرف كانت الخطابات السياسية وخطب الجمعة والفقر. هذه العوامل الثلاثة كانت سبباً أساسياً في كل ما يجري.

في إحدى المرات قابلت بلال بارودي شيخ القراء في طرابلس، فقال لي: «هم بدأونا العداوة». قلت: «من؟»، فأجابني: «أنتم الشيعة وحزب الله».

«أنا لست من حزب الله ولست شيعياً، لماذا افترضت ذلك؟» رددت بانفعال لأنه كان هجومياً تجاهي. فقال لي: «لن نرضى بأن نطلق طلقة واحدة على إسرائيل قبل أن نقضي على حزب الله». فإذا كان هذا ما يُفكّر بعض المشايخ، كيف بالعامة الذين يستمعون إلى خُطب هؤلاء.

كذلك تؤدي الرسائل الإعلامية دور رأس الحربة في المواجهة لدى الجهاديين. وهذا ما ركّز عليه تنظيم «الدولة الإسلامية»، سواء في خطابه أو مقاطع الفيديو المصورة. تخيّل أنّ المتحدث الإعلامي باسمه أبو محمد العدناني وصف جنود التنظيم بأنّهم «أسودٌ شرابهم الدماء وأنيسهم الأشلاء». هذا للإيغال أكثر في الرعب. ناهيك عن حجم التفنن في الإجرام في قتل الأسرى، سواء حرقهم أو إغراقهم

أو طحنهم أو حتى تفخيخهم ثم تفجيرهم أو جزّ رؤوسهم. كل هذه الدموية كانت تعزز النظرة المتوحشة عن التنظيم، وهذا ما كان يريده. لأن رسالته إلى العالم كانت السيف. وهذا ما ساعد التنظيم على احتلال مدن عراقية وسورية بمكبرات الصوت أحياناً. كان مقاتلو الحشد الشعبي، في المراحل الأولى للمواجهة، لمجرد سماعهم تكبيرات مقاتلي «الدولة الإسلامية» ووصول الانتحاري الأول ليُفجّر نفسه، يفرّون ويُخلون مراكزهم هرباً من «قاطعي الرؤوس». رغم أنّ الحقيقة كانت شيئاً آخر. إذ لم تكن قوة هؤلاء تُشبه الصورة الأسطورية التي قدّمها الإعلام.

يتفوق الجهاديون، وتحديداً تنظيم «القاعدة»، على غيرهم في الأناشيد الدينية. تتميّز من حيث الإيقاع لتكون فناً قائماً بذاته. اكتشفت أن أنشودة «أخي سوف تبكي عليك العيون» التي لحّنها حزب الله، يُنشدها أبناء «القاعدة»، وبعدما قمت بالبحث عنها وجدت أن سيد قطب هو من كتبها. وهناك العديد من الأناشيد البارزة، من بينها نشيد «أوجعيني يا جراحي»، التي تلعب دوراً كبيراً في تعبئة المجاهدين. عندما تسمعها تشحذ همتك لدرجة لا تأبه معها في أن تُقتل. كما أنها تحوز الكثير من اهتمام المجاهدين فيكررونها ويحفظونها عن ظهر قلب. هذا ما وجدته في سوريا. هذا النوع من الأناشيد يتكلم عن المظلومية.

الإحباط السنّي؟

تمكنت القوى الأمنية اللبنانية من ضرب البنية الهيكلية للتنظيمات الجهادية الثلاثة التي تنشط على الساحة اللبنانية: كتائب عبدالله عزام والدولة الإسلامية وجبهة النصرة. أوقف العديد من الجهاديين، وفُكِّكت الخلايا التابعة لهم. سقطت أسماء لامعة في عالم الإرهاب بدءاً من نعيم عباس وعمر الأطرش، وبلال كايد قبل أن يموت الشيخ ماجد الماجد في ظروف غامضة بعد توقيفه من قبل استخبارات الجيش. كانت هذه الضربات قاسية تزامناً مع نكسات عسكرية تلقوها في سورية. كل ذلك جعل الجهاديين محبطين. عزز هذا الإحباط تعرضهم للخيانة جراء اختراقهم من قبل الأجهزة الأمنية اللبنانية.

في البدء كنت قريباً من «أبو عائشة». أذكر أنني كنت عنده في عرسال حينما أتاه اتصال، لم يلبث الرجل أن حمد الله بعده، سألته «ماذا هناك؟». «انذبح فلان، كان عميلاً واعترف وذبحوه»، أجابني ببرود.

«لا إله إلا الله، بشرفك كيف هيك؟» قلت مشدوهاً من فعل الذبح ومن هدوئه. لا سيما أنّ المذبوح كان صديقاً له. هنا لم يكن أمام

«أبو عائشة» إلا أن يرجوني قائلاً «رجاءً يا رضوان لا تقل بشرفك، قل بالله عليك، لا تستطيع أن تحلفني بغير الله».

لم ألتفت إلى رجاء أبو عائشة كثيراً. لم أكن سوى إنسان مسكون بسؤال كبير عن القتل. كيف يحدث؟ ولماذا؟ كيف يشكر الرب الرحيم على قتل إنسان بهذه الوحشية؟

«طيب بالله عليك، كيف بتفرح وتشكر ربك على ذبح إنسان؟» سألته بانفعال لينطق بنبرة هادئة مملوءة بالثقة «فعل القتل هو نفسه يا أخي. الناس يستعظمون الذبح، لكننا نرى في هذا الفعل تحديداً ترهيباً للعدو. ليس لدينا قنابل كبيرة تلقى وتحيل العدو فتاتاً. ثم إن الذي يموت، سيكون يختبر الموت نفسه وليس الطريقة التي يموت بها. فهو ميت بكل الأحوال، سواء أطلقت عليه النار أو ذبحته أو فجرته. القتيل سيشعر بثقل اللحظة لبرهة ثم بعدها لن يعود يحس بشيء».

بعد ما تفوه به هذا الرجل لم أجد بُدّاً من طرح سؤال بدا صادماً لأبي عائشة «إذا حصل أمر ما هل ستقوم بذبحي؟»، فأجابني ضاحكاً «لا، لن أذبحك».

قبل فترة كنت قد التقيت «أبا عائشة» في عرسال. كان يرتدي حزاماً ناسفاً، لكنه أقسم «لست استشهادياً. يا حبذا لو كنت من هؤلاء. هذا الحزام للحؤول دون توقيفي. يرتديه العناصر الأمنيون مثلي». طلب النزول معي إلى بيروت فلم أوافق متذرعاً «بأني لست ابن «المنهج»، وأنا مجرد صحافي وهذا مخالف للقانون».

بعد «أبو عائشة» الذي كان يوقظني لصلاة الصبح كل يوم، تعرفت إلى «أبو خديجة» الذي يقيم في مخيم عين الحلوة. هذا الشخص قاتَل في القصير السورية، وأعطبت يده بسبب إصابة. عرّفني إليه «أبو عائشة» وأخبرني أنه ثقة كي لا أنفر منه بسبب شدة حرصه ليبدأ تواصلنا عبر السكايب.

والجدير ذكره أنّ معظم الدردشات عبر السكايب مع معظمهم كانت تنطلق من مواضيع دينية. السؤال المفتاح في هذه المواضيع، هل تصلّي؟ هل تقوم لآداء صلاة الفجر؟ هل تصلّي النوافل والتراويح.. هل تحفظ الأذكار. تنتقل الأحاديث بعدها إلى خوض غمار السياسة. ومنها إلى الحديث عن الفريضة الغائبة. عن فضل الجهاد وعن أنّ «ذُلّنا هو في تخلّفنا عن الجهاد وتبنّينا أفكاراً علمانية مثل الحرية والمساواة والعيش المشترك».

اتّفقنا على اللقاء. كنت قد حصلت على موعد معه في الساعة العاشرة صباحاً قرب مسجد النور في المخيم. رافقني صديق بصفة سائق يدعى حسن سعد. وقفنا ننتظر الدليل الذي سيوصلنا إلى «أبو خديجة». بعد وقت أتى شاب بــ«سكسوكة»، يلبس شورتاً. مر أمامنا مرتين متعمداً أن يكون مشيه بطيئاً. ولما هممت بالمشي مغادراً بعدما تأخر الوقت من دون أن يحضر أحد، مرّ مجدداً وهمس لي «الحقني». «أنا؟»، قلت له.

نظر إلي وقال: «الحقني الحقني وما تحكي».

بدا لي أنهم شعروا بالريبة من وجود شخص آخر معي. قلت لحسن أن يتبعني. مشينا خلف الرجل، ثم بدأنا ندخل بما يشبه الدهاليز حتى وصلنا إلى أحد البيوت. نظر إلي الرجل قائلاً: اتفقنا أن تأتي لوحدك، ثم قرع باب البيت وبقي مستمراً في سيره مشيراً بيده إلى الباب أن ادخلا في منزل أشار إلى بابه هنا. بعدما دخلنا أنا وحسن صعدنا إلى الطابق الثالث. هناك استقبلني رجل مقنع كانت يده مخفية عن النظر. توقعت أن يكون يضعها على حزام ناسف أو سلاح. فهو ربما يكون «نقزان مني». الغرفة التي دخلناها لم يكن فيها أي شيء إلا ماكينة صغيرة. لم أستطع تحديد طبيعتها. جلس الرجل الذي بقي مبتسماً طوال الوقت، ليطلب مني نقل هويات مزورة. لكني رفضت. فقد أخرج مظروفاً، وقال: «أريد منك إيصال مجموعة هويات لأبي عائشة». فتحت المظروف فإذا بداخله هويات مزورة.

- «أنت ثقتنا»، قال.
- «من صنعهم؟».
- «نحن»، أجاب ثم أردف «هناك طلب آخر، نريد أن تأتي لنا ببطاقة حماية موكب».
- «أنا صحافي ولا أملك بطاقة كهذه، ثم إنه بإمكانكم أن تحصلوا على مثلها بأكثر من طريقة. أبا خديجة أنا لا أستطيع أن آخذ الهويات، فأنا أعرف أنه سيستخدمها استشهاديون. كما أني لست ابن المنهج»، قلت متذكراً التفجيرات التي حصلت، والتي وقع أحدها قرب منزل أهلي.

- «لا ليست لاستشهاديين. أنت أوصل الهويات فقط، إنها لإخوة يريدون العبور من عرسال».
- «لماذا أنا؟ في عندكن ناس كتير».
- «أنت الآمن.. ونحن مضطرون».
- «سأرد عليكم خبراً»
- «لماذا؟»
- قلت «بيخترب بيتي، إذا توقفوا معي مصيبة، بعدين ما بقدر إنقل هوية لشخص ممكن يكون بكرا استشهادي».

رضخ الرجل لمخاوفي ثم سألني عن «أبو عائشة». قلت له وقتذاك إنه في عرسال. بقي يواصل حديثه فيما انتابني شعور بأنه عليَّ المغادرة فوراً.

بعد ذلك اللقاء لم يتوقف أبو خديجة (فلسطيني في أواخر العشرينيات ويقوم بتزوير الهويات) عن إيقاظي لأداء صلاة الصبح.

يده المخفية كانت علامة فارقة بعدما أصيب في معارك القصير. واكتشفت لاحقاً من خلال تقرير أمني أنّه أحد العناصر الأمنية في تنظيم كتائب عبدالله عزام. والعنصر الأمني هو من يُكلّف القيام بمهام أمنية كالاستطلاع والرصد وزرع العبوات الناسفة والاغتيالات.

إصابة «أبو خديجة» لم تحل دون استمرار دخوله إلى سوريا. ورغم أنّ بنيته تبدو ضعيفة، إلا أنّ أصحابه يقولون إنه مقاتل شرس. كدت في إحدى المرات أهشّم علاقتي به. ففي مرة استيقظت وانهلت

عليه بالسباب وأقفلت الخط عندما كان يوقظني فجراً. يومذاك كنت أغادر مكاتب جريدة الأخبار في وقت متأخر جداً. وكان مضى أكثر من يومين نمت فيهما مطلع الصبح وكنت أشعر بإرهاق شديد.

بعد تلك الحادثة، بنصف ساعة، استفقت مصدوماً. ماذا فعلت لتوي؟ لم أنم. هل أنا معتوه؟ قلت لنفسي. تكلمت مع «أبو عائشة» وأخبرته بما جرى. انتابته نوبة ضحك من ردة فعلي. مهّد لي أبو عائشة مجدداً للاتصال بأبي خديجة حيث اعتذرت منه وشرحت له ما جرى ثم عادت العلاقة إلى طبيعتها.

بعد توقيف نعيم عباس، أخبرني أبو خديجة أنّ عباس ترك «كتائب عبد الله عزام» وأنه «يعمل لحسابه».

نعيم عباس. من المؤكد أنكم سمعتم بهذا الاسم. منذ أول تفجير ضرب الضاحية الجنوبية لبيروت بعد الأزمة السورية. يفاخر نعيم عباس بفعله. يقول إنه استطاع إدخال متفجرات إلى الضاحية، وإنه قاتل الحزب وضربه في عُقر داره. سأله العميد المحقق «من أين تأتي بالسيارات المفخخة؟ هل يُفخخها لك معلّمك توفيق طه». أجاب بثقة كبيرة: «أنا لا أحصل على سيارات مفخخة، أُحب أن أُفخخ بيدي».

سبق لي أن زرت منزل عائلة نعيم عباس. تعرفت إلى شقيقه ووالده وابنه اسماعيل. تعيش العائلة في منزل فقير جداً مؤلف من ثلاث طبقات. لا يمكن أن يكون أقل من ذلك. الخسف الذي أصاب المبنى يدفعك إلى أن تخفض رأسك كي تتمكن من الدخول إلى الطبقة

الأرضية. غرفتان كبيرتان تزيّن إحداها صورة كبيرة لنعيم عباس، العم الذي سُمّي على اسمه «عبقري التفجيرات»، وقد استُشهد في أحداث ١٩٥٨ اللبنانية. قُتل على أيدي القوى الأمنية اللبنانية أثناء مشاركته في إحدى التظاهرات. هنا لا شيء سوى البؤس. عندما تعاين الحي بعينيك، تختلف النظرة. هنا نشأ نعيم وترعرع. ومن هذه الغرفة، انطلق ليطلق الصواريخ على العدو الإسرائيلي ثم يبدأ بنقل الانتحاريين والسيارات المفخخة إلى ضاحية بيروت الجنوبية.

فُصل نعيم عباس من «كتائب عبد الله عزام». ابتعد عن الشيخ توفيق طه المعروف بـ«أبو محمد» بسبب خلافات تنظيمية داخلية. ثم بايع تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» ليبدأ العمل للفصيل التوأم لـ«القاعدة»، من دون أن تربطه أي علاقة بفرع «الدولة» الذي أعلنه المدعو «أبو سياف الأنصاري».

الرجل الذي يحمل أكثر من لقب (أبو اسماعيل وأبو سليمان) وتصفه الأجهزة بأنه «عقل أمني وذراع تنفيذية» لا نظير لهما، وقع في قبضة استخبارات الجيش. كان خبراً لا يصدق في الأوساط الأمنية وصادماً في الأوساط الإسلامية، لكنه تحقق. بشكل مفاجئ، انهار عباس وأقر، خلال وقت قياسي لا يتجاوز أربع ساعات، بمعلومات خطيرة كانت في جعبته أفشلت أكثر من مخطط لهجمات انتحارية وقصف صاروخي قبل وقوعها. وهو أرشد عناصر قوة الجيش التي أوقفته في زاروب التمليص في طريق

الجديدة إلى السيارة المفخخة المركونة في كورنيش المزرعة، مدلياً باعترافات سريعة عن عدة عمليات إرهابية كان يحضر لها وأخرى نسق تنفيذها سابقاً، وكل ذلك خلال المدة الوجيزة التي استغرقها اقتياده بالسيارة العسكرية من مكان التوقيف إلى مقر وزارة الدفاع. نعيم عباس (٤٣ عاماً)، اسم لمع في سماء «الإرهاب والجهاد». الرقم الصعب في مخيم عين الحلوة، الذي يحضر عند ذكر قياديين بارزين أمثال توفيق طه وماجد الماجد وأسامة الشهابي وآخرين، وقع في الفخ. اسم عباس عاود الظهور مع توقيف الشيخ عمر الأطرش، المتهم بنقل انتحاريين إلى الضاحية الجنوبية. ذكر اسمه يومذاك بوصفه «أبو سليمان» الذي يملك مستودعاً على أطراف الضاحية، تركن فيه السيارات المفخخة قبل توجهها إلى هدفها. قبل ذلك، كان الرجل يعمل في الخفاء. يحب الظل ويكره الإعلام. وكان اسمه قد تردد مرات عدة قبل ذلك في قضايا إطلاق صواريخ في اتجاه الأراضي المحتلة واستهداف قوات اليونيفيل. وبرز اسمه عام ٢٠٠٩ في اعتراف أحد الموقوفين فادي إبراهيم الملقب بـ«السيكمو» الذي أفاد بأن عباس متورط باغتيال قائد عمليات الجيش اللواء فرنسوا الحاج عام ٢٠٠٧. ورغم ذلك، ليس في أرشيف الأجهزة الأمنية سوى صورتين قديمتين لعباس، إحداها عمرها أكثر من عشرين عاماً والثانية التقطت له منذ أكثر من ثماني سنوات يظهر فيها جالساً على متن دراجة نارية في مخيم عين الحلوة. يشبه «أبو اسماعيل» معظم «الجهاديين». الرجل الأربعيني، الذي

انفصل عن حركة «الجهاد الإسلامي» منذ سنوات ليعمل مع «القاعدة»، قليل الكلام. ورغم سرعة اعترافه القياسية، يجمع كل من قابله على أن الرجل يتقن فن الصمت. يبدي دائماً قلة اطلاع على الأوضاع، لكن حماسته تفضحه أحياناً. امتنع لفترة عن حمل جهاز خلوي لضرورات أمنية، لكنه عدل عن قراره بحكم الضرورة أيضاً. وصار يستبدل رقمه بين فترة وأخرى. الشاب الذي كان معجباً بـ«حزب الله» في السنوات الماضية، بات يعتبر «الحزب الشيعي» عدوه اللدود. يكيل الاتهامات لـ«الحزب الذي وقف في صف النظام السوري الظالم ضد الشعب المظلوم». ويفخر بانتمائه إلى منهج «القاعدة»، فيقول موجهاً كلامه إلى «حزب الله»: «نحن أحفاد الحسين الذين ثاروا على ظلم طواغيت العصر وليسوا هم الذين ناصروا الظالم». الخيط الذي أوصل إلى توقيف نعيم عباس كان معلومة من الاستخبارات الأميركية. ورغم أنّ عباس الذي حاول العدو الإسرائيلي اغتياله بعبوة ناسفة عام ٢٠١٠، كان متابعاً عن كثب من قبل استخبارات الجيش، إلا أنّ المعلومة لم تُحدد أنّه نعيم عباس. قالت فقط إنّه قيادي بارز في تنظيم القاعدة. أما عن الأسباب التي عجّلت في اعترافه، فتكشف المصادر الأمنية أنه ووجه بتسجيلات ومضمون تنصّت على اتصالات ودلائل أخرى، فضلاً عن وقع صدمة التوقيف التي سببت انهياره السريع.

لقد كان نعيم عباس إرهابياً استثنائياً. عمل مع مختلف التنظيمات

الجهادية في الوقت نفسه. تنقّل من «القاعدة» إلى «كتائب عبدالله عزام» ثم «جبهة النصرة» فـ«الدولة الإسلامية». وهو متعهّد التفجيرات ومهندس معظم العمليات الانتحارية التي ضربت ضاحية بيروت الجنوبية. جمع الرجل الأضداد. من حركة فتح إلى الجهاد الإسلامي. من قتال إسرائيل واستهداف مستعمراتها إلى قتال حزب الله واستهداف الضاحية الجنوبية. كما جمع في آن واحد «الإخوة الأعـداء»، أي تنظيمَيْ «النصرة» و«الدولة» اللذين لم يستطع «أهل الحل والعقد» جمعهما. وفوق كل ذلك، شدّد خلال استجوابه على أنّه لم يكن يوماً مع الاعتداء على الجيش، لأنه كان يعلم أنّ ذلك سينعكس سلباً عليه.

بتاريخ ١٢ شباط ٢٠١٤، في شارع عفيف الطيبي في الطريق الجديدة، تمكنت استخبارات الجيش من توقيف المطلوب نعيم عباس. كان في حوزته فتيل صاعق بطول ٢٢٠ متراً وبوصلة عسكرية وبطاريتان، إضافة إلى مبلغ مالي قدره ١٩٥٠٠ دولار أميركي و ٣٠٠٠ يورو. كما عُثر معه على رخص سوق وبطاقات هوية لبنانية وسورية مزوّرة. خلال التحقيق سرد عباس مسيرته الحزبية.

فذكر أنّه انتمى إلى حركة فتح ثم الجهاد الإسلامي عام ١٩٩٣، وأنّه خضع لدورة عسكرية في الهرمل لمدة أربعين يوماً تدرّب فيها على تشريك المتفجرات والرمي بمدافع الهاون واستخدام الأسلحة المتوسطة. كما ذكر أنّه خضع لدورة في حماية الشخصيات.

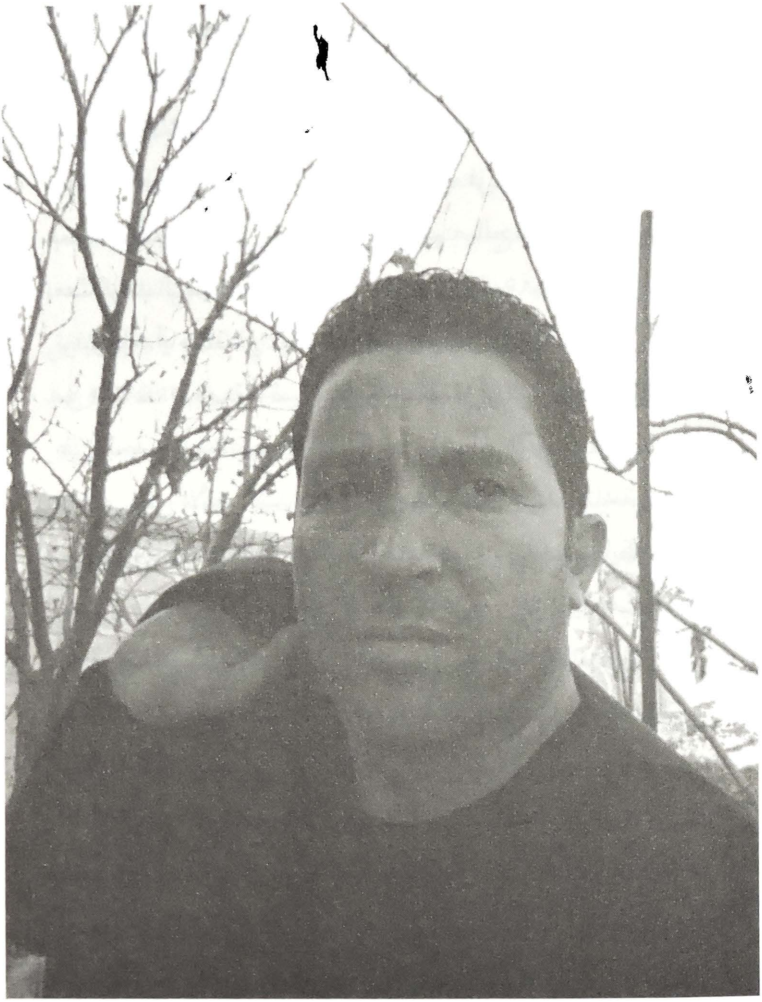

نعيم عباس من معجب بحزب الله إلى عدوّه اللدود (المسؤول
عن معظم التفجيرات الانتحارية التي استهدفت ضاحية بيروت)

تطرق عباس إلى إطلاق الصواريخ على إسرائيل. فذكر أنّه في عام ٢٠٠٢، أطلق خمسة صواريخ من دير ميماس على مستعمرة كريات شمونة، بالاشتراك مع الفلسطينيين يوسف شبايطة وصالح قبلاوي وعاصم هريش. التحق بتنظيم «القاعدة» في العراق عام ٢٠٠٥، بعدما تجنّد على يدي القيادي في التنظيم صالح قبلاوي، ودرّب في معسكرات التنظيم التكتيك العسكري. وفي أيار ٢٠٠٥، كُلِّف من قبل توفيق طه، أيام كان في «عصبة الأنصار»، ومن «أبو الليث الجزراوي» من «القاعدة»، بتهيئة أرضية لتنظيم «القاعدة» في لبنان. عاد إلى مخيم عين الحلوة بعدما بايع الأمير الشرعي للتنظيم المدعو «أبو صهيب الشرعي» في الأنبار، ليبدأ بعدها في تجنيد العناصر لمصلحة التنظيم في لبنان، فاستحصل على مبايعة محمد جمعة ويوسف شبايطة ونعيم النعيم ومروان حمادة وبشير البيطار وآخرين. وتحدث عباس عن محاولات عدة لإطلاق صواريخ من الجانب اللبناني باتجاه الأراضي المحتلة، فشل معظمها، وأشار إلى أنه عمد بعدها إلى إعطاء دروس عسكرية لشبّان سعوديين في منزله في المخيم.

عام ٢٠٠٨، انتقل عباس إلى سوريا بواسطة هوية مزوّرة، وهناك تعرّف إلى جمال دفتردار وماجد الماجد وبلال كايد ووسيم نعيم، ليُصبح عضواً في «كتائب عبدالله عزام»، وتولى منصب «قائد سرايا زياد الجراح»، الذي كانت مهمته تنفيذية، فيما كان توفيق طه نائب الأمير السعودي ماجد الماجد الذي كان مرتبطاً بـ «ألوية عبدالله عزام»

في وزيرستان. وتولّى هؤلاء تنفيذ عدد من العمليات الأمنية، لا سيما استهداف قوات اليونيفل في الجنوب.

عام ٢٠١٢، اتّفق عباس مع كل من ماجد الماجد وتوفيق طه وجمال دفتردار ونعيم النعيم على إنشاء خلايا لـ«كتائب عبدالله عزام» في سوريا. كُلِّف دفتردار بتولّي هذه المهمة على أن يعاونه فيها محمد جمعة. وانتقلا لهذه الغاية إلى القصير عبر عرسال. في تلك الأثناء، تدهورت حال الماجد الصحية. فلازمه دفتردار للعناية به، فيما انتقل إلى القصير الفلسطيني محمد الأفندي ومحمود عبد القادر وعبد الرحمن النميري الملقّب بـ «أبو دجانة» ومحمد جمعة، ومنها إلى جوسيه حيث أنشأوا مخيّماً تدريبياً بالتعاون مع خالد حميد وراحوا يتدرّبون ويُدرّبون على الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والعمليات الأمنية.

في أيلول ٢٠١٢، وصل إلى مخيم عين الحلوة الشيخ سراج الدين زريقات ليُبايع «كتائب عبدالله عزام»، فأشار عليه الماجد بالانتقال إلى سوريا لأنّ أمره افتُضح في لبنان. وذكر عباس أنّه في تموز من العام نفسه، كلفه الماجد بالسفر إلى سوريا للالتحاق بمجموعة «أحرار الشام» بقيادة أحمد طه، الملقّب بـ«أبو حسن الفلسطيني»، والمكلّف من قبل توفيق طه بتجميع المجموعات المسلّحة وإرسالها إلى منطقة مضايا قرب الزبداني للدخول إلى وادي بردى. هناك أنشأوا مخيّماً للتدريب على رمي الصواريخ. وبعد انتهاء الدورات، عاد إلى عين

الحلوة مستخدماً بطاقة هوية مزوّرة باسم «بسام سعيد المحمود». وهنا اتّفق مع أحمد طه على ضرب الضاحية الجنوبية بالصواريخ انتقاماً من حزب الله الذي أعلن جهاراً أنّه يقاتل «الجهاديين» في سوريا. وبالفعل، قام نعيم عباس بتاريخ ٢٦ أيار ٢٠١٣، بالاشتراك مع أحمد طه ومحمد جمعة، بإطلاق ثلاثة صواريخ من عيتات على مجمع سيد الشهداء، لكنّها أخطأت هدفها لتسقط في محلة مار مخايل ـ الشيّاح. جرى الاتفاق بعدها مع طه وحسين الزهران الملقّب بـ«أبو بكر» على العمل لتفجير سيارات مفخخة في الضاحية الجنوبية. وبالفعل، قاموا بتفجير سيارة كيا مسروقة في بئر العبد بتاريخ ٩ تموز ٢٠١٣. وذكر نعيم عباس أنّ حسين زهران ومحمد الأحمد وسعيد البحري والسوري أبو آدم فجّروا سيارة مفخخة بتاريخ ١٥ آب ٢٠١٣ في الرويس التي راح ضحيتها أكثر من أربعين ضحية وعشرات الجرحى. انتقل بعدها عباس إلى يبرود عبر عرسال حيث درّب عناصر من «جبهة النصرة»، واشترك معهم في إطلاق أربعة صواريخ على القوات الخاصة السورية قبل أن يعود إلى عين الحلوة. وفي ٢٠ كانون الأول من العام نفسه، انتقل إلى بيروت ليستأجر شقة في الطريق الجديدة. وتواصل مع أحمد طه الذي أبلغه أنه ترك «الكتائب» وانضم إلى «النصرة» قبل أن يلتحق أخيراً بتنظيم «الدولة الإسلامية» في القلمون. وذكر عباس أنّه أواخر عام ٢٠١٣، أرسل «أمير الدولة» في يبرود المدعو «أبو عبدالله العراقي»، بواسطة أحمد طه، سيارة شيروكي زيتية يقودها انتحاري وانغماسي،

وطلب منه تأمين مأوى لهما في بيروت وتزويدهما ببطاقتي هوية مزورتين لكي يتنقلا بسهولة على الأراضي اللبنانية. وأُبلغ عباس أن ينسق في هذا الخصوص مع بهاء الدين السيد، أحد رجال طه، وزوج شقيقة الأخير المدعو محمد الظريف. لكنّ هؤلاء لم يلتزموا بأوامره لجهة عدم حمل أي حزام ناسف وعدم التعرض للجيش، فسقطوا في اشتباك مع الجيش عند حاجز الأولي. كما سقطوا في انفجار حزام ناسف وقنابل في مواجهة أخرى في مجدليون. وذكر عباس أنّه في ٢٠ كانون الأول ترك عين الحلوة ليبيت ليلته في الطريق الجديدة، ومن هناك انتقل إلى يبرود حيث التقى أمير «النصرة» أبو مالك التلّي، بحضور كل من «أبو صهيب» والمسؤول عن ملف لبنان في «جبهة النصرة» المدعو أبو خالد. فطلب الأخير منه أن يهيّئ الأرضية لـ«النصرة» للعمل سريعاً على الساحة اللبنانية، لأنهم يريدون إرسال سيارات مفخخة وانتحاريين إلى لبنان. وافق عباس واضعاً شقّته في الطريق الجديدة بتصرف أبو خالد وانتحارييه. وأبلغه أنّه سيعمل على دراسة الأهداف المحتملة للتفجير في الضاحية.

وقبض عباس من «أبو خالد» ٢٠٠٠ دولار لتغطية المصاريف، و٤٠٠٠ دولار من أحمد طه للغرض نفسه. ثم عاد إلى لبنان حيث التقى أمين عثمان الذي سلّمه مفتاح سيارة شيروكي مفخّخة مركونة في موقف عمومي في صبرا. وتواصل إلكترونياً مع الانتحاري الذي يدعى قتيبة، أحد أبناء وادي خالد، ورافقه إلى السيارة حيث أرشده إلى

الطريق التي ستوصله إلى الهدف المتمثّل بالأمانة العامة لحزب الله في حارة حريك. وهناك حصل الانفجار الأول في الشارع العريض بتاريخ ٢ كانون الثاني ٢٠١٤. كما ذكر عباس أنّه استقبل الانتحاري الثاني الذي قاد السيارة المفخخة الثانية التي انفجرت في حارة حريك أيضاً في ٢١ من الشهر نفسه، كاشفاً أنّه سوري يدعى محمد مدللة. وأنكر عباس علاقته بتفجير الهرمل، مؤكداً أنّ «أبو خالد» تحديداً يقف وراء هذا الانفجار. وذكر أن الأخير تواصل لاحقاً معه ليكلّفه بالتحضير لعملية تفجير جديدة، وأنّه طلب منه تحضير المتفجرات والمستلزمات المطلوبة لأنّ الانتحاري الذي سيُفجّر نفسه أصبح جاهزاً. وقد استأجر لهذه الغاية مستودعاً في منطقة الدبية ـ السعديات. واتصل عباس برفيقه محمد جمعة طالباً إليه تزويده بمستلزمات لوجستية، وأن يؤمن له بندقية كلاشنيكوف مع خمسة مماشط. وتحدّد الهدف بمبنى قناة المنار في منطقة الجناح. وكانت الخطة تقضي بأن يهاجم الانتحاري حراس المبنى بإطلاق النار عليهم، ثم يفجّر الحزام الناسف الذي يرتديه، علماً أن نعيم عباس هو من صنع الحزام الناسف. وقد اصطحب أمين عثمان الانتحاري إلى المستودع وقاما باستطلاع الهدف وكيفية الوصول إليه. وبتاريخ ٣ شباط ٢٠١٤، انتقل الانتحاري بواسطة سيارة أجرة ثم استقلّ باصاً عمومياً. وقد لاحظ سائق الباص الحزام الناسف، فسأل الانتحاري عنه ثم تلاسن معه، فارتبك الانتحاري وفجّر نفسه في الباص.

لم يقتصر عمل عباس على «جبهة النصرة» فحسب، إنما وافق مهندس التفجيرات على العمل لمصلحة تنظيم «الدولة الإسلامية» أيضاً بناء على طلب أحمد طه. واتصل بمحمد جمعة الذي عرّفه إلى حسام البكري، ليشتري منه كمية من الأسلحة والصواريخ والمتفجرات. وقد نُقلت هذه الكميات بسيارة أمين عثمان إلى مستودع السعديات. وأبلغ طه عباس بوجوب التوجه إلى مركز جمعية التقوى في بيروت لقبض المال من الشيخ السوري عمر جوانيه الملقب بـ«أبو عمر الحمصي». وأعطاه علامة بأن يد الحمصي مقطوعة للتعرف إليه. وبالفعل، سلّمه الأخير مبلغ ٢٠ ألف دولار. في تلك الأثناء، اتصل أبو خالد بنعيم ليُبلغه بأنّه سيُرسل له سيارة مفخخة جاهزة للتفجير من عرسال إلى بيروت. وأرسل شاباً يُدعى فادي لاستطلاع الطرقات التي يقتضي على سائق السيارة المفخخة أن يسلكها. ثم أبلغه أن امرأة ستقود السيارة من عرسال إلى بيروت، ليتبين أنّها جمانة حميد. وقد تواصل نعيم معها بواسطة فادي، الذي انتقل برفقتها من عاليه إلى جسر الكولا في بيروت. وقد استلم فادي السيارة منها، فيما كان نعيم يسير بسيارته أمامه لإرشاده إلى الطريق. ونُقلت السيارة المفخخة إلى موقف عمومي قرب جسر سليم سلام، ثم أحرقوا شرائح الخطوط الخلوية التي استعملوها على الطريق. وفي اليوم التالي، أرسل أبو خالد شاباً يدعى سامي، وهو أحد انتحاريي «جبهة النصرة». وسلّم سامي لنعيم مبلغ ٥ آلاف دولار وخطاً خلوياً. وعاود أبو خالد الاتصال بعباس لإبلاغه بأنه في صدد إرسال سيارة مفخخة أخرى من نوع كيا. كذلك تواصل معه

أحمد طه ليبلغه بأنّه سيرسل إليه شاباً لبنانياً، اتفقا على مناداته «مازن»، لمساعدته وتسليمه المال والخطوط الخلوية. ولمّا اتصل نعيم برقم مازن، لاحظ أن المجيب يتكلم بطريقة مريبة. فساورته الشكوك بأن يكون قد وقع في الأسر. عندها أقفل الخط وأتلف الشريحة، ثم أبلغ سامي وفادي بوجوب الخروج من المنزل. وحمل جهاز الحاسوب الخاص به ولفّة كورتكس كانت في حوزته، ثم جلب أغراضه وأمواله وخرج من المنزل. وما إن وصل إلى سيارته المركونة على الطريق، حتى أُلقي القبض عليه. فاعترف بأمور عديدة وأرشد المحققين إلى المستودع في السعديات. واعترف بوجود سيارة تويوتا محملة بالمتفجرات مركونة في موقف عمومي في كورنيش المزرعة. واعترف أنّه كان بصدد استلام سيارة مفخخة من نوع كيا ريو، سيرسلها إليه أبو خالد من عرسال. فطلب إليه المحققون فتح حاسوبه والاتصال بأبي خالد لسؤاله عن السيارة. ففعل، وعرف من أبي خالد أنه أرسل السيارة مع امرأة وأعطاه رقمها الخلوي. فاتصل نعيم بها ليكتشف أنّها لا تزال في عرسال وأنها غير محجبة. فأبلغها بأن تتصل به بعد خروجها من عرسال، ثم أبلغ المحققين بمواصفات السيارة والسائقة ليتم توقيفها من قبل استخبارات البقاع ويتبين أنّها جمانة حميد. المرأة التي خرجت في صفقة التبادل لإطلاق سراح العسكريين، نفت علمها بأن السيارتين اللتين قادتهما كانتا مفخختين. وأكدت أنّها لا تنتمي إلى أي تنظيم ولم يكن لديها نية يوماً بأن تكون انتحارية.

الفصل الثاني

هكذا أرخت الثورة السورية لحيتها

تشبه قصة «الثورة» في سوريا، إلى حد التطابق، حكاية قيادي في إحدى كتائب المعارضة المسلحة. كان «أبو علي الحربة»، ابن بلدة القصير الأربعيني، من أوائل المنشقين عن مركز خدمته في الاستخبارات العامة، إلى جانب الضابطين أمجد الحميد وعبد الرحمن الشيخ وآخرين قُتلوا بمعظمهم لاحقاً. لعب «أبو علي»، في بداية «الثورة»، دور «الدينامو» في تنسيق التظاهرات التي كانت تطالب بإسقاط النظام. لكنّه ما لبث أن تحوّل إلى تهريب السلاح إلى سورية بالتعاون مع مهربين لبنانيين.

في البداية، شملت عمليات التهريب، التي كانت فردية ـ بنادق صيد وما يتيسّر من رشاشات كلاشنيكوف. لكنها سرعان ما تطورت إلى عمليات منظّمة انغمس فيها التاجر وصاحب القضية، بعدما ظن بعضهم لوهلة أن أيام النظام «باتت معدودة». وتحوّل الحراك الذي بدأه فلاحون لم يكن يملك معظمهم ثمن تشريحة هاتف، باباً للكسب لدى كثيرين.

في بداية الأحداث، أوصى «أبو علي» صحافياً التقاه في القصير

بأن يحضر له، في الزيارة المقبلة، زجاجة ويسكي من نوع «بلاك لابل»، من بيروت تحديداً. قالها ضاحكاً: «ويسكي بيروت طيب». كان «أبو علي» حليق الذقن ويحتسي الكحول ولا يعرف عنه التزام ديني، حاله كحال كثيرين من قيادات المعارضة المسلّحة والمسلّحين الذين شكّلوا نواة ما عُرف لاحقاً بـ«الجيش السوري الحر»، على رغم أن الكتائب التي انضوت تحت لوائه حملت أسماء إسلامية، مثل «أحفاد الصحابة» و«الحبيب المصطفى» و«عمر بن الخطاب» و«كتائب الفاروق». لكن هذه المجموعات بدأت تعزّز التزامها الديني رويداً رويداً. وهذا ما حصل مع «أبو علي» الذي كان يهزأ من ادعاءات الإعلام السوري بأن مسلّحين من «القاعدة» يقاتلون النظام. في أحد اللقاءات اللاحقة مع الصحافي اللبناني، حمل الأخير معه زجاجة الويسكي كالمعتاد، لكنّ الرجل اعتذر عن عدم قبولها: «أعدها معك. قررت وقف الشرب وبدأت بالصلاة». كان التغيّر قد طرأ على هيئة «أبو علي». أرخى لحيته، وبدأ حديثه يخلو من البذاءة المعتادة لمصلحة الأحاديث الدينية والآيات القرآنية. ولم يعد التعاون مع «القاعدة» من المحظورات بالنسبة إليه لقتال «النظام الظالم».

حينذاك كان «الجهاديون» قد بدأوا يطلّون برؤوسهم على الساحة السورية: وُلد تنظيم «جبهة النصرة»، وتنظيمات أُخرى تدور في فلك الجهاد العالمي، ورُفعت راية «الدولة الإسلامية»، وبدأ الجهر بالعمل لإقامة الخلافة الراشدة في أرض الشام ومحيطها. كانت هذه

الشيخ أبو علي حربة الذي تاب عن حب الويسكي

التنظيمات تعمل، بداية، إلى جانب التنظيمات العلمانية. لكنها كانت أكثر خبرة وتنظيماً وتمويلاً، وكان هدفها الاستراتيجي واضحاً. صارت تجمع السلاح وتخزنه حتى أطلق عليها عناصر «لجيش الحر»، سخريةً، اسم «جيش أبو الطماير» لأنها كانت تطمر الأسلحة وتخزّنها إعداداً للمواجهة الكبرى على أرض الشام. وسرعان ما سطع نجم هذه التنظيمات في مقابل أفول نجم «الجيش الحر» وتوابعه.

«هاجر» أبو علي إلى حلب إثر سقوطها في يد المعارضة، وقاتل هناك «في سبيل الله». بعد شهور قليلة، كانت لحية الرجل قد وصلت حتى منتصف صدره، وبدأ أتباعه يلقبونه بـ«الشيخ»، وأصبح قيادياً في

إحدى أهم الكتائب المقاتلة تحت راية «القاعدة» في حمص، وارتبط اسمه بالعديد من العمليات الأمنية والتفجيرات التي استهدفت مناطق ذات صبغة طائفية معينة (الشيعة والمسيحيين). حتى أنّ السفير البابوي في روما أتى على ذكره عندما تحدّث عن مجموعات أصولية تُهجّر سكان بلدة ربلة (قرب الحدود اللبنانية) بقيادة عبد السلام حربة الذي لم يكن سوى «أبو علي» عاشق الويسكي سابقاً.

هكذا، بعد أكثر من ثلاث سنوات على بداية الحراك المطالب بالحرية، انتهى الأمر بـ«الثوار» إلى اقتناع راسخ بأن «الحرية مطلبٌ فاسد، فديننا دين عبودية لله. لا للمدنية أو العلمانية... ونعمل لتحكيم شرع الله».

كل تلك التفاصيل عايشتها لحظة بلحظة. أستطيع القول إن بداية تعرفي إلى مسار التحول الذي أصاب «الثورة» كانت علاماته ظاهرة في منطقة وادي خالد. هناك، في العام ٢٠١٢ تحديداً، كان أفراد «الجيش السوري الحر» يتحركون براحة تامة، رغم عيون الاستخبارات المنتشرة في كل مكان. لهؤلاء مساجدهم التي يقصدونها وخطباؤهم الذين يعبّئونهم. يشاركون في تظاهرات، ويستخدمون سيارات ودراجات نارية وبيوتاً، و«يخترقون»، بسهولة، الحدود اللبنانية ــ السورية لتنفيذ عمليات زرع ألغام. الوادي الذي لطالما اعتمدت معيشة أهله على البلد الجار، أصبح إحدى القواعد المتقدمة لـ«الجيش الحر».

يأتي صوت أحدهم عبر الهاتف، مبلغاً بالموافقة على طلب

لقاء مقاتلين في «الجيش السوري الحر» في لبنان. حدّد موعد اللقاء وزمانه في مكان ما في وادي خالد. أوصاني المتصل بضرورة الانتباه إلى «عقبة واحدة»: حاجز القوى الأمنية المشتركة من الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي المعروف بحاجز شدرا. عناصره يضيّقون على الصحافيين، وفرضوا عليهم الحصول على تصريح دخول من قيادة الجيش. أوصاني صاحب الصوت، ذو اللهجة السورية الواضحة، بتجنّب حاجز شدرا، عبر سلوك طريق ترابي يخترق الوادي قبل الحاجز بعشرات الأمتار.

بدأتُ الرحلة الطويلة التي استغرقت نحو أربع ساعات، كنا بعدها وجهاً لوجه مع صاحب الصوت الذي تبيّن أنه «ضابطٌ» يتولى مهمات تنسيقية في «الجيش». شاب ضخم في أواخر الثلاثينيات من العمر، بدا تديّنه واضحاً من لحيته المطلقة وشاربيه المحفوفين.

البرد القارس ألقى بثقله. تثاقلت خطوات المارة. تصاعدت الأنفاس كبخار طالعٍ من فوّهة مدخنة. هكذا هي صباحات الشتاء في وادي خالد، الذي يقال إن اسمه يعود إلى جدّ عشيرة عربية من عرب العنزة، فيما يُروى أنه سمي كذلك نسبة إلى خالد بن الوليد الذي مر في هذه المنطقة بعد معركة اليرموك، فسمّيت باسمه.

الحركة البطيئة في هذه القرى لم تكن توحي بأنها تنطوي على ما أتينا من أجله. قضينا ساعات في أحد المنازل نحتسي الشاي. ومع كل

كوب، كان يعلو صوت أحدهم: «دمعة» تعبيراً عن صفاء الشاي. العبارة كانت تخرق بين الحين والآخر النقاش حول الأوضاع في سوريا. يقطع صوت المؤذن النقاش، معلناً موعد أذان الظهر. يهم الحضور الذين ناهزوا العشرة أشخاص بالخروج إلى الصلاة. ننحشر خمسة في سيارة وننطلق إلى المسجد الذي يبعد نحو عشر دقائق. معظم رواد المسجد سوريون. الشيخ السوري عبد الرحمن العكاري بدأ خطبته بعظة دينية، لم تلبث أن تحولت إلى حملة تحريض ضد «النظام الذي يقتل إخوتنا ويغتصب نساءنا». شجّع الشيخ الموجودين على الثورة. حثهم على عدم الخوف من الموت الآتي. نجح في استثارة عواطف الحاضرين. عمّ صراخ وعويل وصدحت الأصوات بهتافات «الله أكبر لسقوط طاغية الشام». قال أحدهم إن «زوجة الشيخ استُشهدت أثناء محاولة دخولها لبنان خلسة». وأكد آخر أن جنود الجيش السوري قتلوها عمداً بعدما علموا أنها زوجة الشيخ.

بعد الصلاة، خرج الحاضرون للمشاركة في تظاهرة ضد النظام. لافتات التظاهرة، الحاشدة نسبياً، رفعت شعارات بعضها خطّته أيدي خطّاطين، وأخرى كُتبت كيفما اتفق. شعارات طالبت بإسقاط «نظام الأسد»، وأخرى اتهمت مراقبي الجامعة العربية بـ«التواطؤ لسفك دماء السوريين»، وثالثة طالبت بتدخل دولي «لوقف حمام الدم». وكان لحزب الله حصته من الشعارات، ولـ«سيد الضاحية» نصيب الأسد من

الهتافات المنددة. مكبّرات صوت كانت تبث أجزاء اقتطعت بعناية من خطابات للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله بما يوحي كأنها موجّهة ضد الطائفة السنّية. كما كان لقناتَيْ «المنار» و«الجديد» حصة من الشعارات المندّدة أيضاً. رُسم شعارا المحطتين إلى جانب شعارَيْ التلفزيون الرسمي السوري وقناة «الدنيا». قال أحد المتظاهرين: «الإعلام يقتلنا مرتين. فليسقط المنار وليسقط الجديد، عملاء نظام القتل والتهديد». أعلام «سوريا الجديدة» حضرت بكثرة، بعضها رسم بخط اليد، وتخللتها أعلام تركية. وبين هذه وتلك كان حضور لافت لأعلام تيار المستقبل الزرقاء.

وسط المتظاهرين كان جنود من «الجيش الحر» بملابس مدنية. ثلاثة منهم تحدثوا إليّ سابقاً. طلبوا عدم إبراز وجوههم في الصور. أخبرنا «مضيفنا» أن هناك «العشرات من عناصر الجيش هنا». استمرت التظاهرة قرابة ساعة، كان لافتاً خلالها إصرار أحد «الهتّافين» على نفي تهم التعاطف مع تنظيم «القاعدة». لحظات وانطلقت من مكبرات الصوت عبارة: ««إصدارات الفجر تقدم ...». المفارقة أن «الفجر» هو المركز الإعلامي المعتمد لترويج تسجيلات تنظيم «القاعدة»!

فيما التظاهرة كانت مستمرة، همس المضيف بأن «علينا الرحيل بسرعة لأن جماعة المخابرات وصلوا». حث الرجل الخطى، وبعد الابتعاد قليلاً، أشار إلى خمسة شبان يرتدون سترات جلدية. أكد

أنهم من رجال الاستخبارات اللبنانية، «وكانوا سيوقفونك لو علموا أنك صحافي تقوم بالتصوير من دون تصريح». رجال الاستخبارات معروفون لدى معظم سكان الوادي. أشار أحدهم إلى سيارة رابيد حمراء. هي أيضاً لأحد المخبرين! وفيما انطلقنا بالسيارة في أزقة الوادي وشوارعه، أشار الرجل إلى المزيد من المخبرين. كان يذكر أسماء بعضهم واسم الضابط الذي يعملون لمصلحته. «الأمن مخترق أينما كان». قال، وضحك الجميع.

اجتازت السيارة قرى تتشابه إلى حد التطابق. أعلن المضيف «أننا الآن في القرى الأخيرة لوادي خالد». اجتازت السيارة مفترق طرق، الأول يؤدي إلى قرية الكنيسة والثاني إلى قرية قرحة. هذه المنطقة تعرف بـ«الوعر». مرّ بعض الوقت قبل أن يطلب الرجل ركن السيارة قرب أحد المنازل. ترجل الجميع. أجرى المرافق اتصالاً من هاتفه. مرت دقائق قليلة، أتت بعدها سيارة رباعية الدفع، ترافقها ثلاث دراجات نارية. طلب سائق السيارة أن نصعد معه. شقت السيارة طريقها في أرض شديدة الوعورة. قال المضيف إن «الطريق التي تمشي عليها لبنانية، أما تلك المحيطة بك فسورية». أومأ برأسه مشيراً إلى نقاط للجيش السوري. خفف السائق من سرعة السيارة إلى أن توقفت. ترجل الجميع. أطفأوا محركات دراجاتهم النارية ودخلوا إلى أحد المنازل. ضوء النهار كان قد بدأ ينحسر لتحل مكانه ظلمة الليل.

كانت الجلسة «عربية». مدفأة حطب تحلّق حولها ثلاثون شخصاً. الدار رحبة تتسع لعشرين آخرين. إبريق الشاي تتبعه فناجين القهوة. الضيافة لم تكن تتوقف. تولى المرافق تعريف الحاضرين بنا. قال إن الحاضرين «ثلة من ضباط الجيش الحر». أشار إلى من يقول إنه «ضابط برتبة رائد، وهو المسؤول» بينهم. تبادلنا والحاضرين أطراف الحديث. بدا واضحاً أن الموجودين ليسوا سوريين كلهم. هناك لبنانيون، بينهم مهرّبون. يذكرون أن «قائد العمليات في بابا عمرو» كان موجوداً في لبنان «قبل يومين». تحدثوا عن «ذبائح نُحرت احتفاءً بالضيف». روى «الضباط» قصص «انشقاقهم». أبدوا خيبتهم من «خذلان» الموقف الدولي لهم. كما أكد أحدهم أن الدعم «لم يتخطّ المواقف في الهواء». تسلّم رجل خمسيني يلبس زياً بدوياً زمام الحديث. «الأمور سيئة، وعنف الضربات لم يزحزح النظام بعد»، قال ثم هز رأسه متابعاً: «المعركة طويلة جداً». أكد أنهم بالرغم من ذلك، كان «الجيش الحرّ» يسيطر على ثمانين في المئة من حمص، متحدثاً عن «الانشقاقات في صفوف الجيش». إلا أن الجيش، بحسب الرجل نفسه، كان حينذاك «لايزال متماسكاً». علّق وقتذاك آمالاً كبيرة على «الحظر الجوي»، الذي كان يعتقد أنه «بمجرد فرضه ستحصل انشقاقات كبيرة».

لم ينف أحد الموجودين تدفق السلاح إلى الداخل السوري عبر تركيا ولبنان، لكنه لفت إلى أن وتيرته «خفّت في الآونة الأخيرة».

تحدث الحاضرون عن مقتل الشبان اللبنانيين الثلاثة برصاص الجيش السوري. روى لنا أحدهم أن مجموعة عناصر من الاستخبارات الجوية دخلت إلى الأراضي اللبنانية وكمنت للشبان الثلاثة، وهم: ماهر أبو زيد وأحمد حسين زيد وشقيقه كاسر. تحدثوا عن «خيانة». شاب من آل الأسود من قرية المشيرفة استدرج الشبان إلى كمين. أقرّ الحاضرون بأن الشبان الثلاثة «نقلوا سلاحاً إلى الثوار، وقدموا الكثير للثورة السورية». قال أحدهم إن الشباب رفضوا تسليم أنفسهم، رغم علمهم بأنهم وقعوا في الكمين. «واجهوا الرصاص بالرصاص وبأجسادهم». انفجر أحد الحاضرين غضباً، وصرخ مطالباً بـ«تصفية العميل» الذي أصيب في الاشتباك. قال آخر إن زوجة «العميل» ووالدته زارتاه في المستشفى، فرد الرجل الخمسيني بضرورة إرسال من يجهز عليه داخل المستشفى.

خرجنا مع المرافق إلى غرفة ثانية، حيث عرّفنا إلى ضابط برتبة ملازم أول قال إنه سيرافقنا في جولتنا. شاب ثلاثيني ملتحٍ أطلعنا على «مسار العملية» التي ستبدأ بجولة استطلاع على الحدود. شرح طريقة التحرك المطلوبة. وطلب التقيّد بالتعليمات حرفياً. حضر الشبان تباعاً. فاق عددهم الـ٢٠، وكل منهم يحمل سلاحاً. تنوعت الأسلحة بين رشاشات كلاشنيكوف وبنادق «فال». قال أحدهم إنه يحمل حزاماً ناسفاً. رمقه «الضابط» بنظرة زاجرة، فتراجع الشاب ليقول إنه كان

يمزح. كان الشبان يرتدون ملابسهم العسكرية ويحملون سلاحهم ويضعون الأقنعة على وجوههم لإخفاء هويتهم تمهيداً للظهور في الصور.

وصل عدد المنضوين تحت «لواء الجيش السوري الحر»، الموجودين في شمال لبنان، إلى مئتي مقاتل. عددهم لم يكن ثابتاً، بل كان يقل ويزيد تبعاً للعمليات التي يوكلون بها داخل الأراضي السورية. هيئاتهم العسكرية لم تكن تظهر للعيان، فملابسهم المدنية توحي بأنهم مجرد نازحين. كانوا يتوزعون بين قرى وادي خالد شمالاً وبلدة عرسال بقاعاً. ينشطون في المنازل القريبة من الحدود، بحيث يلتبس عليك تحديد هويتهم أحياناً، والتمييز بينهم وبين المهرّبين.

الليل هناك كان لباساً. يتحرّك رجال «الجيش الحرّ» بحرية بالغة. نخرج برفقة مجموعة قوامها تسعة رجال تقريباً. أركب خلف أحدهم على متن دراجة نارية، تنطلق مسرعة في الدرب الوعرة. شدة الصقيع تفقدك الشعور بأُذنيك وأنفك ويديك. يلتقي أفراد المجموعة عند نقطة متقدمة. يركنون الدراجات النارية ويترجلون مشياً على الأقدام. نسأل عن الألغام التي زرعها الجيش السوري، فيجيب أحدهم: «نظّفناها». يوضح آخر أنهم أزالوا قرابة مئتي لغم. لا أطمئن كثيراً. أتلو الشهادتين في سري وأحاول أن نسير على خطاهم، حرفياً، خشية أن أدوس لغماً سقطت إزالته سهواً. حملت الكاميرا ومشيت بطيئاً بينما المهربون

كانوا سريعين ومعتادين تضاريس المنطقة، أما أنا فكنت كل بضعة أمتار أنزلق. كما أنني كنت أتحين أثناء السير، وفي كل خطوة، أن ينفجر بي لغم، وأنّ ضوءاً هائلاً سيشع وينهال علينا الرصاص. نحو عشر دقائق من المسير. يعلن أحدهم «أننا في الأراضي السورية». يومئ مسؤول المجموعة إلى موقع للجيش السوري لا يبعد أكثر من عشرات الأمتار. يقول: «نراقبهم عن كثب ونعرف أوقات تبديل الحراس، ونرصد دورياتهم العسكرية ونعلم توقيت تحركها وخط سيرها». تلك كانت اللحظة المناسبة للتسلل إلى الداخل السوري. هنا يحضر مسؤول المجموعة «أبو عمر الدندشي»، (قُتل لاحقاً) ويُسلّمني رشّاشاً. أرفض أن أحمله، قائلاً إنني صحفي. لكنه يردّ، عندما يبدأ إطلاق النار لن يسمعك أحد.

«خذ احمله». قالها بحزم.

رفضت مجدداً. «أحمل الكاميرا. تكفيني». أجبته.

عندها طلب بلطف: «اعتبره سلاحي واحمله لي معك».

وافقت على مضض، فيما تراءى في خيالي مشهد أننا وقعنا في كمين نصبه الجيش السوري ليبدأ إطلاق النار. تمعّنت فعلاً في المشهد. لمن سأصرخ قائلاً بأني صحافي. من سيسمعني أصلاً؟ كان الرشّاش قد بات على كتفي فيما الكاميرا بيدي. طوال الطريق كنت أُسائل نفسي إن كنت سأستعمل السلاح إن أُطلِقت النار علينا. خُيّل

إليّ أنّ دمائي ستختلط بدماء شبّان «الجيش الحر» رغم أنّ لا شيء يجمعنا سوى الطريق. هم يدافعون عن قضيتهم بينما أحمل أنا دمي وكاميرتي لأُخبر الناس عن هؤلاء. كنت أفكر أنه في حال تعرضنا في أي لحظة لرماية من الجيش السوري، ترى ماذا سأفعل؟ هل أطلق النار فأتورط في القتال، وأصبح محسوباً على هذه المجموعة؟ أو لا أقوم بالرماية فأُقتل؟ فجأة وعند الفجر، بدأ القصف. انتشر من معي بسرعة، فيما أنا أجهل ماذا يمكن أن أفعل، كل ما قمت به حينذاك أني فحصت سلاحي إذا كان ملقّماً وجاهزاً لإطلاق الرصاص.

كان أفراد «الجيش الحر» يستخدمون أجهزة «الثريا» للاتصال مع «القيادة» في الداخل السوري وتركيا. أما خلال العمليات في لبنان فكانوا يستخدمون أحياناً أجهزة اللاسلكي. لم تنته الرحلة عند هذا الحد. فقد أبلغنا مسؤولهم بأن «الجيش الحر» سيخصنا بمفاجأة لنقلها إلى الرأي العام. يُحضر أحدهم لغماً مضاداً للدروع. ننتقل برفقة ثلاثة شبان إلى نقطة متقدمة، علمنا أنها ممر للآليات المدرعة. يبدأ أحدهم بالحفر، فيما يتولى الآخران الاستطلاع والمراقبة. الأرض بدت صخرية للوهلة الأولى، لكن تمكن من إحداث حفرة فيها. وضع اللغم في وسطها، ثم هال التراب عليها قبل أن ينكفئ الشبان الثلاثة متراجعين، آملين أن تنفجر في «كتائب الأسد».

مع مسلحين من وادي خالد عام ٢٠١١

في ٢٩ تموز ٢٠١١، أعلن ضباط مُنشقون عن الجيش السوري تأسيس «الجيش السوري الحر» لدعم المُتظاهرين السوريين وحمايتهم، تحت إمرة العقيد المُنشق رياض الأسعد. وكان قد سبق ذلك إعلان الضابط المنشق المقدم حسين هرموش تأسيس حركة الضباط الأحرار في سوريا.

ورغم أن ضباط هذا «الجيش» وعناصره أكدوا حينذاك أن تحركهم بعيد من الطائفية، فقد بدا لي لافتاً أن أسماء كتائبه تحمل دلالات إسلامية واضحة. من «كتيبة خالد بن الوليد» في محافظة حمص، و«كتيبة الأبابيل» في مدينة حلب، و«كتيبة معاذ الركاض» في

مدينة دير الزور، و«كتيبة الله أكبر» في البوكمال، إلى «كتيبة معاوية بن أبي سفيان» و«كتيبة أبو عبيدة الجراح». المتحدث باسم هذا «الجيش»، الرائد ماهر النعيم، ينفي في اتصال معي البعد الطائفي للتسميات، لافتاً إلى أن «تسمية الكتائب بأسماء قادة تاريخيين كان لإعطاء الزخم والقوة». وأشار إلى أن هناك تسميات أخرى لقادة وشهداء، كـ«كتيبة حمزة الخطيب» في جبل الزاوية.

طوال تلك الفترة من بداية الأزمة السورية، وفي منازل قريبة من الحدود اللبنانية ـ السورية، كانت تنشط اجتماعات لمجموعة من ضباط وأفراد في «الجيش الحر». العشرات منهم كانوا ينتقلون عبر المعابر غير الشرعية بحرية مطلقة. يهرّبون المقاتلين والسلاح وكاميرات الفيديو والجنود الجرحى بين لبنان وسوريا. إضافة إلى مجموعات أخرى كانت تنشط في طرابلس وعرسال وصولاً إلى العمق السوري.

في ذلك الوقت، وتحديداً في وادي خالد وقراه، كما في عرسال وجرودها، نشط أفراد «الجيش الحرّ» في مجموعات مسلّحة ومنظمة، نسبياً، تقاسمت السيطرة على المعابر في ما بينها. عقد هؤلاء صفقات مع المهربين لنقل جرحى الأحداث ولشراء السلاح وتهريبه، كما تلقوا دعم جهات سياسية نافذة في المناطق التي ينشطون فيها، إلى جانب احتضان شعبي تدعمه نظريات التاريخ والجغرافيا.

أخفى بعض هؤلاء هوياتهم الحقيقية تحت غطاء «نازح» سوري. تواروا عن الأنظار نهاراً ونشطوا ليلاً. ولكل منهم وظائفه المحددة.

جميع المجموعات التي قابلت أفرادها أجمعوا على دعم «الثورة السورية» بأي وسيلة، لكن هذه المجموعات تختلف في ما بينها على السيطرة والنفوذ، والاتصال بين مسؤوليها يكاد يكون مقطوعاً، إذ كان يرى كل منهم أخطاءً في أداء الآخر، واستغلالاً لـ«الثورة» لتحقيق مكاسب فردية.

أمام منزل في إحدى قرى وادي خالد، توقفت السيارتان اللتان أقلتانا والدراجات النارية الثلاث التي كان كل منها يحمل ثلاثة ركاب، بعد صراع مع وعورة الطريق دام بعض الوقت. انقسم الوافدون الذين ناهز عددهم العشرين في بهو المدخل الذي يضم بابين. يميناً، يطالعنا في الداخل ضوء «لوكس»، وسيلة الإضاءة المتقدمة على الشمعة حتى سنوات مضت. ديوانية واسعة تضم ما لا يقل عن ثلاثين شخصاً ينهضون مرحّبين. معظم الموجودين ملتحون، تراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين. يُحضر أحدهم علم «الثورة السورية» ويُلصقه على الحائط استعداداً للتصوير. أحد الملثّمين يبدأ الحديث بالقول: «نحن أفراد الجيش الحر. نعمل بإمرة العقيد رياض الأسعد». كان هذا واحداً من المجموعة الأكبر بين المجموعات الثلاث. عدد عناصرها ليس ثابتاً. يزيدون وينقصون تبعاً للمهمة التي توكل إليهم. يصل عددهم أحياناً إلى مئة مقاتل، وقد ينخفض إلى عشرة مقاتلين. عرّف أفرادها عن أنفسهم بأنهم أعضاء في «كتيبة الظاهر بيبرس»، وأشاروا إلى أن الضابط الأرفع رتبة بينهم يحمل رتبة رائد.

الجميع كان ينصت إلى كلام الملثّم «عمران» كما عرّف عن نفسه. تبيّن من سياق الكلام أنه «الضابط» المسؤول عن المجموعة. أكد لي أن «غرض وجودنا في لبنان ليس عسكرياً. مهمتنا تقتصر على توفير الأمور اللوجستية»، لكنه لم يلبث أن أشار إلى أن أفراد المجموعة «يشنّون بين الحين والآخر عمليات ضد أهداف داخل العمق السوري. لكن السلاح الموجود معنا خفيف، لا يتعدى رشاشات الكلاشنيكوف والبنادق الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية وقواذف آر بي جي. لكنها رغم ذلك كافية لخوض حرب عصابات». أبرز مهمات المجموعة كانت، بحسب «عمران»، «تتركز على نقل الجرحى من سوريا إلى لبنان، بواسطة دراجات نارية، وعلى الدوابّ عبر الطرقات الوعرة، وأحياناً نحملهم على ظهورنا. قبل نحو شهر نقلنا أحد عشر عسكرياً جريحاً إلى الأراضي اللبنانية، ثلاثة منهم فارقوا الحياة بسبب طول الطريق ووعورته. تهريب السلاح خفّت وتيرته في الآونة الأخيرة»، نافياً حصول مجموعته على السلاح من المهربين، رغم تأكيد آخرين ذلك، ومشيراً إلى عمليات شراء سلاح «من الجيش النظامي نفسه داخل سوريا».

تحدث «عمران» عن تشديد الجيش السوري قبضته على الحدود وزرعها بالألغام، لكنه أكد أن ثلاثة خبراء متفجرات، انشقوا عن الكتائب الهندسية والتحقوا بمجموعته، «تمكنوا من تفكيك جزء كبير من الألغام الإيرانية الصنع لتوفير ممر آمن للأشخاص والجرحى،

ونحن نعيد زرعها في درب كتائب الأسد»، مشيراً إلى أن «عمليات الرصد والاستطلاع التي نقوم بها تجعلنا على اطلاع على حركة الدوريات وتوقيت مرورها، ما يجعلنا نعمل براحة تامة أثناء تفكيك الألغام أو زرعها».

نفى «عمران» أي علاقة لهم بتنظيم «القاعدة». ورغم إقراره بأن كل أفراد مجموعته من الطائفة السنّية، شدّد على «وحدة الشعب السوري». «هناك مسؤولون في النظام من الطائفة السنّية. وسنحاسب كل من لُطّخت يداه بالدماء. لن يُستثنى أيّ كان من ذلك، سنّياً كان أم علوياً»، قال لي.

رأي عمران بالحكومة اللبنانية، كان واضحاً. فهي كما قال لي «سورية بامتياز»، بسبب «خضوعها لحزب الله التابع بدوره للنظام السوري. ولذلك، لن تكون لنا علاقة مع هذا الحزب بعد سقوط النظام، إلا إذا تراجع عن موقفه وعنصريته وطائفيته. كيف يكون حزب الله لبنانياً فيما انتماؤه المطلق لإيران التي تبعد عنه آلاف الكيلومترات؟». السؤال عن حزب الله أستفزّ الرجل حتى «كشف» لي حينذاك أن «مجموعات عسكرية تابعة لحزب الله وجيش المهدي (العراقي) والإيرانيين تشارك في المذابح في سوريا. عشرات المقاتلين من عناصر الحزب ومن الإيرانيين قُتلوا في درعا وعرضت صورهم على القنوات الفضائية».

المجموعة الثالثة التي تنشط على مسرح الشمال كانت مجهولة العدد، تعمل في تهريب السلاح والمواد الطبية والكاميرات إلى الداخل السوري. وينفذون بين الحين والآخر عمليات عسكرية في الداخل السوري. تولّاها ضابطٌ منشق برتبة نقيب يعرف باسم أحمد (اسم مستعار). روى أنه انشق عن الجيش السوري «بعدما رفضت إطلاق النار على المتظاهرين السلميين». نقل الرجل عائلته إلى لبنان فور انشقاقه خوفاً من رد فعل انتقامي. حدثني عن مشاركته المقدم حسين هرموش بالتنسيق مع العقيد رياض الأسعد في تأسيس «الجيش السوري الحر» الذي «تقوم عقيدته على حماية الوطن والشعب لا حماية أشخاص». أسهب الرجل في الحديث عن «انتهاكات وفظاعات تُرتكب ضد المواطنين على أيدي شبيحة النظام الذين يغتصبون النساء ويقطّعون أوصالهن كما حدث مع زينب الحصني». والحصني فتاة سورية بثت بعض الفضائيات قبل أشهر صوراً لجثة ادعت أنها عائدة إليها، وقالت إنها تعرضت للتعذيب والاغتصاب والتمثيل بجثتها، قبل أن تظهر الفتاة في ما بعد على التلفزيون الرسمي السوري لتعلن أنها حية ترزق.

قطع اتصال هاتفي من سوريا كلام الضابط. ومن دون أن يسأل عن هوية المتصل، رد على محدثه قائلاً: «الجريح يدعى خالد الأسود. ١٣ رجلاً من المخابرات الجوية دخلوا لتنفيذ العملية ونقلوه إلى المستشفى العسكري حيث يمكث حالياً». أنصت قليلاً ثم أكمل كلامه: «طلع شبّيح عميل للنظام».

«الثورة» و«الحرية» وغيرهما من المصطلحات كانت تتردد كثيراً على ألسنة ضباط المجموعات المذكورة، إلا أن الخلافات والتنافس بينها يبرز نافراً. تضيع المبادئ والعناوين العريضة أمام الخلافات الشخصية. على سبيل المثال، أسرّ لي أحدهم أن زعيم المجموعة الأخرى «يسرق أموالاً تأتي باسم اللاجئين السوريين»، كما أخبرني أن المساعدات التي تصل يقوم هؤلاء بتصريفها وبيعها تحت مسميات عدة أبرزها «جمع الأموال لشراء الدواء والسلاح». حتى أن أحدهم ذهب أبعد من ذلك. حيث كشف لي عن «أمر خطير» محذّراً. فمسؤول مجموعة ثانية «مشكوكٌ في عمالته» للنظام السوري. «القيادي» نفسه الذي يفصح عن هذه المعلومة لا يسلم من التهم المنقولة أيضاً. يخبرك المسؤول المتهم بالسرقة أن هذا الشخص «كاذب ومدّع».

وسط الاتهامات المتبادلة، ورغم تواصل هؤلاء مباشرة مع قادة «الجيش الحر» في تركيا والداخل السوري، كان أحدهم يشدد على «ضرورة إيجاد قائد واحد يكون مرجعاً للتنسيق لحماية الثورة من الدخلاء وعدم إضاعة البوصلة».

بشكل عام، كان يختلط الحابل بالنابل على حدود لبنان الشمالية، حيث تضيع هويات الأشخاص الحقيقية، ويصعب تمييز المهرّب من العسكري في «الجيش الحر». الانطباع العام الذي كان يمكن لأي زائر أن يخرج به هو أنهم شخصٌ واحد، لكن التدقيق يُظهر أن هناك عشرات اللبنانيين ممن انضموا إلى صفوف هذا الجيش.

هؤلاء أبدوا تعاطفاً واضحاً مع الجيران السوريين، الذين تجمعهم بهم وحدة الطائفة والجغرافيا. عاملٌ آخر كان يعزز هذه اللحمة، وهو التداخل الحدودي بين البلدين، الذي أنتج روابط عائلية متينة. فعلى سبيل المثال، هناك قرية سورية سكانها لبنانيون. وهناك مواطنون يحملون الجنسيتين. المعلومات المذكورة عززتها تأكيدات مصادر «الجيش الحر»، التي تحدثت عن وجود نحو ١٠٠ لبناني منضوين في صفوفه. وذكرت المعلومات أن هؤلاء يشاركون في أعمال عسكرية ضمن الأراضي السورية، تراوح بين نقل السلاح وتنفيذ عمليات عسكرية في العمق السوري.

من وادي خالد إلى مستشفى الزهراء في طرابلس، حيث خصصت طبقة كاملة لعلاج جرحى «الجيش الحر» الذين يُهرَّبون إلى لبنان عبر المعابر غير الشرعية. هناك، كان يشرف طبيب بيطري، تطوّعاً، على علاجهم، قبل نقلهم إلى «منازل آمنة» تؤوي ناشطين وجنوداً إلكترونيين، مهمتهم إدارة جزء من «الحرب الإعلامية» على النظام السوري عبر الفضائيات العربية والمواقع الإلكترونية المتعاطفة معهم.

كانت ضراوة المعارك في مناطق التوتر السورية تؤدي إلى سقوط عشرات الجرحى. عولج في بداية الأزمة قسم كبير من هؤلاء في مستشفيات ميدانية، فيما جرى نقل ذوي الإصابات البالغة، عبر المعابر غير الشرعية، في الشمال والبقاع، ليخضعوا للعلاج في لبنان. توزع

هؤلاء على ثلاثة مستشفيات في الشمال، أحدها في طرابلس مخصص للجرحى من مقاتلي «الجيش الحرّ» الذي كان يدفع بدل إيجار طبقة كاملة منه، ويتولى الإشراف على الإجراءات الأمنية فيه.

في هذا المستشفى، التقيت نحو عشرة جرحى. الطبيب السوري، الذي رافقنا، قال إنه يعمل في الأساس طبيباً بيطرياً!، وإنه قدم من السعودية «للتطوع في خدمة الثورة».

في إحدى الغرف، استلقى جريحان على سريرين متجاورين. أحدهما مصاب برصاصة في عضوه الذكري. اخترقت الرصاصة قدمه ومحالبه قبل أن تخرج من جسده. سأل الطبيبَ عن حقنة المورفين، فردّ الأخير: «اصبر قليلاً يا محمد». نفث محمد دخان سيجارته بنشوة بدا أنها تنسيه ألمه. قال لي إنه أصيب أثناء محاولته «حماية المتظاهرين من غارات الشبيحة». صمت قليلاً. «لم يبق لنا شيء، فلماذا نبخل بأرواحنا؟» قال.

الجريح الآخر كان مصاباً برصاصتين في مشط قدمه وساقه. عرّف عن نفسه باسم أحمد، قال لي: «أنا جندي منشقّ عن الجيش السوري، التحقت بالجيش الحر لأحمي عرضي وأهلي»، ورغم أنه لم يكن ليتماثل للشفاء قبل أشهر، قال «لكنني لن أنتظر. سأحمل السلاح ما إن أتحسّن قليلاً. سأتكئ على عكاز بيد وأحمل الروسية (الكلاشنيكوف) باليد الأخرى. خلقنا للموت، وسنموت في سبيل الله. عاهدنا رب العالمين على أننا سنقاتل حتى الشهادة».

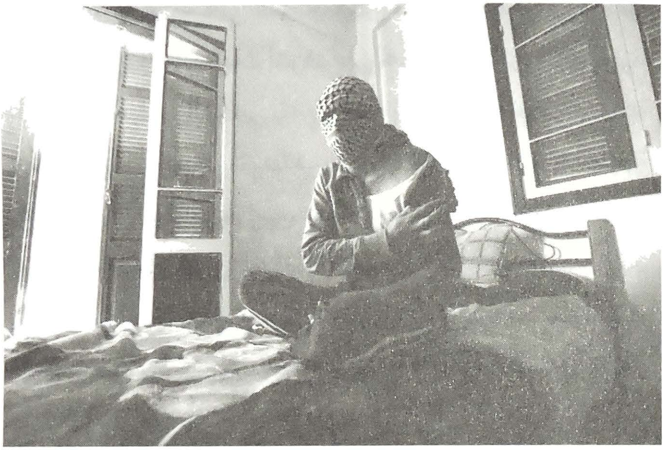

أحد الجرحى في ما بت يعرف بـ «بيوت الأمان» في طرابلس

خارج الغرفة، كان يقف خالد الذي يصفه الطبيب بـ«الملاك الحارس» لبعض الجرحى. إذ إنه تولى نقل معظم الجرحى الموجودين في هذا المستشفى. قال لي خالد إنه قبل الثورة كان عامل بناء، وإنه انضم إلى مجموعة مهمتها نقل الجرحى عبر الحدود غير الشرعية. «في كل مرة أقطع الحدود لنقل جريح، أودّع زوجتي لأني أشعر بأنني قد لا أعود»، قال لي.

غادرت المستشفى إلى أحد «المنازل الآمنة» في طرابلس. في الطبقة الخامسة من المبنى، استقبلنا عشرة شبان سوريين، اثنان منهم كانا لا يزالان يخضعان للعلاج الفيزيائي جراء إصابتهما، يقول أحدهما إنه منشق عن الفرقة ١٨ مدرعات. بين الموجودين، أيضاً، كان

الطبيب السوري مصطفى الذي عمل في مستشفى ميداني في حمص قبل قدومه إلى لبنان، حيث أشرف على معالجة العسكريين الجرحى. قال إن المستشفى الميداني يقدم الإسعافات الأولية فقط، ولا يمكنه معالجة الإصابات التي تستهدف الرأس والظهر والحالات الحرجة التي تستدعي عمليات جراحية، وهذه يتم نقلها إلى لبنان، مشيراً إلى أن «نحو ١٠ جرحى فارقوا الحياة أثناء نقلهم إلى الأراضي اللبنانية. إذ إن الرحلة إلى لبنان طويلة، لافتاً إلى أن هناك «غض نظر» من استخبارات الجيش على تحركهم في الشمال، ومثمّناً «الاحتضان الشعبي الذي يوفّره الأهالي لنا».

في المنزل، التقيت جنوداً من نوع آخر. قال هؤلاء إنهم «اللواء الخفي» في «الجيش الحر»، وأطلقوا على أنفسهم تسمية الجنود الإلكترونيين. كشف أحدهم، محمد، أنه ناشط سياسي وأستاذ في مادة التاريخ، كان يتولى التنسيق مع وسائل الإعلام لنقل صور ما يدور في مدينة بانياس، وأنه اعتُقل مع عائلته خلال حملات المداهمة التي نفّذتها قوات الأمن، وتعرّض للتعذيب قبل أن يُخلى سبيله بعد عشرة أيام. شدّد لي على «وطنية الثورة»، نافياً ما يُلصق بها من أوصاف «إسلامية» و«طائفية».

في «منزل آمن» آخر، لكن في وادي خالد هذه المرة، التقيت «جندياً إلكترونيا» لبنانياً متزوّجاً بسيدة سورية. قال إنه «المنسّق بين الجنود الإلكترونيين»، وإن مهمته هي توزيع الكاميرات على الجنود

الداخلين إلى سوريا، وإعادة جمع بطاقات الذاكرة منهم لدى عودتهم. فصّل الشاب الثلاثيني آلية العمل بثلاث خطوات: «أُرسل الكاميرات وأستعيد اليو أس بي التي تحتوي على الصور، ثم أضعها على الكمبيوتر وأنقلها إلى محطة تلفزيونية لتعرضها للعالم». نوع الكاميرا الرائجة هي «FLIP». قال إن الهدف «عرض أكبر كمية من الصور ليعلم العالم كله ما يجري في سوريا». لكنه كيف برر لي تدخّله في شؤون دولة أخرى وشعب آخر؟ قال «أنا لبناني، لكن دمي مع الشعب الذي يقتل. أنا ناشط مع الثورة السورية. ومستعد لتجنيد كل أقاربي لخدمة هذه الثورة. لا أشعر بعد بأني فعلت شيئاً، وأريد أن أقدم المزيد».

كيف احتال حمزة القرقوز على عناصر الجيش؟

أوائل عام ٢٠١٢، على وقع الأحـداث في سوريا، تكررت الزيارات إلى منطقة وادي خالد. قابلت في إحداها مجموعة من المسلحين. يومذاك كان برفقتي زميلي المصوّر في جريدة الأخبار مروان بو حيدر. في اللقاء مع المجموعة المسلحة، حدّثونا عن «ظلم النظام وجرائمه». كان لقاءً نارياً، لكن قبل أن أُكمل تفاصيله. أودّ أن أذكر أنّ ما جرى عقب هذا اللقاء، كان سبباً في بدء مشواري مع التقارير المصوّرة والأفلام الوثائقية. إذ بعد هذا اللقاء، كتبت مقالاً في جريدة «الأخبار» بعنوان «الجيش السوري الحر في لبنان: بعد النظام سنسقط حزب الله». لكن فريق ١٤ آذار بادر إلى تكذيبي ونفي ذلك، قبل أن يخرج الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله ويتحدث عن الأمر، مستشهداً بما كُتِب في جريدة «الأخبار». استفزّني تكذيب فريق ١٤ آذار ما نقلت، الأمر الذي دفعني للذهاب إلى وادي خالد حاملاً كاميرا لإجراء تقرير مصور. عرضته لدعم تقريري المكتوب، لكن

النائب السابق خالد الضاهر نفسه خرج مجدداً لنفي ما نُشر بالصوت والصورة في حلقة الإعلامي مارسيل غانم الذي يُقدّم برنامجاً سياسياً على قناة محلية لبنانية (L.B.C.I). يومذاك أيقنت أنّ للحقيقة وجوهاً كثيرة وأنّ أحداً لا يُريد سوى تلك «الحقيقة» التي يُفصّلها على قياسه.

بالعودة إلى تفاصيل الزيارة إلى وادي خالد. سألني يومذاك عنصر «الجيش الحر»: «أنت من أي منطقة في لبنان؟».

«أنا من الجنوب اللبناني، وهذا الشاب من بيروت» قلت مشيراً إلى مروان.

قال لي باستغراب: شيعي؟

«نعم، أنا شيعي وزميلي سنّي» أجبته.

كنا نشرب المتة حينذاك، فوقفوا جميعاً، وخرجوا من الغرفة ما عدا اثنين (وكانوا في الأصل خمسة).

سألت أحدهم: ماذا حدث؟

أشار بيده لأتوقّف عن الاستفسار. ثم لحقت بهم إلى الخارج، وسألت أكثر المنفعلين: لماذا أنت منزعج؟ هل لأني شيعي؟ ثم أردفت قائلاً: أمي سنّية، وأنا ضد النظام، خالي قتل سابقاً بقذيفة أطلقها الجيش السوري في تل الزعتر أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

«لا مجال للتواصل بيننا»، قال ثم تابع: «لولا أنك هنا في حمايتنا لكنت ذبحتك».

«أنا مكلف بعمل لجريدة سعودية، وأتيت إليكم»، أجبته، وكنت

وقتذاك مراسلاً لصحيفة الشرق السعودية في لبنان، إضافة إلى عملي في جريدة الأخبار. كنت قبل ذهابي قد اتفقت مع صديق لي أن يجهّز لي بطاقة للجريدة عبر «الفوتوشوب». أظهرت له البطاقة إلكترونياً.

سألني أحد عناصر الجيش الحرّ كيف أن البطاقة إلكترونية؟ فقلت بما أن الجريدة إلكترونية فالبطاقة إلكترونية. بهذه التفاهة تمكّنت من إقناعهم!

انتهت الجلسة وقتذاك، بتركيزهم على ما جاء في خطاب السيد حسن نصر الله. إثر ذلك، استمرّ تواصلنا عبر الهاتف، وأحياناً عبر السكايب. وبعد فترة، عاودت اللقاء بالمجموعة المسلحة في وادي خالد، وكان معي حينذاك رامي عيشة، صحافي صديق لي منذ أيام الدراسة في الجامعة. كنا معهم في تظاهرة. نظر أحدهم إلي نظرة من ينوي فعل شيء، كأنما يترصّدني. كنت أعرف من بينهم أبا خديجة، وهو مسؤولهم. حينذاك قالوا لرامي: هل صحيح أن صاحبك شيعي؟ فرد رامي بالنفي.

في أول مرة خرج وزير الدفاع اللبناني الأسبق فايز غصن ليكشف عن وجود تنظيم القاعدة في لبنان، كنت ذاهباً إلى وادي خالد في العام ٢٠١١. حينذاك وفي عرسال تحديداً، تم نصب كمين للجيش اللبناني، حيث تمّ نزع السلاح من عناصره، ما دفع بوزير الدفاع إبان تلك الفترة للقول بدايةً «الدينا في عرسال وجرودها مسلحون».

المجموعة الأولى التي التقيتها في وادي خالد عام ٢٠١١

حمزة القرقوز كان واحداً من الذين شاركوا في نصب الكمين، وهو من القيادات البارزة في تنظيم «القاعدة»، ومتورط في تهريب السلاح ومطلوب دولياً، بحسب ما صرّح وزير الدفاع حينذاك. لقد كان ما حصل حديث الناس. وفي منطقته، ادعى حمزة أنه «ضحك» على دورية الجيش وقال لعناصرها «أنا أدلكم على الأمير»، وأخذهم إلى مكان كمين آخر ضد الجيش أيضاً.

التقيت حمزة في منطقة الكنيسة في وادي خالد شمالي لبنان وهي منطقة متداخلة بين سوريا ولبنان. كنا في ديوانية كبيرة في أحد المنازل. الكبار في السن جلسوا إلى جانب مع «الشيخ أبو جاسم». أما الشباب فقد جلسوا في الجانب الآخر. تحدث هؤلاء أن وزير الدفاع سيفصح

عن اسم حمزة القرقوز على الملأ. ثم توجهوا بالحديث إلي طالبين مني أن أقدم لهم خدمة. قالوا «عليك خدمتنا، إذا سمّوا أخونا حمزة، نريد منك إجراء مقابلة معه على أنه مجرد راعٍ، وهل من المعقول أن يكون راعٍ قائداً في تنظيم القاعدة؟».

بعد هذه الجلسة بنحو ١٠ أيام تماماً، ظهر ترويج على قناة «الأو تي في» أن وزير الدفاع سيجري مؤتمراً صحافياً. حينذاك قلت لزميلي حسن عليق في جريدة الأخبار «قل للوزير ألا يسمي»، فسأل الوزير: ولماذا؟ قال له حسن: «حتى لا تدخلوا بالأسماء». بعد ذلك، طلب مني إجراء المقابلة مع حمزة فرفضت لكن لاحقاً أجرت قناة المستقبل اللبنانية وموقع النشرة مقابلة مع الشخص المذكور.

فلنعد إلى «الشيخ أبو جاسم». هذا الرجل لديه من الأولاد ١٣ ولداً يعملون جميعهم في التهريب. لا يقل مردودهم من أعمال التهريب شهرياً عن العشرة آلاف دولار. وفي مرة حضرتني السخرية وأنا بينهم، حيث قلت لهم ممازحاً، «سأترك الصحافة وأعمل معكم».

«غيفارا سوريا» يفضح المبعوث الأممي!

في أيار ٢٠١٢، خُطف ١١ لبنانياً في حلب السورية أثناء عودتهم من زيارة العتبات المقدسة في إيران، عقب دخولهم الأراضي السورية قادمين عبر تركيا. نُقل المخطوفون إلى مدينة أعزاز السورية الواقعة شمال غربي مدينة حلب، وأعلن لواء «عاصفة الشمال» مسؤوليته عن العملية التي عُرفت إعلامياً بقضية «الحجّاج اللبنانيين المخطوفين»، وذاع صيت المسؤول عنها عمّار الداديخي الذي عُرِف بـ«أبو ابراهيم». بقي المخطوفون اللبنانيون في الأسر طوال ١٧ شهراً شهدت تطوّرات دراماتيكية بدءاً من استقبال «أبو ابراهيم» وسائل الإعلام اللبنانية لمقابلة الأسرى، مروراً بالتحركات الاحتجاجية لأهالي المخطوفين، وصولاً إلى ظهور ما عُرف بـ«الجناح العسكري» لعشيرة آل المقداد اللبنانية الذي عمد إلى خطف مواطنين سوريين وأتراك لمبادلتهم بأحد أبناء العشيرة الذي خطف في سوريا، وليس انتهاء بمقتل «أبو ابراهيم» في ظروف غامضة. دخلت تركيا وقطر على خط الوساطة بعد مطالبة الجهة الخاطفة بتحرير سجناء وسجينات من سجون الدولة السورية.

حُدِّدت اللوائح الاسمية وأُنجزت الصفقة برعاية المدير العام لجهاز الأمن العام اللبناني اللواء عباس ابراهيم.

في الأيام الأولى لعملية الخطف، كانت هوية الخاطفين ملتبسة، ولم يكن «أبو ابراهيم» قد تحوّل بعد إلى «نجم» في الإعلام اللبناني. في تلك الفترة، اتّصل بي صديق سوري، وأبلغني أن معارضاً سورياً يدعى مؤتمن البابا لديه مجموعات مقاتلة ضمن فصائل «الجيش السوري الحر»، يريد التواصل معي. بالفعل اتّصل بي البابا لاحقاً، فطلبت منه إقفال الخط كي أُعاود الاتصال به. عاودت الاتصال فأقفل الخط ثم اتصل بي. فعلنا ذلك غير مرة إلى أن أجبت على اتصاله، فبادرني بعصبية: «ما بك؟ لماذا تُصرّ على أنّ تتصل بي أنت».

- أريد أن أوفر عليك المال.
- من قال لك أن توفر عليّ؟
- أغلبية المعارضين فقراء، وأنا أرسل إليهم بطاقات تشريج هاتف مسبقة الدفع.
- ومن قال لك إني معتر ومشحر؟.
- «يا أخي فكّرت بأن أوفّر عليك. مرّقلنا ياها»، قلت بعصبية.
- سأسامحك لأنك لا تعرفني. وأضاف: «يجب أن نلتقي».
- لست قادراً. ربما الاثنين؟
- لن أبقى هنا طويلاً. لن آخذ الكثير من وقتك. نصف ساعة فقط.

اتفقنا على الزمان والمكان، وأعطيته مواصفاتي مع بعض التحريف، وطلبت منه أن يتصل بي لدى وصوله. في الموعد المحدد، وصل البابا إلى فندق «ريفييرا» على الكورنيش البحري لبيروت، في سيارة «جاغوار» فخمة زجاجها حاجب للرؤية. شاب أربعيني، أشقر. تحدّث، في لقائنا، كثيراً عن نفسه، وقدّم لي نفسه وكأنه «غيفارا سوريا» الذي تخلّى عن كل شيء وعن حياة الرخاء من أجل الثورة. ثم صارحني بأن نحو خمسة آلاف مسلح يعملون في سوريا تحت إمرته. لسبب ما، شعرت بأن الرجل يبالغ. قرّرت أن أختبره، فسألته عن المخطوفين اللبنانيين.

«ماذا تريد منهم؟»، سألني.

- أريد أن أصل إليهم.

أمسك هاتفه واتصل بنقيب منشقّ (رأيته في مقاطع فيديو وعلمت أنه قُتِل لاحقاً)، سائلاً عن المخطوفين: «قل لـ... إنّ الحجي يريد أن يكلمك»، ثم أقفل الخط.

«نصف ساعة ويصل إلى المخطوفين». قالها بثقة. بعد نصف ساعة، جاء الاتصال. علمت من الحديث أنه يتكلّم مع الخاطف المفترض. وبعدما سأله عن الوضع في المنطقة، ناولني الهاتف.

- آلو.
- آلو.
- الاسم الكريم؟

- عمار... نادني أبو إبراهيم.
- أهلاً أبو إبراهيم. هل المخطوفون اللبنانيون لديك؟
- نعم. هم في الداخل.
- أريد أن أكلمهم.
- لا يمكنك ذلك. شرّفنا وتكرم عينك.
- أريد دليلاً.
- دليلك عندك. لا أكذب عليك. المخطوفون لديّ.
- ماذا تريد من وراء خطفهم؟
- لم نقرر بعد. القرار لقيادة الجيش الحر.
- «أوكي، سأكلمك لاحقاً ونتبادل أرقام الهواتف». أعدت الهاتف إلى البابا الذي سلم على «أبو ابراهيم» شاكراً، ثم عاود الاتصال بالنقيب سائلاً إياه عن هوية الرجل: «ما اسمه؟ وكم هو عدد المخطوفين؟».

«عمار الداديخي. أبو ابراهيم»، أجابه المتحدث على الطرف الآخر.

أنهى المكالمة، وسألني: «هل تريد أن يعود الحجاج؟».

- كيف؟
- أطلبهم منه. وإذا رفض، أُرسل مجموعة تشتبك مع الخاطفين وتُخلِّص المخطوفين.

ضعت مجدداً، وازدحمت الأسئلة في رأسي: ما الدليل أن من

تحدثت إليه هو فعلاً الخاطف؟ وإذا كان كذلك، فمن هو هذا الرجل الجالس أمامي؟ ومن أين يستمدّ كل هذه الثقة؟ هربت من الأسئلة بالقول إنني أُريد مصدراً آخر أقاطع معه المعلومة للتثبت من صدقه.

أبلغت رئيس تحرير «الأخبار» إبراهيم الأمين بالأمر، فقال إن بإمكاني نشر ما لديّ بوصفه رواية من بين روايات عدة لأنه لم يكن ممكناً التثبّت من هوية الجهة الخاطفة. أيام قليلة، وبدأ يشيع في الإعلام أن خاطف اللبنانيين يدعى «أبو ابراهيم» فعلاً. بداية، اعتقدت أن الأمر قد يكون مجرد تشابه في الأسماء، لكن صدمتي كانت كبيرة عندما تبيّن أن «أبو ابراهيم» هذا هو عمار الداديخي. إذاً، لم يكن من قابلني يكذب عندما وصلني بالخاطف. فمن هو هذا الرجل؟

مؤتمن البابا من عائلة دمشقية معروفة وميسورة. درس العلوم السياسية، لكنّه عمِل في تجارة ورثها عن والده الذي كان يملك وكالة تصنيع مواد أولية للدهانات. امتلك الكثير من المال، وكان يحلم بالسلطة، وسُجِن عدة سنوات نتيجة حُلُمٍ راوده بتشكيل حزب سياسي.

مع اندلاع الأحـداث في سوريا، كان البابا مقرّباً من بعض ضباط الأمن. مع تزايد أعداد الضباط المنشقّين، في بداية الأحداث، والتحاقهم بـ«الجيش السوري الحر»، جرى ترتيب «انشقاق» عدد من الضباط لاختراق صفوف المعارضين، حسب قوله. هنا لعِب البابا دوراً استثنائياً. أنشأ «أبو عبد الرحمن»، كما بات يُعرف، حركة «الرديف الثوري» المعارضة، وكان هدفها المعلن تأمين مساعدات إنسانية

للثوّار. وسرعان ما امتدّ نشاطها لدعم المتظاهرين بالسلاح، وشكّلت جناحاً قتالياً أُطلق عليه اسم «لواء رجال الله». وعمد البابا إلى تزويد مجموعات المعارضة السورية بحواسيب محمولة وسيارات وأجهزة اتصالات وبث فضائي، تبيّن أنها كانت «مزروعة» بشرائح للتنصّت وتحديد المواقع. وسرعان ما صار «أبو عبد الرحمن» الممثّل السياسي لنحو خمسة آلاف مسلّح. نجح «غيفارا سوريا»، كما كان يُحِب أن يُطلق على نفسه، في اختراق صفوف مجموعات المعارضة السورية المسلّحة وحتى جماعات تنظيم «القاعدة»، وأوجد موطئ قدمٍ له في ساحة التمثيل السياسي لأفرقاء المعارضة، متّخذاً من لبنان مقرّاً له.

عام ٢٠١٢، عُيِّن الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي مبعوثاً مشتركاً للجامعة العربية والأمم المتحدة إلى سوريا، خلفاً لكوفي أنان، بهدف إيجاد حل للأزمة السورية. وعيّن الإبراهيمي الدبلوماسي المغربي مختار لماني مديراً لمكتبه في سوريا. والأخير يحمل الجنسية الكندية، عمِل سابقاً في بعثة الجامعة العربية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، وسفيراً لمنظمة المؤتمر الإسلامي في الأمم المتحدة، ومبعوثاً للجامعة العربية في بغداد، كما شارك في بعثات لتقصّي الحقائق والمساعي الحميدة للأمم المتحدة في أفغانستان وكوسوفو والعراق وإفريقيا.

مع تكليف الإبراهيمي المهمّة، وضع البابا نُصب عينيه الوصول إلى هذا الرجل. كان مختار لماني ممثل الإبراهيمي في سوريا. وبما أنّه يقود فصيلاً مسلّحاً ينشط في الميدان السوري، كانت المهمّة

أكثر سهولة. فذلك يعني أنّ لماني هو من سيبحث عنه ليطلب موعداً للجلوس معه. وهذا ما جرى. نجح «أبو عبد الرحمن»، بشخصيته المحببة، في التقرّب من لماني، وأغرقه بالهدايا الباهظة الثمن. توطدت علاقتهما وسافرا معاً إلى عدد من البلدان العربية والأجنبية. كان البابا، في كل ذلك، يحصي أنفاس لماني، ووثّـق، بالصوت والصورة، العلاقات الجنسية التي كان يُقيمها المندوب الأممي مع لاجئات سوريات. وبلغت ثقة لماني بالبابا إلى حدّ أنه طلب منه ترتيب تفجير بالقرب من الفندق الذي ينزل فيه كي يُلزم إدارته بنقله إلى فندق آخر. وهذه المحادثة جرى تسجيلها وتوثيقها أيضاً. في كل ذلك، كان البابا ينسّق كل خطواته مع ضباط الأمن. بقي الأمر كذلك إلى أن اكتشف البابا أنّ لماني يقيم علاقة سرية مع إحدى السيّدات، وهي عضو في مجلس الشعب السوري. هنا، ارتكب الرجل خطأً فادحاً، إذ اتصل بالبرلمانية السورية مستفسراً إن كانت تعمل لمصلحة جهازٍ أمني أم أنّ العلاقة شخصية. فما كان من الأخيرة إلا أن أبلغت لماني بما جرى. هنا كانت القطيعة. حيث هدّد البابا لماني بفضحه، فطلب الأخير إعفاءه من مهمّاته.

كان الشاب الشامي مقتنعاً بأنّه يؤدي خدمة لوطنه الذي تآمرت دول العالم ضده. بدّد ثروته على شراء ولاء مجموعات «الجيش الحر». وهو اليوم يقيم في دمشق، فيما اسمه مدرج على لوائح الإرهاب.

تسجيلات عقاب صقر:
حفاضات وحليب.... وسلاح!

وطّدَت الأحداث السورية علاقتي بالمعارضين، نازحين وجرحى وسياسيين وضباطاً منشقين. تعرفت إلى كثيرين، كان بعضهم يبحث عن دور سياسي، فيما طموح آخرين أن أتوسّط لهم لدى جهاز الأمن العام لترتيب أوراقهم، أو الحصول على مساعدة مالية أو على بطاقة هاتف مسبقة الدفع.

تلقيت اتصالاً من شخص حصل على رقم هاتفي عبر مقسم جريدة «الأخبار» في شهر تشرين الثاني ٢٠١٢. كان رقم المتصل تركياً، لكنه قال لي بلهجة سورية: «أنا أعرفك. سبق أن أرسلت لي بطاقة هاتف. هناك أمر مهم أريد أن أحدثك عنه. هل لديك حساب على سكايب؟». سألته: ما هو الأمر المهم؟

- لديّ تسجيل للنائب عقاب صقر يُثبت تورطه في ملف السلاح.
- كثيرون اتصلوا بي سابقاً وزعموا أن لديهم تسجيلات كهذه. إذا كان لديك دليل، أرسله ونتحدث في الأمر.

أنهيت المكالمة، وبعد أقل من دقيقتين تلقّيت من المتّصل المجهول تسجيلاً صوتياً. كان واضحاً أن الصوت في التسجيل يشبه صوت صقر إلى حد التطابق. عاودت الاتصال بالرجل فوراً، فأخبرني أن لديه ساعات من التسجيلات، وعرض أن يزودني بها مقابل مساعدة، وهي أن أؤمّن له ولرفاقه الانتقال من تركيا إلى مصر، لأن التسريب سيشكل تهديداً لحياتهم.

منذ بدء الأحداث في سوريا، تحدثت تقارير صحفية أجنبية عدة عن تورط عقاب صقر، من دون أن تسميه، في تسليح المعارضة السورية. لكن أحداً لم يقدم أي دليل على ذلك باستثناء ما سمعته في حال ثبت أن الصوت عائد له.

عقاب صقر نائب لبناني شيعي عن تيار المستقبل، ومقرب من رئيس الحكومة اللبنانية سعد الحريري. لمع نجمه بعد مقتل الرئيس رفيق الحريري في ١٤ شباط ٢٠٠٥، وعُرف بمواقفه الحادّة المعادية لحزب الله وللدولة السورية. وهو كان من أوائل الذين فتحوا قنوات تواصل بين الحريري والمعارضين السوريين، وتولّى، من بيروت، «التنسيق الإعلامي»، وأحياناً الميداني مع هؤلاء. كل ذلك كان يجري بعيداً من الأضواء، ولكن بتكليف من الحريري، رغم أن الموقف العلني للأخير كان النأي بالنفس في بداية الأحداث في سوريا. وتتحدث معلومات عن غرفة عمليات أنشئت في منطقة الأشرفية، عام

٢٠١١، كانت تضم شبّاناً سوريين ولبنانيين يعملون بالتنسيق مع غرفة عمليات أخرى في دولة أوروبية، ومع الداخل السوري. وقد تولّت هذه الغرفة إدخال كميات كبيرة من أجهزة الاتصالات إلى سوريا، وتحديداً من النوع الذي لا يمكن أن ترصده أجهزة الأمن السورية. بقي صقر يتابع عمله إلى ما بعد خروج الحريري من بيروت عقب إطاحة حكومته في شهر كانون الثاني عام ٢٠١١. لكنه بدأ يعبّر عن مخاوف على أمنه من دون أن يكون لذلك ما يبرره، علناً أقلّه، إلى أن اخترق «مجهول» حاسوبه الشخصي. عندها قرّر مغادرة البلاد، بعدما تشاور مع الحريري واللواء وسام الحسن (رئيس فرع المعلومات، مقرب من الحريري، اغتيل بتفجير سيارة مفخخة في حي الأشرفية البيروتي في ١٩ تشرين الأول ٢٠١٢). غادر صقر إلى بلجيكا العام ٢٠١٢ حيث أقام مع عمه الذي يملك فندقاً في بروكسيل. بين أوروبا وتركيا، انخرط النائب البقاعي أكثر فأكثر في دعم المعارضة السورية المسلّحة.

أرسل إليّ الرجل تسجيلاً ثانياً. عرضت التسجيلين على خبير متخصص فأكّد لي أن الصوت هو فعلاً صوت صقر.

تضمن التسجيل الأول مضمون اتصال بين صقر وقائد إحدى المجموعات المقاتلة في سوريا المدعو «أبو النعمان»:

أبو النعمان: السلام عليكم.

صقر: وعليكم السلام. تفضل.

لؤي الزعبي، معاون النائب عقاب صقر في تسليح المعارضة السورية

- يا أستاذ عقاب نحنا جماعة مزنوئين كتير ومحاصرين، ويعني ما في يوم يومين بتسقط المنطقة عنّا. يعني قصف طيران، مدفعية فوزديكا. ما في محور من المحاور إلّا وعمبيضربونا منوّ، فرجاء ساعدونا بدنا سلاح.

صقر: تفضل قلّي السلاح اللي بدّك. شو يعني. تحديداً شو الكميات؟

- يعني الحقيقة بدنا شي ٣٠٠ حبة آر بي جي وعشرين قاذف. وإذا أمكن توفير ٢٥٠ ألف طلقة روسية و٣٠٠ بارودة على سلاح نوعي إذا في مجال.

صقر: كل هول لأي منطقة بدكن ياهن تحديداً؟

- أعزاز، تل رفعت، عندان وريف حلب بالكامل. وأنت عرفان شو عمبيصير عنّا. يعني هلق من مبارح صار فايتين علينا من ثلاثة محاور تقريباً من إدلب (...) ومن جوا حلب عم يطلعولنا شبيحة.

صقر: طيب مين بدو يستلم؟ وين بدو يصير التسليم؟ كيف بدّا تتم العملية؟

- هو التسليم مثل العادة بيقسموهن... بيكون هونيك أبو البراء مع الشباب والسيارات بيستلموهن وبوجهن على حلب. بس بدنا بأسرع وقت ممكن لأنو بتعرف الحاجة كبيرة والقصف شغال والمجاميع مفرقة. ذخيرة ما في. يعني الشباب كل

واحد يا دوب معاه مخزن مخزنين، وبتعرف الاستهلاك كبير. فدبّرونا بأي طريقة من الطرق الله يخليك. ما بعرف شو بدي قلك. ما في من بعد الله إلّا غيركن.

صقر: أنت حتكون على التسليم؟

- لا أخوي بيكون أبو النور مع الشباب والسيارات متل العادة بيستلموا منك.

وفي التسجيل الثاني، يُسمع صوت كل من صقر والناطق الرسمي باسم «المجلس الأعلى للجيش السوري الحر» لؤي المقداد، ومسؤول التسليح في حماه وريفها المدعو «أبو رشاد». وفيه مضمون مكالمة هاتفية بين صقر وشخص مجهول، اختلف خبراء الصوت في تحديد هويته، بين مؤكد أنه سعد الحريري وبين نافٍ لذلك.

مجهول: آلو.

صقر: آلو.

- إي خيي.

صقر: إي.

- شو المطلوب؟ شو لازمو؟

صقر: مطلوب رشاشات ورصاص ومطلوب رصاص بي كي سي وقذائف آر بي جي. سلاح نوعي لحلب وريف حلب ومنطقة إدلب.

- أي مناطق تحديداً؟

صقر: حلب وريف حلب. أعزاز والمناطق المحاصرة. بإدلب

مناطق محاصرة. مجموعة مناطق عمبتتعرض لهجوم شرس حالياً، وبأسرع وقت ممكن لازم تأمين هيدي الطلبية

- طيب بس شو النوعي تحديداً؟

صقر: ما عرفت. ما في شي محدد. بس الطلبية مبدئياً مضاد طيارات ومضاد دبابات مع السلاح العادي أو الخفيف والمتوسط.

- ماشي ماشي.

اشترط مصدر التسجيلات، في حال اتفقنا، تزويدي بالأدلة والوثائق تباعاً وفق قاعدة: «أُنشر تحصل على المزيد». وأكّد لي أنه لا يزال في صفوف المعارضة السورية «مقاوماً للنظام الظالم». ولإثبات صدقيته واكتساب ثقتي، زوّدني بعدة صور خاصة للنائب اللبناني في أكثر من موقع، وتحدّث عن تفاصيل عايشها طوال أكثر من سنة بصحبة صقر في «غرف عمليات الثورة» في أنطاكية وأضنة وإسطنبول، كاشفاً طبيعة عمل هذه الغرف وروّادها والمشرفين عليها، مشيراً إلى أن قيادات المعارضة السورية المسلّحة كانت تجتمع فيها دورياً في حضور صقر، ومندوب عن كل من قطر وتركيا والسعودية. وأكّد أنّ نحو عشرين شاباً سورياً يُديرون هذه الغرف عسكرياً، ويتولّون التنسيق مع قادة مجموعات معارضة مسلّحة لتوفير التمويل والعتاد لهم، والتدخّل لتوجيه المقاتلين نحو المناطق التي تتعرض للحصار أو الهجوم، تحت إشراف ضباط استخبارات أتراك وقطريين. كلّ ذلك، بحسب المصدر، كان يجري بواسطة «الفضائي»، وهو مصطلح يُعتمد

للإشارة إلى أجهزة الاتصال العاملة عبر الأقمار الاصطناعية، وتحديداً أجهزة الثريا والإيريديوم.

وأكد المصدر أنّ هناك مقراً خاصاً للنائب اللبناني، في منطقة فلوريا في إسطنبول، تُعقد فيه الاجتماعات بين حين وآخر. كما تحدث عن علاقة وثيقة تربط صقر بخاطف الزوّار اللبنانيين عمار الداديخي، مؤكّداً أن مخصصاً شهرياً كان يُدفع لـ«أبو ابراهيم» قدره خمسون ألف دولار أميركي، وأنّ شبّاناً من مكتب صقر كانوا يسلّمونه المال باليد. وأشار إلى «نفوذ غير محدود» لصقر لدى الاستخبارات التركية، وإلى «ثقة عمياء» يوليه إياها السعوديون، «أكثر من ثقتهم بسعد الحريري نفسه». كما أن «علاقاته مميزة مع القطريين رغم التنافس المحتدم بينهم وبين السعوديين». وهو قضى معظم أيامه في تركيا «لمتابعة الثورة السورية لحظة بلحظة»، وغادر في إحدى الفترات إلى بلجيكا بسبب خلافات بين الأتراك والسعوديين، وبقي هناك شهرين، قبل أن يعود إلى ممارسة نشاطه. ولفت إلى أنّ صقر كلّف صديقه الشخصي لؤي المقداد، الناطق الرسمي باسم «المجلس الأعلى للجيش السوري الحر»، متابعة مهمات كان يقوم بها بنفسه. وحول الصورة التي نُشرت حينذاك لصقر والمقداد، أكّد لي أن الأخير سرّبها بأمر من صقر بعد تلقيه معلومات بأنّ علاقتهما باتت مفضوحة، وأن النائب اللبناني استُنفر نحو ثلاث مرات إثر تسرب أخبار عن وجود تسجيلات صوتية تدينه، كان مصدرها وسائل إعلامية وجهات أمنية تهدف إلى تحذيره.

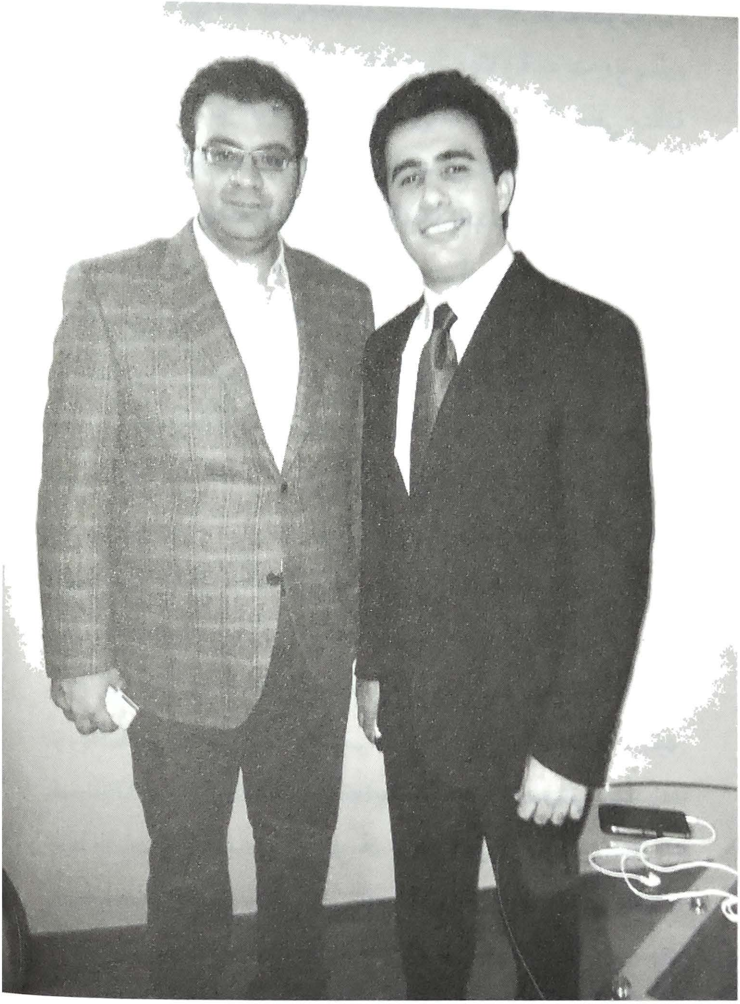

صورة تجمع النائب اللبناني عقاب صقر ولؤي الزعبي

ما الدافع إلى التسريب؟ كان سؤالي الأساسي. الجواب كان لأن «صقر خرّب الثورة بتصرفاته المجنونة»، و«لو أن السلاح والمصاري يلي دفعها عقاب وزّعت بطريقة صحيحة لكان بشار الأسد سقط أربع مرّات. كان يوزّع الأموال على قادة المجموعات المسلّحة من دون تمييز بين السفّاح المرتزق والمعارض الوطني»، مشيراً إلى أنه «كان يدعم بالسلاح لإسقاط النظام كرهاً بالنظام لا حُبّاً بالشعب السوري». وهو «رفض، في غير مناسبة، تقديم مساعدات مالية إلى جرحى أو لاجئين مدنيين بحجة أنّ هناك منظمات إنسانية يمكنهم اللجوء إليها». وذكر غير حادثة «أرسل فيها صقر أصدقاء لي إلى الموت بأرجلهم وهو يعلم أنهم ميّتون لا محالة، بسبب شكوك ساورته حولهم أو لخلاف معهم». وزعم «أننا خلال الاجتماعات كنّا نعترض، مثلاً، على قراره إرسال السلاح إلى منطقة ما لتركها ملجأً للمدنيين الهاربين من جحيم القتال، لكنه كان يُصرّ على قراره بهستيريا، غير عابئ بأرواح الناس».

اقتنعت بأنني وقعت على صيد ثمين فبدأت المفاوضات مع مرسل التسجيلات حسام. طلب الأخير إما تأمين خروجه مع رجل وزوجته من تركيا إلى مصر، وإما دفع ٢٥٠ ألف دولار على أن يخرجوا هم بطريقة ما. كان واضحاً أنّ الرجل ومن معه خائفون من سطوة النائب اللبناني ومن إمكان أن يصل إليهم. بنتيجة التفاوض انخفض المبلغ إلى ٥٠ ألف دولار، فبدأت أبحث عمن يزودني بهذا المبلغ. عرضت الأمر على إدارة الجريدة، فتمكنت، عبر صديق، من

توفير المبلغ الذي أرسلته بنفسي عبر أحد مكاتب تحويل الأموال في حي الحمرا التجاري في بيروت. بعد ذلك، بدأت باستلام التسجيلات تباعاً، وهي أظهرت تورط صقر، الذي يُعرف في أوساط المعارضة المسلّحة بلقب «أبو الصقر»، في دعم المسلحين السوريين بتكليف من سعد الحريري. كما كشفت دوره المحوري في متابعة إدارة العمليات العسكرية على الأراضي السورية، وقيادته غرف عمليات عسكرية منتشرة في كل من تركيا ولبنان. وأحدث نشر مضمون التسجيلات في جريدة «الأخبار»، وعبر قناة «أو تي في» التلفزيونية في الوقت نفسه، ضجة كبيرة لدى الرأي العام اللبناني بعدما أظهرت بالدليل ما كان يتردد همساً، كإشاعات، منذ فترة طويلة.

في أحد هذه التسجيلات، يتلقّى صقر اتصالاً من المقداد، فيطلب من الأخير البقاء على الخط ريثما يُكمل اتصالاً يجريه على خط آخر، يؤكد فيه لمحدثه أن المعركة «ستُحسم». وبحسب مرسل التسجيلات، كان الحديث يدور حول معركة معرة النعمان. وفي ما يأتي مضمون التسجيل:

المقداد: آلو.

صقر: آلو.

المقداد: إيه عقاب.

صقر: إي لؤي خلّيك معي دقيقة، خلّيك معي دقيقة.

(عقاب يتحدّث مع شخص آخر على الهاتف): ألو. إيه، لا، لا.

رح تنحل، رح تنحل، رح تنحل، عم نتابعها، بعرف إنك ما نمت، أنا ما نمت كمان، عم نتابعها، عرفت عرفت، وبالسعودية كلون متابعين. لأ حتنحسم، انشاالله هيدي حتنحسم. عالأكيد. يلا يلا منتواصل، طيب طيب، بحطك بالجو لحظة بلحظة، الله معك، الله معك.

صقر: آلو. آلو. إيه لؤي؟

المقداد: إي حبيب شو في؟

صقر: خربانة. خربانة عالآخر.

المقداد: مين هاد الشيخ سعد؟

صقر: الرئيس الحريري جانن. جانن. بدو يحسم. بأي طريقة لازم تنحسم.

المقداد: يا عمي أنا اليوم...

صقر: حكيت معن؟ شو قالولك؟

المقداد: حكيو معي اليوم شي عشر مرات. نفس الاحتياجات وأقل شي بدّن ذخيرة متوسطة يعني.

صقر: ذخيرة متوسطة؟

المقداد: إي أقل شي. إنت حطيت الشيخ سعد بالصورة؟

صقر: حطيتو بالصورة، وصدّق ما عم ينام، لحظة بلحظة ثانية ثانية عم يتابع، وبدو يحسمها بأي طريقة، وعم يقلي هاي تحديداً لازم تنحسم، وما في أي مجال للفشل.

المقداد: عقاب في مشكل إنو اللي عم بيعانو منو إنو يا أخي

المنطقة بتسقط، وإذا سقطت المنطقة بالنسبة إلهن يعني متل دومينو بتسقط كل المناطق المحيطة، عرفت؟

عقاب: يا خيي أنا فهمان هيدا الشي. بس عم قلك حكيت مع دولتو عم بيقول بدنا نحسمها وما فتنا بالتفاصيل، وما بدنا نفوت نحنا بالتفاصيل، نحنا عنّا قضية بدنا نحسما ونخلص وتنتهي.

وفي تسجيل آخر يبدو صقر والمقداد في غرفة عمليات، عندما يتلقى الأخير اتصالاً من «أبو رشاد»، مسؤول الإمداد في حماه وريفها، ودار بينهما الحوار التالي:

أبو رشاد: السلام عليكم.

المقداد: أهلاً أهلاً حبيبي وعليكم السلام. كيفك؟

- أستاذ لؤي؟

المقداد: إيه طمّني عنكم. كيفك؟

- كيف الصحة؟

المقداد: الله يخليك ويسلمك. شو الأخبار عندك؟

- وينكن إنتو؟

المقداد: أيه أخي. نحنا موجودين بغرفة أنا والأستاذ عقاب والشباب كلن هون. طمّني كيف الوضع عندك؟

- منيح عقاب جنبك لأنو حالتنا بالويل. يعني الحالة كتير ملحّة كتير كتير، أكتر ما بتتصور. اشتباكات قوية والقصف مشتد علينا كتير.

المقداد: طيب طيب كلنا سمعانينكم بالغرفة وهاي الأستاذ عقاب سمعانك.

صقر: وضعكن شو ساء أكتر؟ أكتر من مبارح واليومين الماضيين؟

أبو رشاد: والله كتير اشتد القصف علينا واشتباكات والوضع كتير ملحّ بحاجة كتير ملحّة للمساعدة.

صقر: طيب وين. بحماه إنت؟ إنت بادلب؟ وين؟

أبو رشاد: حماه وإدلب.

صقر: هلق المطلوب نزيد الكميات، يعني الكميات منّا كافية؟

أبو رشاد: إيه إيه زيدو الكميات.

المقداد (يتحدث إلى عقاب داخل الغرفة): شو رأيك منزيد الكميات؟

صقر: لا لا منزيد الكميات.

صقر (متحدثاً إلى أبو رشاد): أنا أبو رشاد إجاني كتير تقارير كمان من جوّا من عدد من الشباب، عمبيقولو نفس الشي إنو بهالمنطقتين الوضع بدو يزيد. أنا هلأ حا وجّه الشباب تزيد الكميات بأكبر قدر ممكن لأنو عارف وضعكن إنتو كتير ضعاف.

المقداد: هلأ فوراً رح ننزلكن على الجداول. هلأ فوراً الشباب رح يزيدوكن على الجداول. يلا ولا يهمكن.

***

أبلغني مرسل التسجيلات أنّه تمكن من المغادرة إلى مصر، ومن هناك بات أكثر أريحية في كشف المعلومات. إذ أكد لي وجود غرفة عمليات في شمال لبنان «ناشطة في الثورة السورية»، مرتبطة بتركيا، ويعمل فيها ستة شبان سوريين إضافة إلى عدد من اللبنانيين. وأشار إلى أن القياديين السوريين الذين يزورون لبنان يُستقبلون في فيلا في منطقة فقرا. وأوضح أنه في إحدى زياراته لبنان، نزل في هذه الفيلا برفقة شبان آخرين وقبضوا مخصصات مالية. وأكد أن هذا «المكتب» كان يديره ضابط لبناني متقاعد يتواصل مع غرفة عمليات في تركيا للاستفسار عن شحنات الأسلحة التي تُرسل إلى المناطق السورية، فيما كان صقر «يعمّم» تنفيذ كل ما يطلب. وكشف المصدر أن معظم تحويلات صقر كانت تتم عبر إحدى شركات التعويل في منطقة الحمرا في بيروت، والتي تجري معظم معاملاتها بشكل مخالف للقانون لا يُمكن ضبطه.

وعن الباخرة «لطف الله ٢» التي ضبطها الجيش اللبناني في عرض البحر في أيار عام ٢٠١٢ وعلى متنها أسلحة قادمة من ليبيا إلى طرابلس، أكد المصدر تورّط أعضاء في «المجلس الوطني السوري» بالاتفاق مع الليبيين ونائب قائد الجيش السوري الحر العقيد مالك الكردي، فيما لم يكن هناك أي علاقة لنائب المستقبل بهذه القضية لأنه «استشاط غضباً يومذاك وقال إنّ هؤلاء جميعاً مخترقون من النظام السوري». كما كشف لي أن رئيس فرع المعلومات الراحل اللواء وسام الحسن «قدّم كثيراً للثورة»، و«كثيراً ما كان يتدخّل عند توقيف

أحد الشبّان في قضية تهريب سلاح لمساعدته وإخراجه»، مشيراً إلى أنّ بعض السوريين الذين كانوا يُوفدون إلى لبنان كانوا يلتقونه أحياناً، ولافتاً إلى دور أداه الحسن في إخراج الصحافيين الفرنسيين الذين حوصروا في حمص.

أحدث نشر التسجيلات عاصفة من ردود الفعل، بعدما أثبتت، بالصوت، تورط عقاب صقر في لعبة الدم السوري، بتكليف من الحريري نفسه. عقد صقر مؤتمراً صحافياً زعم فيه أنّ التسجيلات المسرّبة مجتزأة، وعرض ما ادّعى أنّها التسجيلات الكاملة ليظهر فيها أنّه لم يكن متورطاً في توزيع السلاح، وإنما كان يعمل في توزيع البطانيات والحليب على النازحين السوريين. أخضعت إحدى القنوات التلفزيونية التسجيلات التي عرضها صقر لتدقيق تقني لتخرج بخلاصة مفادها أنّها غير مفبركة. أما بالنسبة إليّ، فقد كان هناك استنتاجان بشأن ما حصل. الأول أنّ صقر لجأ إلى الأشخاص أنفسهم الذين كانوا يطلبون منه السلاح، طالباً تسجيل تتمة يستكمل فيها التسجيل ليُظهر براءته ثم يتمّ إدماج القسمين ليبدوا تسجيلاً واحداً. أما الثاني فمفاده أنّ صقر نفسه هو من عمد إلى تسريب التسجيلات ليعمد إلى نفيها لاحقاً رداً على الاتهامات التي نُشرت ضده في وسائل الإعلام الغربية. رغم ذلك، لم يفسّر النائب اللبناني سرّ «مَونته» التي ساهمت في إطلاق تسعة إيرانيين خُطفوا في بداية الأحداث في سوريا، بوساطة من الحريري نفسه. كما لم يُفسر سر قدرته على التفاوض بقوة مع

المجموعات المسلّحة. وهو، لاحقاً، لم يترك فرصة إلا وتحدى فيها إثبات تورّطه. في إطلالة في برنامج «كلام الناس» على قناة «أل بي سي آي» مع الزميل مارسيل غانم، قال: «إذا استطعتم أن تُثبتوا أني أعطيت أحداً من هؤلاء بندقية أضع نفسي أمام المحاكمة». وكرر ذلك في مقابلة مع الزميلة بولا يعقوبيان على قناة «أخبار المستقبل»: «أحضروا دليلاً وحاكموني». وفي مقابلة مع صحيفة «الشرق الأوسط»، قال: «لسنا متخصصين بالسلاح ولم نستعمله في بلدنا حتى ننقل هذه التجربة إلى سوريا». ويُسجّل عليه قوله: «نحن ندعم الشعب السوري بكل ما لدينا من إمكانات بتكليف من الرئيس سعد الحريري من اليوم الأول»، مضيفاً: «أنا ما بعمل شي من دون تشاور كامل وأخذ إذن الرئيس سعد الحريري».

في عرس كرمى خياط، نائبة مدير الأخبار في قناة «الجديد»، في ٢٠١٧، التقيت النائب عقاب صقر. سلّم عليّ، فسألته إن كان يعرف من أنا. فردّ ضاحكاً بالإيجاب. حكى لي يومذاك عن تجربته مع الزميل في جريدة «السفير» جهاد بزي قائلاً: «إن جهاد استاء لأنني جعلته ينتظر، بينما كنت أعمد إلى تهدئة أحد الأشخاص الذي كان منهاراً في مكتبي. فكتب مقالاً ضدي في اليوم التالي ظنّاً منه أني أسأت إليه عمداً. مسح بي الأرض في ما كتب، لكنه للأمانة كان مقالاً جميلاً. لكن يومذاك، اتّصلت به مهنئاً. وهكذا أنتم في «الأخبار». أنت وكم شخص آخر في الجريدة مهنيون، تُتقنون عملكم لدرجة أنني أُعجب به رغم أنّه قد يكون

ضدي». انتهى اللقاء بقوله ضاحكاً: «الله يقويك... بس مش ضدّي»، فأجبته بابتسامة: «الله يهديك». تكرر اللقاء في بيروت مجدداً. نفى صقر ضلوعه في تسليح المعارضة، مؤكداً أنّ الاستخبارات السورية حاولت الإيقاع به بهذه التسجيلات.

في سوريا اعتُقلت: أنا أبو محمد الجولاني!

إلى نانسي رزّوق... شريكتي في الجريمة التي رافقتني في سنوات الحرب الستة، أهديك هذا الفصل.

كان ليل الجمعة من شهر تموز عام ٢٠١٣، وكنت أرتّب حاجيات السفر في حقيبة رمادية، استعداداً للتوجه إلى سوريا لإجراء مقابلة صحافية مع مستشارة الرئيس السوري بثينة شعبان، ووزير الإعلام السابق عمران الزعبي. «هذا القميص سيبدو مناسباً»، قلت في نفسي، قبل أن يُطرق الباب.

«يا رجل.. أين أنت مختف؟ الدنيا ليست كلها عملاً»، قالها صديقي وهو يبتسم ويعانقني، مضيفاً: «على فكرة أتيت لك بهدية صغيرة».

- «هدية؟».

أشار إلى يده.

«عصفور؟»، قلت بدهشة.

«نعم. كنار... كنار بوردر».

«كنار بوردر؟»، سألت مستفهماً.

جلس واضعاً القفص على الطاولة، وبدأ بسرد تاريخي عن هذا النوع من الطيور: «أصلها من جزر الكناري، في إسبانيا. وهذا النوع بالذات، هُجِّن مع أنواع أخرى، في موقع على الحدود بين أسكتلندا وبريطانيا. ومن هنا جاءت تسمية بوردر (أي حدود)».

اكتفيت بابتسامة، وشكرته على هديته. ودّعني قائلاً: «انتبه على حالك هونيك. الوضع مش زابط. بتروح فرق عملة».

جلست أتأمل العصفور الخائف، الهارب إلى أبعد نقطة في القفص كلما اقترب منه أحد. كيف يمكن لجناحين خلقا على مساحة الأرض، أن تسعهما فسحة صغيرة؟ كيف لا يسقطان انتحاراً عندما تداس كرامتهما في قفص؟

في صباح اليوم التالي، ودّعت عائلتي. «الله يكون معك يا ابني، دير بالك على حالك»، قال أبي.

«لا تخف. زيارة عمل عادية، لا خطر فيها»، قلت مطمئناً.

كانت أمي تنظر إليّ بقلق واضح. احتضنتها قائلاً: «لا تخافي حبيبتي. الوضع بدمشق منيح، وما في مشاكل أمنية». قالت وكأنها لم تسمعني: «خللي هيدا الحجاب معك الله بيحرسك».

- «حجاب؟»

«إي حجاب فيه كلام الله، بيحميك».

«حاضر»، قلت وأنا أضع «الحجاب» في محفظتي. ودّعتهم وانطلقت.

وصلت إلى دمشق نهار السبت حيث استقبلني صديق سوري كان قد حجز لي غرفة لخمسة أيام في فندق «أمية». كنا في شهر رمضان، وكان أول مواعيد العمل الاثنين. أفطرت وصديقي الذي أوصلني إلى الفندق على وعد باللقاء عند السحور.

في غرفتي في الفندق، جلست أشاهد إحدى حلقات مسلسل «ولادة من الخاصرة». عند الساعة ١١:٢٠ قبل منتصف الليل، سمعت طرقاً على الباب. لسبب ما توجست وانقبض قلبي. اقتربت. دق الباب من جديد، فسألت عن هوية الطارق. «خدمة الغرف»، قال. «لكنني لم أطلب شيئاً!». أجاب: «إدارة الأوتيل بدها تحكيك». ألقيت نظرة عبر «العين السحرية» فرأيت شاباً على الجهة الأخرى. كان موظف الاستقبال في الفندق. ما أن فتحت الباب، حتى أحاطت بي مجموعة من المسلحين. نظرت إليهم وابتسمت: «أهلاً شباب. تفضلوا».

- «لا. إنت بدك تتفضل معنا»، قال أحدهم.
- إلى أين؟
- خمس دقائق ومنرجع.

استأذنتهم أن ألبس ثيابي وحاولت أن أغلق الباب، فحال أحدهم دون ذلك. ركضت إلى الداخل وحاولت أن أجري اتصالاً من أحد الهواتف الثلاثة التي بحوزتي فمنعني «كبيرهم»، وقال: «ما اتفقنا هيك»، وأخذ مني الهواتف الثلاثة.

«لن أذهب معكم قبل أن أجري اتصالاً»، أصررت. فأجاب بحزم: «ممنوع.. هيك الأوامر». وتابع: «يا أستاذ، يا بتجي معنا بالحسنى، يا مناخدك بالزور. باينتك شاب محترم وما بدنا تتبهدل».

استفسرت منه عمن يكونون، فأجاب: «نحن من الأمن العسكري». طلبت أن أرى بطاقاتهم، فأبرز بطاقته. طلبت أن أرى بطاقات العناصر معه، فاستجاب ودعا رفاقه لفعل الأمر نفسه. نظرت إلى البطاقات في أيديهم، لكنني لم أقوَ على قراءة ما فيها. لم أرَ سوى بياضاً، بدا وكأنني نسيت القراءة فيما كانت الأفكار تزدحم في رأسي: من هؤلاء؟ إلى أين يأخذونني؟ ما الذي ينتظرني. فكرت للحظة أن أركض وأقفز من نافذة الغرفة، كما نُشاهد في الأفلام، علّي أستطيع الهرب، لكن إلى أين؟ في النهاية استسلمت. طلب أن يقيدني من يديّ، فرفضت قائلاً: «ما بيمشي الحال».

- ليش؟
- ما بتعرف أنا مين؟
- لا والله...
- أنا كتير مهم بلبنان. ما بتزبط إني أمشي معك «مكلبج» أمام الناس.
- تكرم عينك. «منكلبجك» بالسيارة.

كنت أُفاوض من موقع المهزوم وشعرت بأنني سجلت موقفاً. نزلت برفقتهم محاطاً برجلين عن يميني ويساري فيما كان الضابط

خلفي. كان «اللوبي» خالياً، لكنني شعرت بأن كل نزلاء الفندق كانوا يراقبونني. حُشرت بين الرجلين في المقعد الخلفي لسيارة بيضاء كانت في انتظارنا، فيما كان الضابط على المقعد الأمامي يبلغ عبر جهاز اللاسلكي: «سيدنا صار معي». وضع أحد الرجلين يده وراء ظهري ثم أحنى رأسي جاعلاً إياه في الفراغ الذي بين المقعدين الأماميين. سألت: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

- «هلأ بتعرف»، جاءني الجواب من الضابط.

وصلنا إلى نقطة تفتيش أمنية، فضغط الرجل على رأسي حتى أخفضه أكثر. عرض الضابط بطاقته على نقطة التفتيش ثم مضينا. صرت أسعل: «ما بيمشي حالي هيك، أعاني مرض الربو»، قلت له بهدف أن أعود إلى وضعيتي السابقة. محاولة جديدة لتحصيل أي مكسب.

«يلا شوي ومنوصل»، ردّ ببرود. لم أستفد شيئاً.

كانت الأسئلة تزدحم في رأسي: هل هؤلاء من جماعة النظام فعلاً أم من المعارضة؟ هل وقعت في كمين؟ هل يقف عقاب صقر خلف كل هذا؟ فكرت بوالدتي: كيف ستراني وهم يذبحونني؟ هل سيصورونني؟ سيل من الأسئلة احتلّ رأسي.

وصلنا إلى بناء علقت عليه صورة ضخمة للرئيس بشار الأسد. لكن ذلك لم يشعرني بالارتياح، فربما كان الأمر تمويهاً. نزلنا السلالم إلى طبقة سفلية تنتهي ببهو حيث كان عشرات الرجال بملابسهم الداخلية المتسخة ووجوههم الشاحبة. إلى يمين البهو باب جلس

أمامه رجلان. «وقاف هون»، طلب مني أحد مرافقيّ بعدما حرر يدي من القيود. وقفت مستنداً إلى الجدار، قبل أن أُساق إلى بهو آخر. «وقاف هون»، طلب مني أحدهم مجدداً، فوقفت. رأيت أحدهم يقتاد شاباً مكبّل اليدين قبل أن «يسلّمه» إلى آخر قائلاً: «توصّ به. هذا من داريا». وسرعان ما بدأ الرجل بتنفيذ «التوصية» فانهال بالضرب المبرح على الشاب لكماً ولطماً وركلاً. كنت أشاهد ما يحدث أمامي وأسأل نفسي: «ربما يحاولون ترهيبي؟». لقد «دُمِّر» الشاب المسكين من شدة الضرب.

أدخلوني إلى المحقق.

- «خير... شو قصتو هاد؟»، سأل.
- «هاد صحافي اسمه رضوان مرتضى»، أجاب رجل الأمن.
- «وين كاميرتك؟»، سألني
- ما معي كاميرا.
- شلون صحافي وما معك كاميرا؟ أول مرة بسمع فيها هاي.
- ما معي كاميرا. أنا بكتب بجريدة.
- طيب شو جايي تعمل عنا؟
- جايي قابل وزير الإعلام ومستشارة الرئيس...
- إيه صدقتك. بعد شوي بتقلي جايي تشوف سيادة الدكتور الرئيس بشار الأسد!
- طيب خيي ليه أنا هون؟

- رح تعرف.
- بدي أعمل اتصال.
- «بعدين»، قالها بحزم. وسأل: «وين أغراضك؟». أعطيته هاتفي ومحفظتي ففتحها وبدأ يعدّ ما فيها، ثم طلب من الكاتب تدوين التالي: «حط كان معو ٨٠٠ دولار». احتججت قائلاً للكاتب بشكل قاطع: «دوّن أن هناك ١٠٠٠ دولار». نظر الكاتب إلى المحقق الذي هزّ رأسه موافقاً. كنت حاسماً لاعتقادي أنّ العسكر معتاد أن يؤمر. لا يمكنك أن تتعاطى معه على أنّه أعلى منك شأناً. يجب أن تخاطبة «من فوق».

استمر المحقق في تقليب محفظتي، فعثر على حجاب.

- شو هاد؟
- حجاب كتبته لي أمي.
- ولشو هاد؟
- هذا الحجاب يحميني. فيه آيات قرآنية.

«وهل حماك؟»، سألني بسخرية. ثم تابع: «هل تُصلي؟». خفت أن تكون الصلاة تهمة هنا، فأجبت: «بشكل مُتقطّع. هيك وهيك».

- كيفو أشرف ريفي؟
- «ماشي حالو»، أجبت بحذر لأني لم أكن أعرف بعد أين أنا بالتحديد ومع أي جهة، رغم أنني كنت شبه متيقين بأنني لدى المخابرات السورية.

أحضر المحقق ملفاً أصفر. فتحه وبدأ بطرح الأسئلة والكتابة. أجبته عن اسمي وعملي وعمري. كتب المضبوطات. طلب مني ساعة اليد. «حلوة»، قال لي. «مش مقدّمة»، رددت عليه بصلافة.

طلب من رجل الأمن تفتيشي ففعل ذلك بطريقة حقيرة، وصفعني على رقبتي. هنا استدرت ودفعته بكلتا يدي وصفعته. «إنت واحد حيوان»، قلت له صارخاً. نهض المحقق وانهال على الرجل بالضرب وطرده وهو يصرخ به: «إنت حيوان ما بتفهم. بلا أخلاق». شعرت أن المحقق يمثّل عليّ. جلب لي كرسياً. «تفضل أستاذ»، قال ثم سألني: «شو بتحب تشرب أستاذ؟ قهوة؟». أجبته: «شكراً». لكنه أصرّ عليّ أن أشرب شيئاً فقلت: «بدي بس مياه». جلبوا زجاجة مياه فشربتها كلها، لكن ببطء. أردت أن أستثمر هذا الوقت في تجنب الذل الآتي. وضعت الزجاجة فارغة أمامي. «كاين عطشان منيح»، قال لي، ثم أضاف: «تفضل أستاذ لبرا. وبس يكون فيه أي شي منبلغك».

- بس بدي أعرف ليش أنا موقوف هون؟
- «رح تعرف»، قالها باحترام هذه المرة. وسألني:
- هل سبق أن سافرت إلى قبرص؟
- لا.
- تركيا؟
- لا.
- ولا مرة رايح على تركيا؟
- لا.

فقال: «هلأ صار إلك عنا إضبارة»، ثم طلب مني أن أنتظر خارجاً. خرجت. أحضروا لي كرسياً وأُمرت: «دير وجك على الحيط». بقيت هكذا لأكثر من ثلاث ساعات. نهضت، طرقت باب غرفة المحقق ودخلت: «بدي أعمل تلفون». نظر إليّ بسخرية وهو يضحك: «فيه ناس إلها سنتين وتلاتة بدها تعمل تلفون. مش سهلة تعمل تلفون. شو بدك تحكي مع مين؟».

- أنا ضد تدمير سوريا وكتاباتي بتشهد. كمان أن جايب تسجيلات عقاب صقر.
- اللي بتفرجيه عم يسلّح المعارضة؟ شو اللي بأكدلي؟
- فوت على موقع غوغل.
- ما عنا إنترنت والله.
- طيب بدي أحكي حدا. بدي بلغن إنو أنا هون. بدي بلغ أهلي وبدي بلغ ناس.
- «إضهر لبرا»، صرخ بي. خرجت إلى الانتظار مرة أخرى. كنت أقدّر الوقت تقديراً. مضت ساعات كان الموقوفون خلالها يمضون الوقت في المشي أو بالقيام بحركات بسيطة. سألني بعضهم عن سبب توقيفي فلم أجب. اقترب أحد الموقوفين مني طالباً الإذن لدخول الحمام، فقلت له: «أنا موقوف مثلي مثلك».
- «إنت موقوف؟»، فوجئ لأنني كنت لا أزال ألبس ثيابي.

خشيت أن يطلب أحد مني خلعها، وزاد توتري إذ تذكّرت أنني أرتدي ملابس داخلية بألوان زاهية.

- «قديش إلك موقوف؟»، سألته، فأجابني: «سنتان».
- ليش وقّفوك؟
- كنت جايي بفان (ميكروباص) من لبنان. نزلوني عالحاجز وجابوني، وما بعرف لهلق ليش موقوف.

شعرت وكأن الدنيا تدور بي وأحسست بأني على شفا الانهيار. جاء وقت الطعام فأتوا لي بحبة بطاطا، فأعطيتها للرجل. حاول الشاويش، وهو من الموقوفين، أن يتودد إليّ. سألني إن كنت أريد مياهاً لأشرب ثم قدّم لي تفاحة. لكنني لم أكن قادراً على تناول أي شيء، كانت معدتي متوترة إلى أقصى الحدود. طرحت على الشاويش أن أعرض على المحقق ألف دولار لقاء السماح لي بإجراء اتصال هاتفي، فحذرني من ذلك: «أوعى تجرب تعملها. بيخربولك بيتك».

- لكن هذا يحصل في كل سوريا...
- إلا هون. كلو مراقب. بخافوا يكون مدسوس وما مدسوس وألف قصة.

لم أنم في الليلة الأولى. في الصباح، دخل رجل إلى البهو وأخذ يركل الموقوفين النائمين. طلب من الشاويش ومساعده الوقوف، ثم انهال عليهما ضرباً: «فيّق الكل يا حيوانات إنت وياه». أحضر الشاويش ومساعده ثلاث طاولات وكراسي وضعوها في الباحة، ثم

أحضرا الإضبارات والملفات والمضبوطات. كنت أشعر بالقلق من أن ينطفىء هاتفي، إذ إنني لا أحفظ أياً من أرقام ممن كان يفترض بي أن التقيهم. فكرت في أن أرشو أحداً ما لأجري اتصالاً بعدما علمت أنني في مركز الأمن العسكري فرع ٢١٥ في منطقة كفرسوسة. أخبرني الشاويش بمكان احتجازنا.

فجأة نودي على اسم أحد الموقوفين، فجاء به الشاويش. جثا الرجل عند أقدام المحقق. بعد سؤاله عن اسمه، حمل هاتف الموقوف وبحث في محتواه ثم سأله: «مين ....؟ مين هالشرموطة؟ مين هاي؟».

نادى المحقق على سجين قوي البنية وأومأ إلى الموقوف الذي تلبّسه الرعب.

«لوين؟»، سأل.

«علقوه»، قال الضابط.

- سيدي بعترف باللي بدك ياه بس دخيلك لا تعلقني.
- انقلع ولاك. لازم تتعلق ليجي اعترافك عن قناعة!

«التعليقة» أشبه بالمشنقة، حيث تُربط يد المعتقل بعد أن يقف على كرسي سرعان ما تُركل من تحته ما يؤدي إلى انحباس الدم وخروج مفصل اليد من مكانه. توالت المناداة على الموقوفين الذي تراوح أعمارهم بين ١٧ و٧٠ عاماً، وتوالت معها «حفلة» التعذيب بكل صنوفه: صعق بعصا كهربائية، ضرب وركل على الأماكن الحساسة، وضرب بالعصي. مع الانتهاء من «التحقيق» مع كل موقوف، كنت

أشعر بأنني التالي. أحسست بأن دوري آت لا محالة. انتهت «الحفلة» من دون أن يأتي دوري.

ليلاً، طلبت من الشاويش أن يسمح لي بدخول الحمام، علماً أن زيارة الحمام مسموحة مرة واحدة صباحاً. استجاب لطلبي و«كرمى لي» قرر أن يسمح بذلك لجميع الموقوفين. مشهد الحمامات كان زريّاً. غرفتان صغيرتان تضمان جوراً بعضها إلى جانب بعض. شرع الجميع في خلع سراويلهم وقضاء حاجتهم بعضهم أمام بعض، ما جعلني أمسك عن قضاء حاجتي. وعندما هممت بالمغادرة وضع العسكري يده على صدري ودفعني إلى الخلف. «لوين؟» سألني بجلافة. «خلصت»، قلت، فأجاب: «انقلع لجوا ليخلصوا الكل»، ثم أقفل الباب.

كان الموقوفون قد بدأوا يعرفونني بالصحافي اللبناني. سألني أحدهم: «يا صحافي يا لبناني شو رأيك؟ حلو ما هيك؟ أوتيل خمس نجوم».

«رواق»، تطلعت إليه وهززت برأسي.

فطرح عليّ سؤالاً بالفصحى: «هل تجرؤ أن تكتب ما رأيته هنا عندما تخرج؟».

قلت له: «بشرفك اتركني، ولأخرج الله بيفرجها».

عدت إلى الكرسي. غفوت قليلاً قبل أن أستيقظ على صوت المطرب الشعبي نعيم الشيخ. كان الصوت يأتي من مسجل صغير في

حوزة الحارس الذي كان يشرب المتة. كان مسترخياً فحدثت نفسي بأن أهجم عليه وأحاول انتزاع سلاحه لإيجاد طريقة للخروج. لكنني سرعان ما طردت الفكرة من رأسي. «شو كان بدي بالسياسة؟» سألت نفسي، «كنت عايش مرتاح، شو بدي فيهن؟ يصطفلوا».

جاء وقت النزول إلى الحمام صباحاً. التقيت موقوفين من «لواء أحفاد الرسول» وإسلاميين و«جيش حر» و«كتيبة الفاروق». كان هناك الكثير من الموقوفين.

كان محققون عديدون يتناوبون على السهر. حاولت إقناعهم، كل واحد على حدة، بأني أعرف الكثير من المسؤولين السوريين وبأن وجودي في هذا المكان خطأ. قلت لأحدهم: «خيي شو بدك مني؟ شو تهمتي؟ ريحني وقللي شو عامل لحتى أرتاح. خيي اشنقني. خيي أنا أبو محمد الجولاني... أنا أمير جبهة النصرة:.. أنا شو ما بدك عامل... بس ريحني».

- إنت بتعرف شو عامل. بكرا بتعترف لحالك.
- يا خيي فهمني شو في. شو التهمة؟ بدي أعرف شو عامل. أنا صحافي معروف، وإذا بقيت هنا سترى صوري في الصحف وعلى الشاشات، وهذا لا يليق بالنظام الذي استدعاني واستضافني، وجئتم أنتم لاختطافي. فأجابني ببرود: «هيدي سهلة وحلها بسيط، منقول خطفوك المجموعات الإرهابية المسلحة».

في اليوم الأخير نادى عليّ المحقق الذي حقق معي في المرة الأولى. أخرج المضبوطات التي كانت في حوزتي من كيس، وقال: «هذه ساعة يدك؟ تلفوناتك؟ محفظتك؟ مصرياتك؟ مزبوطين؟». وأضاف: «إن شاء الله هلأ منطلع عند المعلم. انحلت قصتك».

- «بتقبل مني هدية؟»، سألته.
- ما هي؟
- الساعة والمصاري.

كنت مستعداً أن أمنحه أي شيء ثمناً لحريتي. سألته: «مين المعلم؟»، فأجاب: «هلأ بتعرف».

صعدنا من تحت الأرض إلى الطابق الأرضي ثم طابقين آخرين. في الضوء رأيت المحقق ضاحكاً للمرة الأولى. سألني عن مسقط رأسي، فقلت من جنوب لبنان. «يعني شيعي. أنا شيعي أيضاً من العقربية». سألته عن اسمه، فأجاب: بشير كارو.

- ليش عملتوا معي هيك؟
- في ابن حرام حاكي عنك شي. فيه إخبارية عنك، هلأ منشوف. بدك تتحمم؟ بدك تاكل؟.
- لا شكراً.
- طيب فوت غسّل.

غسلت وجهي، فسألني: «هل تريد أن تتعطر؟». أجبته بسخرية: «المعلم تبعولك بدو يضاجعني؟»، فلم يبد أي رد فعل.

مررت أمام لوحة تضم أسماء الضباط الذي تعاقبوا على الخدمة في الفرع، من بينهم كان اسم رستم غزالي. دخلنا إلى مكتب «المعلم». ضابط طويل وضخم، صافحني واحتضنني: «إن شاء الله ما حدا من الحيوانات اللي تحت قلل أدب معك؟». سألني.

- الحمد لله. أوادم الشباب.
- قل لي. قللوا أدب معك؟ غلطو معك؟.
- شو وقفت عليي؟ في ١٠٠ أو ٢٠٠ بني آدم عم يتمسح فيهن الأرض، وقفت على هاي القصة؟ عم يعملوا واجبن الشباب.

ابتسم المعلم، وسألني: «شو بتشرب؟».

- قهوة.
- هل تريد أن تأكل؟
- لا شكراً. قهوة وماء فقط.

لم يكلمني حتى حضرت القهوة. قال لي: «البنّ من إيران»، وراح يحدثني عن الزخارف الموجودة على فنجان القهوة، وكذلك على الركوة، فلم أُعلّق.

«شو عامل؟»، سألني.

- بالله عليك إنت خبرني شو أنا عامل؟.
- في إخبارية عليك، وإنو جايي ومعك أجهزة تجسس وبدك تصور مراكز حساسة إنت وصحافيين أجانب.
- أنا؟

- إيه
- غير صحيح.
- شو هو اللي مش صحيح؟ إنت مش كنت ناوي هيك تعمل؟
- التهمة مش صحيحة، وركبت معكن هيك.
- ليش؟
- أنا بشتغل بالصحافة الأمنية. لو في إخبارية صحيحة كنتو وقفتوني على الحدود، ما كنتو جبتوني من الأوتيل، بس ركبت هيك لحتى تبرروها وتجوا تقولوا ما في شي.

ضحك «المعلم» وقال لي: «والله منك قليل». فعقبت: «المنطق يقول هذا». وأضفت: «أو بدكن توصلوا رسالة عبري، وبدكن تفركولي دينتي، بس مش فهمان ليش».

«خلص سليمة، صحتك بالدنيا. وين نازل؟ خذ هذا رقم هاتفي. بكرا منتروق سوا ومنحكي»، قال وطلب من ثلاثة من رجال الأمن أن يوصلوني إلى الفندق، ثم قال إنه سيزودني برقم هاتف سوري.

وصلت إلى الفندق. كنت أشعر بالقرف. اتصلت بصديقي الذي كان قد حجز لي في الفندق وبرئيس تحرير «الأخبار» إبراهيم الأمين وأبلغتهما أنني خرجت، وأنني أريد أن أغادر سوريا فوراً. كانت الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. حاول صديقي ثنيي عن قراري: «ما حدا بيسترجي يضهر بهيدا الوقت. انطر للصبح». أجبته بلهجة حاسمة: «ما في مجال. أنا قرفان من هالبلد ولن أبقى لحظة».

حضر صديقي في سيارة أجرة بصحبة شابين وأوصلوني إلى الحدود. في عاليه عاودت الاتصال بالأمين وأبلغته بوصولي. نمت حتى وقت متأخر من نهار اليوم التالي. أيقظني أخي الأصغر قائلاً: «دقت رفيقتك وقالت إنك مخطوف بسوريا. انحط خبر عاجل إنه خطفوك مسلحين».

في الجريدة، علمت أنهم لم يكونوا على علم بتوقيفي إلى أن تلقّى زميلي حسن عليق اتصالاً من شخص يقيم في السعودية يبلغهم أنني موقوف لدى الأمن السوري. كان صديقي السوري قد اتصل بقريبه المقيم في السعودية وطلب منه إبلاغ زملائي في بيروت خوفاً من أن يُرصد اتصاله من دمشق. تم الاتصال بالقصر الجمهوري في سوريا فجاء الجواب: «ليس عندنا. خطفته المجموعات المسلحة». وعلمت لاحقاً أنهم بذلوا جهداً لأيام حتى عرفوا مكاني.

بعد خروجي اتصل بي مستشار الرئيس بشار الأسد، العميد حسام سكر، معتذراً، وقال: «أهلاً وسهلاً فيك ببلدك سوريا». بعد الاتصال أسرعت إلى الشرفة. بحثت عن القفص. فتحت بابه وقبضت بلطف على عصفور الكناري. مددت يدي ثم فتحتها، نظر إليّ للحظة، ثم حلّق بعيداً. لم أكن أدري أي حدود سيختار، ولم أدر إن كان سيعتاد الحياة الجديدة خارج القفص، لكنني كنت واثقاً أنه أكثر سعادة، لأنه ينعم بالحرية.

الإمام علي في منزل «جهادي عتيق»

شكّلت عملية خطف الأستونيين السبعة الذين كانوا في رحلة على متن دراجات هوائية في إحدى بلدات البقاع، في آذار ٢٠١١، باباً أساسياً من أبواب تمويل الخلايا الأولى لتنظيم «القاعدة». ورغم توقيف الأمن اللبناني للعقل المدبّر لعملية الخطف حسين الحجيري (خرج في صفقة تبادل مع «جبهة النصرة» في شهر كانون الأول من العام ٢٠١٥ التي أُطلق بموجبها عسكريون لبنانيون خطفتهم الجبهة)، فقد بيّنت المعطيات أنّ المدعو «أبو محمد الشامي» المعروف بـ«العبسي»، أحد أمراء تنظيم «القاعدة في بلاد الشام»، كان رجل الظلّ والمخطط الحقيقي لعملية الخطف التي درّت ملايين الدولارات (بين ٤ و٧ ملايين دولار) من أموال الفدية التي دفعتها الحكومة الفرنسية. وإلى «العبسي»، كان من أبرز الأسماء المتورطة وائل عباس، حسين حجيري، نبيل جلول، وآخرون.

بعد فترة قبض على وائل عباس في قطر بمحض المصادفة، أي بعد ثمانية أشهر على عملية الخطف في تشرين الثاني العام ٢٠١١. إذ إنه، لدى وجوده في مطار الدوحة، أشعل سيجارة، وحين طلب منه

إطفاؤها لم يمتثل فأوقف، ولدى التدقيق تبين أن جواز سفره مزوّر فاعتقل وسلم إلى دمشق.

أخبرني أحد المشاركين في الخطف، أنه عندما جرى اختطاف الأستونيين، لم يكن من المتوقع أن يكون عددهم كبيراً، لكن اللافت أن العملية نفذت. صحيح أن كل فرد من الخاطفين قد أخذ حصته، ولكن المبلغ الأساسي ذهب إلى القاعدة، وهي كانت وراء خطفهم، فهي تستفيد كثيراً من موضوع الفدية.

الرأس المدبر لعملية الخطف كان «أبو محمد العبسي» التي يتسلم أحد المعابر الحدودية بين تركيا وسوريا. عند تسلّمه المعبر بدأ يأخذ نسبة من السلاح الداخل إلى سوريا، ثم يشتبك مع كتيبة الفاروق المحسوبة على تركيا، وهو ضد الأتراك وضد أي نظام، والعبسي كان في لبنان في مخيم عين الحلوة عند الشيخ أسامة الشهابي، على ما أذكر.

العبسي كان قيادياً مهماً في القاعدة، إلا أن كتيبة الفاروق قامت بخطفه وقتله لاحقاً، ضمن ما قد نسميه «صراع الإخوة». أما بشأن نبيل جلول وإسماعيل الخطيب فقد كانت قصتهما مختلفة. الثاني كان أميراً من بلاد الشام مكلفاً الإشراف على تجنيد المقاتلين للقتال في العراق لمقاومة الأميركيين، لكنه أوقف ثم توفي تحت التعذيب في فرع المعلومات. أما جلول، فقد أوقف سابقاً بين العامين ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨؛ وبعد خروجه راح يعمل في شبكة تزوير، وتكونت لديه مجموعة في جرد مجدل عنجر. جلول كان صديقاً لـ«أبو محمد اللبناني» (المسؤول

الأمني لأبو مصعب الزرقاوي). في الفترة الأخيرة صار محل شبهة من قبل الجهاديين، واعتبروه يعمل مع الأجهزة، أو مع سرايا المقاومة. وفي لقائي معه قدم لي نفسه أنه أحد أنصار الدولة الإسلامية. جلست معه في مجدل عنجر. كان شخصاً ذا لحية خفيفة حاملاً سيجارة. أكثر ما لفتني في منزله سيف الإمام علي وراية القاعدة. قلت له «قد يخالك المرء شيعياً بسبب هذا السيف»، فأجاب: «ومن قال إن علياً بن أبي طالب للشيعة؟ الكرار هو أحد الأسماء المكنى بها أميرنا أبو بكر البغدادي. فعلي بن أبي طالب هو لنا، علي الإنسان الذي يخطئ ويصيب وليس الإله الذي يعبده الشيعة». عرف الرجل أنني وصديقي المرافق لي من الشيعة، فنده لأحدهم فقال «ناولونا السكينة» فقلت «بدك تطول بالك كرمال صحتك»، حتى ضحك الجميع.

دقائق وطرق الباب. دخل شخص لديه بطاقات دخول لسوريين. عندها سحب مضيفُنا من تحت «الفيترينا» ومن داخل صندوقة ختماً لإنجاز المعاملة. كان يقبض على كل ختم مبلغاً من المال. ثم بعد ذلك بوقت قصير، قرع الباب ليدخل شخص آخر يطلب قنبلتين فينهض الرجل ليجلب له ما يريد. وهكذا أيضاً دخل علينا شخص ثالث لديه بطاقة هوية بحاجة إلى ترميم وتصليح. فقال له مضيفنا «لا بأس، تعال بعد يومين». الرجل المزور من المستوى الأول، أكد لي أنه مبايع لأبي بكر البغدادي، لكنه كان مدخّناً، إلا أنه رفض أن يتصور مع السيجارة.

قال لي الرجل حينذاك إن «أهل السنّة في لبنان ضعاف

ومتخاذلين». وعندما سألته عن السبب أجابني «ليسوا يداً واحدة، في حين الشيعة أكثر تماسكاً. كان أبو محمد (تقبله الله) يقول إنه يستحيل أن يقوم السنّة في لبنان ويغيروا النظام فيه. كان دائماً يقول إننا بحاجة إلى قوة قاهرة من الخارج تأتي إلى لبنان لتفرض النظام الإسلامي، عندها يقوم السنّة معها، وتقوى شوكتهم، أما غير ذلك فلن تقوم لهم قائمة».

بعد خمسة أشهر تم توقيف الرجل ضمن عداد شبكة تزوير. أذكر جيداً أن الشيخ محسن شعبان ساعدني في غير قضية وأمّن تواصلي بعدة مشايخ. هذا الشيخ الذي أصبح فيما بعد، مفاوضاً مكلفاً من الدولة اللبنانية مع «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية». هذا الشاب، ابن بلدة سعدنايل، هو الذي جلب جثة الرقيب علي السيد الذي ذُبح بعد اختطافه. حفر شعبان بيديه القبر ليستخرج الجثة.

الوسيط الذي ذهب «فرق عملة»!

حَفَر محسن شعبان قبر الشهيد علي السيد، العسكري الذي أعدمه تنظيم «الدولة الإسلامية» في القلمون، بيديه ليلاً، لينتشل جثة الشهيد كي يُعيدها إلى أهله، بعد موافقة التنظيم المتشدد على تسليمه إياها. في إحدى المرات، حكى شعبان عن رهبته لدى بدء الحفر، بعد نجاحه مع الوسيط الذي يرافقه في إقناع أمير التنظيم بتسليمهما الجثة، بعد شهر من المفاوضات الشاقة.

روى شعبان، الشيخ الذي خلع الزيّ الديني ليتحوّل إلى ناشط إعلامي وإغاثي، كيف تهيّب الأمر بعدما تركه عناصر التنظيم يحفر الأرض وحيداً، ثم ضاعف جهده بعدما تذكّر والدة العسكري. لم يكن ذلك إنجازه الوحيد.

مع بدء مأساة العسكريين المخطوفين لدى تنظيم «جبهة النصرة» في آب العام ٢٠١٣، لعب دور الوسيط في هذا الملف بعد تكليفه من قبل هيئة علماء المسلمين، فنجح في إطلاق سراح عسكريين اثنين في بداية المفاوضات، وسلمهما إلى استخبارات الجيش في البقاع. كذلك انتقل إلى الأردن لحل أزمة سائقي الشاحنات العالقين على

الوسيط محسن شعبان الذي انتشل بيديه جثة عسكري قتله تنظيم الدولة الإسلامية

الحدود، بالتعاون مع اتحاد العشائر العربية ورئيسه في لبنان الشيخ جاسم العسكر. هذا جزء يسير ممّا في رصيد الرجل الذي يُمكن قوله الآن، لا سيما أنّ «الشيخ محسن» كان يعمل بصمت بعيداً عن الضجيج الإعلامي والتزلّف للسياسيين.

لا يُنكر أحد وجود علاقة تربط شعبان بالتنظيمات المتشددة. ربما هي البيئة التي نشأ فيها أو القرابة العشائرية التي ربطته بعدد من قادة التنظيمات المنتمين إلى عشيرته اللويس. غير أنّ أحداً لا يمكنه القول إنّ الرجل متشدد أو تكفيري. صداقاته مع الجميع ونمط حياته يؤكدان انفتاحه. في إحدى جلسات المحاكمة، وقف محسن شعبان ـ

الذي شغل لفترة منصب المستشار الإعلامي للشيخ أحمد الأسير في البقاع الأوسط بتزكية من مفتي البقاع خليل الميس ـ أمام هيئة المحكمة العسكرية قائلاً: «أنا اصطحبت الشيخ أحمد الأسير إلى سوريا. ومن جوسيه والقصير، أحضرت معه السلاح. نعم هذا صحيح. ذهبت معه وجئنا بالسلاح، لكن بمواكبة سيارات قوى الأمن الداخلي وفرع المعلومات في طريق الذهاب، وكانوا موجودين حتى عندما عُدنا». وأضاف: «رأيت سيارات قوى الأمن ترافقنا. وقبلها كان وزير داخلية لبنان مروان شربل يزور الأسير، وصرّح للإعلام بأنّه مع تسلّح الأسير لقتال العدو الإسرائيلي. ماذا تُريدون مني أمام ذلك؟ كانت الأمور شرعية، ولهذه الغاية خرجت معه. ويوم وجّه سلاحه ضد الجيش، تركته وانسحبت». إفادة شعبان أمام العسكرية بدت أقرب إلى مرافعة دافع فيها عن نفسه، علماً بأنّه سبق أن أوقف لمدة ثلاثة أشهر قبل أن يُخلى سبيله. شعبان كان بين قلة من الذين أُخلي سبيلهم في ملف معارك عبرا. ورغم أنّه لم يكن ممنوعاً من السفر، فإنه لم يترك البلاد، بل حرص على حضور معظم جلسات المحاكمة.

وقد حُكم على شعبان بالسجن لمدة سنة. حُكمٌ لم يكن متوقعاً. ورغم أنّ البعض قد يعدّه مخفّفاً نسبة إلى بقية الأحكام، إلا أنه قاسٍ في حق شعبان الذي لعب دوراً إيجابياً في عدد من الملفات العالقة، وأبرزها ملف العسكريين المخطوفين.

دعوة لزيارة عاصمة «الدولة الإسلامية»

في عرسال تعرفت إلى «أبو القاسم العدناني». رجل طويل وضعيف البنية، كان في صفوف «جبهة النصرة» قبل أن يلتحق بـ«الدولة الإسلامية». تواصلت معه غير مرة، خصوصاً بعد توقيف ماجد الماجد في كانون الثاني عام ٢٠١٤. في أحد الاتصالات طلب مني التحدث مع شخص كان برفقته. سألني الأخير: «كيف تم توقيف الماجد؟»، فأجبته: «لا أعرف تحديداً. شغل مخابرات». فقال: «لدينا معلومات بأن ممرضاً في مستشفى المقاصد صوّر الشيخ وأبلغ الأجهزة الأمنية. هل يمكنك مساعدتنا؟». شعرت بالرعب، إذ من المؤكد أنه سيتم قتل هذا الشخص، فأجبته: «إن شاء الله. لا أعلم شيئاً، ولكن سأحاول». فيما بعد، تبيّن لي أنّ هذا الشخص هو «أبو عائشة اللبناني».

بعد سقوط القلمون انتقل «أبو القاسم» إلى حمص، ومنها إلى الرقة. بقينا على تواصل، ووصلني بكل من «أبو لقمان الألماني» و«أبوطلحة الألماني»، والأخير مغني راب معروف. شعرت بأن «أبو القاسم» يحاول «الشغل» عليّ فكرياً. كانت اتصالاتنا تتم غالباً في أوقات متأخرة. في أحدها قال لي: «أخونا رضوان. نحن دائماً ندردش

أخباراً، ولكننا لم نتكلم في أي مرة على المستوى الشخصي». ثم سألني: «هل تصلّي؟ أعرف أن أغلب اللبنانيين لا يُصلّون»، فأجبت: «طبعاً».

- لا تخجل، قل لي بصراحة.
- بالتأكيد أُصلّي، ولا تعتبرني لبنانياً.
- الحمد لله، ماذا تعرف عن دينك؟
- لست متديّناً، لكنني أصلي وأصوم ولا أرتكب محرمات.
- لا يكفي، سأرسل إليك بعض الكتب. هل تعرف نواقض الإسلام العشر التي تدخل المسلم في الكفر؟

وبالفعل، أرسل إليّ لاحقاً كتاب «نواقض الإسلام في العصر الحديث»، وتبيّن لي عندما قرأته أن كل كلمة توقع في الكفر. كما أرسل إليّ كتباً أخرى كنا نناقش مضمونها في اتصالاتنا.

في إحدى المرات عرض عليّ «إن أردت أن تأتي إلى الرقة كصحافي أخبرني حتى أحصل لك على إذن». وبعد أيام، اتصل بي ليزفّ إليّ «بشارة» موافقة «الأمير» على دخولي أراضي «دولة الإسلام». وفي كل مرة كان يذكّرني بالدعوة، كنت أماطل في الإجابة. في زيارة لي إلى مجدل عنجر للقاء أعضاء في «جبهة النصرة»، صودف أن اثنين منهم يعرفان «أبو القاسم»، فأخبرتهما عن دعوته لي إلى الرقة. قال أحدهما: «لا تذهب». سألته: «لماذا؟»، فأجاب: «لا تثق به. هل تدري أن للدولة الإسلامية باباً فقهياً وشرعياً اسمه قتل المصلحة؟ إذا

كانت للدولة مصلحة في الخطف أو القتل فسيفعلون، وهم في ذلك يختلفون عن النصرة والقاعدة. إذا كنت تنوي الذهاب يمكنني ترتيب الزيارة لك عبر «أبو سليمان البغدادي» (شقيق سجى الدليمي طليقة البغدادي)».

أدّى ذلك إلى زيادة ريبتي، لكن كلما كان «أبو القاسم» يلحّ عليّ مذكّراً بالدعوة، كنت أتملص منه بذرائع شتى. في وقت لاحق، تم ترتيب زيارة إلى الرقة لصحافي ألماني وغيره، فتواصلت مع «أبو عبيدة» في «الدولة الإسلامية» للحصول على إذن لي. لكن الشاب اختفى بعد ذلك بنحو شهر في سجن تابع لـ«الدولة الإسلامية» بتهمة التخابر مع صحافيين أجانب.

عماد مغنية في باب التبانة

كانت طرابلس المحطة الثانية، بعد مخيم عين الحلوة، التي بدأت العمل فيها على استكشاف بيئة الجهاديين. استخدمت لفترة مكتب جريدة «الأخبار» في عاصمة الشمال مكاناً للكتابة والنوم والاستراحة. ثم استأجرت منزلاً بإيجارٍ زهيد وعشت مع الناس. أردت أن أكون كأي «طرابلسي» مقيم في المدينة. صرت أنزل لتأدية صلاة الصبح في المسجد. أتناول الفطور عند الفوّال وأتغذى في أحد المطاعم الصغيرة في باب التبانة. أردت أن أكون ابن طرابلس كي أتمكن من فهمهم والكتابة عنهم. الدافع إلى ذلك كان اكتشاف حقيقة ما يقال عن أهالي الشمال. أن أتعرف إلى طبيعة الناس، وإلا كيف أكتب عن أشخاص لا أعرفهم؟ هل أركن إلى ما يبثه الإعلام؟ لا. توصلت إلى خلاصة أنه من الطبيعي أن يكون ابن باب التبانة أميراً في تنظيم القاعدة، وأن يكون ابن الضاحية الجنوبية في حزب الله. فالتلفاز في طرابلس كان يعرض مشاهد عن سوريا وعن الأطفال الذين قتلوا في القصف، فيما عناصر الجيش الحر يبكون. هذه المشاهد المتكررة ستفضي إلى كراهية.

هكذا بدأت البحث عن الشمال وتاريخه والشخصيات البارزة

فيه، ومن هذه الشخصيات روجيه نبعة. عُدت إلى أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات. روجيه نبعة، كان له التأثير الأساسي في التأسيس للثورة في طرابلس. كان يقال عن التبانة إنها ولّادة للثورات. اكتشفت أنه في الثمانينيات، مرت من هنا حركة فتح، وكانت على علاقة جيدة بإيران، في حين لم تكن علاقة إيران جيدة بالنظام السوري. عند الاجتياح السوري للشمال ولطرابلس للقضاء على إمارة حركة التوحيد، اختطف عماد مغنية ثلاثة دبلوماسيين روساً وهدد بإعدامهم، للضغط لوقف الاجتياح السوري خلال ٢٤ ساعة، لكنه لاحقاً قام بقتل إحدى الرهائن ورمى الجثة في نهر بيروت.

درس نبعة في فرنسا دكتوراه في علم الاجتماع، ثم انتقل إلى مساعدة الثوار الجزائريين. نقل السلاح وتعلم التفخيخ والتفجير، وصار يساعد الثوار. يتذكر حادثة عندما كان في فرنسا، حيث هاجتمه مجموعة فرنسية لأنه عربي (حرف العين في اسمه)، فدافع عنه شاب لبناني آخر من آل زعيتر، فهم أنه ضُرب لأنه عربي، وثار على هذا الشيء. فتعلم العربية وأتى إلى بيروت مع حركة فتح وعمل في الإرشاد السياسي. أوفدته حركة فتح إلى الشمال، إلى باب التبانة تحديداً وصار اسمه عاصي. اختار هذا الاسم كي يكون مقبولاً في بيئة المسلمين، باعتبار أنّ اسم عاصي لا صبغة دينية له على عكس روجيه. من الغرفة الصغيرة التي استأجرها في سوق باب التبانة، بدأ يراقب الناس ويحاول فهمهم لمعرفة كيف يفكرون. كانت البلديات ناشطة في تلك الفترة،

حيث يمكن أن يُعقد اجتماع من أجل حل مشكلة النفايات. فوجد، بمزيد من التأمل، أن الناس مشغولون بالتفاصيل في حين أنّ ما يحصل في البلد أكبر من ذلك. صار نبعة يكلم الناس بالماوية والماركسية ولا أحد يفهم، ففهم بأن عليه السكوت، وهذا ما فعله. عندها بات يراقب الوضع لينتقي مجموعة من الأشخاص كانوا برأيه مشاريع قادة فعمل على استقطابهم، ومن بينهم كان خليل عكاوي (أبو عربي)، سمير الحسن، بلال مطر، وشخص رابع. كان يجهد لتقريبهم منه ثقافياً وفكرياً، ويعطيهم كتب كارل ماكس، ماو تسي تونغ، فيثقفهم، رغم أنهم لم يكملوا تعليمهم، أكثرهم كاريزما كان أبو عربي (وصل في دراسته إلى الصف الخامس الابتدائي)، الذي كان يملك فرناً للمناقيش في الحارة الفقيرة. وجد نبعة أن الأبرز هو خليل عكاوي وركز عليه على أنه القائد. كان هذا الشاب من فتوّات باب التبانة، كما أنّه كان شقيق علي عكاوي، أحد قبضايات باب التبّانة الذي أوقفته القوى الأمنية ليُتوفّى في ظروف غامضة أثناء وجوده في الاحتجاز. وقد اتُّهمت الأجهزة الأمنية اللبنانية بتصفيته يومذاك.

هؤلاء الشبان الذين اختارهم نبعة كانوا نواة الثورة التي يخطط لها. أخضعهم لتدريبات عسكرية وثقافية، لكنهم كادوا ينفضون من حوله لاعتقادهم أنّه شخص منظّر لا يعمل. هنا قال نبعة ماذا تريدون؟ «نسرق بنك» ردوا. قال «أوكي». فخخوا البنك وسرقوه بعد أن علمهم روجيه ذلك، فصاروا جميعهم في عداد المطلوبين

للعدالة. اختبأوا بعدها في أحد المخيمات قبل أن يعودوا إلى الظهور مجدداً. أنشأ هؤلاء الشبان لجاناً للأحياء ولم يلبثوا أن حوّلوا التسمية إلى «لجان الأحياء والمساجد» على وقع انتصار الثورة الإسلامية في إيران وتصديرها. أطلقوا اللحى ليُضفوا المصطلحات الدينية والآيات القرآنية على خطاباتهم. هذه الثورة تأثّرت بها الحركات التحررية في العالم، من بينها كانت حركة التوحيد الإسلامي. تدرّج الشبان المذكورون في «حركة التوحيد الإسلامي» ليُصبحوا أمراء فيها. هنا انكفأ روجيه نبعة بعد زحف الفكر الإسلامي إلى شبابه. تسارعت الأحداث في طرابلس. أنهت حركة التوحيد وجود التيارات اليسارية في طرابلس قبل أن يجتاح الجيش السوري عاصمة المسلمين ليفكك إمارة التوحيد الإسلامي. اغتيل «أبو عربي» في ٩ شباط عام ١٩٨٦، فيما أسس صديقه سمير الحسن «حركة ٩ شباط» للانتقام من قتلة رفيق دربه قبل أن يُعتقل ليقضي في السجون السورية أحد عشر عاماً.

كما في السبعينيات والثمانينيات كذلك اليوم، لا تزال الطريق إلى المنطقة الأكثر اشتعالاً في لبنان بحراً من الألغاز. مُسمّياتٌ تحاول سبر أغوارها، فتضيع في تاريخها. التاريخ نفسه يُرسم تبعاً لأهواء رواة يتطوعون للإجابة. لكلٍّ منهم حكاية. هنا نهر أبو علي ومدافن الغرباء وسوق الخضار. الأخير حوّل الأول إلى مكب نفايات، لكنه لم يمحُ تاريخه ولم يُلغه. يختلف الرواة حول أصل تسميته، علماً أنه يُعرف خارج المدينة باسم قاديشا، ويفصل القبّة عن أبي سمراء. يتردد أنه

سُمّي «أبو علي» نسبة إلى أحد ولاة المدينة من بني عمار، فيما يؤكّد آخرون أنه استمد كنيته من قوّة طوفانه الذي أتى على الحجر والبشر غير مرة، والتسمية لدى العامّة تدلّ على القوة. حكاية النهر وسوق الخضر لا تختلف كثيراً عن حكاية باب التبانة. للمنطقة الصغيرة المساحة جذورٌ تضرب في عمق التاريخ. قوّة طوفان النهر شبيهة بقوة روح الثورة التي يعيشها أبناء هذه المنطقة التي سُمّيت يوماً «بوابة الذهب». كان ذلك عندما كانت محطةً لقوافل التجار السوريين. باب التبّانة الأمس تختلف عن اليوم، تاريخٌ طويل يفصل بين الاثنتين. تبّانة اليوم حمّالة أوجه، تارة تكون خط تماس وأرض معركة وقذيفة إنيرغا وغلياناً طائفياً، وتارة أخرى فقراً مدقعاً وبطالة قاتلة.

تاريخٌ ورمز وثأر قديم

تعيش التبّانة أيامها على ذكرى القائد خليل عكاوي المعروف بـ«أبو عربي». رمزٌ يُجمع عليه يساريو التبانة وإسلاميوها، وحتى مرتزقتها. لا يكاد يخلو حائط هنا من صورة «الشهيد أبو عربي»، الشقيق الأصغر لزعيم المنطقة علي عكاوي خلال السبعينيات. ذكرى مقتل القائد تختلط بجرح ثأر لم يلتئم. والمتهم في كلتا الحالتين النظام السوري. يسترجع أبناء التبانة ذكرى يومٍ من أيام العام ١٩٨٦. يحكون عن يوم المجزرة «التي سقط فيها ألفا قتيل من أبنائهم، فضلاً عن المعتقلين». هكذا يُنكأ الجرح. ينطلق أبناء المنطقة المحرومة من هاتين الحادثتين، فيخلصون إلى تورّط الحزب العربي الديمقراطي

باغتيال علي عيد. يخلصون بعدها إلى نتيجة تبيح الثأر: «الدم يستسقي الدم ولن نهدأ قبل القضاء عليهم عن آخرهم». «هم» التي يصبّ أبناء التبانة الغضب عليها تعني أحياناً آل عيد وحدهم، وتتعدّاهم أحياناً أخرى لتشمل جميع العلويين. العلويون الذين باتوا يسمّون هنا، اليوم، «النصيريين». الموقف الانفعالي الذي يُظهره بعض أبناء التبانة للوهلة الأولى، «ينفّسه» بعض العقلاء الذين يحصرون الصراع بآل عيد، ويلقون باللائمة على سعد الحريري وعمر كرامي والمفتي مالك الشعّار الذين «جعلوا من عيد مرجعية العلويين في اجتماع العام ٢٠٠٨، علماً أن في الطائفة العلوية شخصيات محترمة». لكنهم، في الوقت نفسه، يتراجعون ليقولوا: «الصراع سياسي تُديره أجهزة أمنية. ونحن أدوات تُحرّكنا كما تحرّك بيادق الشطرنج».

ميدان التبّانة العسكري

لا تُشبه صورة النزاع هنا انعكاساتها في مرآة السياسة. تُقسم التبّانة إلى محاور يتناتشها فريقا الثامن والرابع عشر من آذار. الفريقان السياسيان اللذان نشآ عقب التظاهرتين الشهيرتين في وسط بيروت إثر اغتيال رئيس الحكومة الأسبق رفيق الحريري عام ٢٠٠٥. ينسب كلٌ من هؤلاء كفة القوة الراجحة لنفسه. ففيما يؤكد قياديون ميدانيون أن المجموعات الإسلامية التابعة للشيخ حسام الصبّاغ هي الأقوى على الأرض، يشدّد مقاتلون مناصرون لقوى الثامن من آذار بأنهم الأكثر تسليحاً، كمّاً ونوعاً، باعتبار أن سلاحهم مصدره حزب الله. وبين

الاثنين، هناك من يؤكّد أن «كلاً في حيّه صيّاح». لكن الانقسام في التبانة سرعان ما يتلاشى لمجرّد وقوع اشتباك مع جبل محسن. يتّحد الجميع خلف البندقية السنّية ضد الجبل العلوي، علماً أن بين سنّة التبانة مقاتلين علويين. إزاء هذه التموضعات، لا يبدو السؤال عبثياً عن سبب استمرار اشتعال جبهة التبانة ـ جبل محسن؟ لا جواب مقنعاً هنا. أبناء المنطقة، المقاتلون منهم والعُزّل، لا يعرفون سبباً واضحاً، لكنهم بالتأكيد يعلمون موعد كل معركة قبل وقوعها، لا يضيرهم القول: «هكذا يُراد أن يحصل». ولكن، رغم ذلك، فإنهم، دائماً يلقون باللوم على أهل الجبل ببدء المعارك.

الاقتصاد يطغى على الإيديولوجيا

تكاد البطالة تكون السمة الأبرز التي تدمغ معظم أبناء منطقة التبانة. تتكرر إجابة «أنا عاطل عن العمل» إلى درجة تخال أنها الجواب الأوحد هنا، باستثناء بعض أصحاب الحرف والعمّال وبائعي الخضار. إزاء ذلك، تسهل مهمة المنتفعين من الفتنة الذين يشقّون دربهم عبر جيوب سكان التبانة الفقراء. هنا تكثر الشيكات التي لا تتجاوز أرقامها المئتين والثلاثمئة دولار، توزّع على العاطلين من العمل شهرياً، أو عقب كل مواجهة، لتكون بنادقهم جاهزة عند قرع طبول المواجهة المقبلة. أما الذخيرة، فينقسم مقاتلو التبانة حول هويتها. يقول أحدهم إنّ لكل معركة ذخيرتها. وكما يأتي المولود وتأتي رزقته معه تأتي الذخيرة. لا بل تصل سيارة الذخيرة قبل بدء المعركة حتى. فيما تبلغ

الرومانسية التي لا تصدّق بالبعض حد القول: «ندفع من جيوبنا ثمن الرصاص»!

رؤية للحل

يتّفق أبناء التبّانة على مسلّمة مفادها أن السياسيين لا يريدون لمنطقتهم أن تهدأ. يتساءلون عن السبب الذي يحول دون دخول أي من القيادات الإسلامية والسياسية على خط المصالحات. يطرح هؤلاء رؤية للحل، تبدأ بعقد مؤتمر مصالحة تشارك فيه مختلف الأطياف السياسية والدينية. تسبقها تعويضات للسجناء الذين قضوا فترات التوقيف في السجون السورية أسوة بالمعتقلين الذين كانوا في السجون الإسرائيلية. يطرح هؤلاء المسألة الأكثر أهمية: إيجاد حل لمشكلة البطالة المستشرية في أوساط الشباب، لا بل في جميع الأوساط العمرية. حل هذه المشكلة لن يجعل أحداً ينتظر ورقة المئة دولار ثمناً للمشاركة في هذه المعركة أو تلك. لكن الحلّ لدى هؤلاء لن يكتمل إلا... بطرد آل عيد من الجبل!

التبّانة على هدى الثورة السورية

قلّما تجد رجلاً في التبانة، إلا وقد خسر أخاً أو أباً أو ابناً بـ«رصاصٍ سوري أو علوي»، أو ذاق السجن في «سجون النظام السوري» لسنّين عديدة. وهنا مربط الفرس. ينطلق معظم القاطنين في التبّانة من بديهة العداء المطلق للنظام السوري. يتّحدون في هذا الموقف الجامع. هكذا

تعيش التبانة أيامها على إيقاع «الثورة». خطب المساجد هنا تحكي عن النصرة والجهاد. عبارات «إخوتنا في الدين يُقتلون ويُذبحون» تستثير العواطف. أعلام «الثورة» السورية تُرفع فوق المحال. والنازحون السوريون يملأون شوارع المنطقة المحتقنة. هنا يتولى رجال الدين توزيع المساعدات وتوفير السكن للهاربين من جحيم المعارك. ليس هذا فحسب، يحكي بعضهم عن تسلل مجموعاتٍ مسلّحة منهم للمشاركة في «الجهاد» ثم العودة. هنا تعلم أن وليد البستاني، مقاتل «فتح الإسلام» السابق الذي فرّ من سجن رومية وأعدمه معارضون إسلاميون سوريون، كان يوماً أحد أبناء التبّانة.

موعد دائم مع الإرهاب

على إيقاع الأحداث السورية، ارتفع منسوب الاحتقان في لبنان، وصُبغت مدن وبلدات عدة بالإرهاب. من بينها طرابلس التي ذهب بعض وسائل الإعلام إلى إطلاق تسمية «عاصمة الإرهاب» عليها. قبل ذلك، كانت منطقة وادي خالد قاعدة متقدمة لـ«الجيش السوري الحرّ»، ثم التحقت بهما، في مرحلة لاحقة، كل من مجدل عنجر وعرسال. الأولى لأنها، ببساطة، منطقة حدودية تُستخدم في تهريب الأشخاص والسلاح. والثانية تحولت إلى رمز للإسلاميين كونها مسقط رأس القياديين في تنظيم «القاعدة» إسماعيل الخطيب ومصطفى رمضان. الأول أوقف في شهر أيار العام ٢٠٠٤ بتهمة تفجير سفارات أجنبية في بيروت وحيازة أسلحة ومتفجرات وإرسال مقاتلين إلى العراق، ولم يلبث أن تُوفي تحت التعذيب في أيلول من العام نفسه. فيما الثاني هو الجهادي المشهور بـ«أبو محمد اللبناني» الذي قدِم من الدانمارك حيث عاش لمدة طويلة، وكان عضواً في التنظيم الجهادي الأبرز في أفغانستان الذي كان «العلامة الفارقة» لدى جهاديي البقاع اللبناني، لكنه توجّه إلى العراق، وأصبح لاحقاً مساعداً لأمير «قاعدة الجهاد

في بلاد الرافدين» أبي مصعب الزرقاوي، قبل أن يُقتل أمام سجن «أبو غريب» خلال مواجهة مع القوات الأميركية مع رفيقه أبو أنس الشامي (مفتي «القاعدة» في العراق).

لقد بُني مجد مجدل عنجر على أنقاض أحداث سير الضنية التي وقعت عام ٢٠٠٠، عندما حاولت مجموعات تدور في فلك «القاعدة» بناء نواة إمارة في جرود بلدة الضنية في شمال لبنان. كان هؤلاء ثمرة بذرة الجهاد في أفغانستان. بسام كنج (أبو عائشة) أحد الذين قاتلوا في أفغانستان ضد «الكفار الشيوعيين»، والذين عُرفوا فيما بعد بـ«الأفغان العرب». غادر أفغانستان إلى الولايات المتحدة، قبل أن يعود إلى لبنان حيث وجد أن المسلمين في لبنان «مضطهدون»، فشكّل مجموعة مسلحة اتخذت من جرود الضنية مقراً للتدريب وتأسيس نواة إمارة إسلامية. وصلت إلى استخبارات الجيش معلومات تتحدث عن إنشاء مخيمات تدريبية لمجموعة من المسلحين يتدرب أفرادها على استعمال الأسلحة الرشاشة والمتوسطة في جبال الضنية. شرارة المعركة بدأت عقب أسر المقدم في الجيش ميلاد الندّاف وقتل عسكريين في اليوم الأخير من عام ١٩٩٩. وفي الأيام الأربعة بين ٣١ كانون الأول عام ١٩٩٩ والثالث من كانون الثاني عام ٢٠٠٠، دارت رحى المعركة التي قتل فيها «أبو عائشة» وقُضي على مجموعته المسلحة. انطلقت بعدها حملة اعتقالات لتوقيف المرتبطين بأفراد مجموعة كنج، ليبدأ بعد ذلك ما عُرف بقضية «موقوفي الضنية» الذين خرجوا بعفو سياسي

عام ٢٠٠٥. هذه القضية كانت نقطة التحوّل الذي بنى عليه أهل المدينة مظلوميتهم، منذ الدخول السوري إلى لبنان وصولاً إلى ما يسمّونه بطش الأجهزة الأمنية اللبنانية. في طرابلس، القصة مختلفة. يُحكى عن فخ نُصب لمجموعة «أبي عائشة» التي أُبيدت عن بكرة أبيها في الجرود.

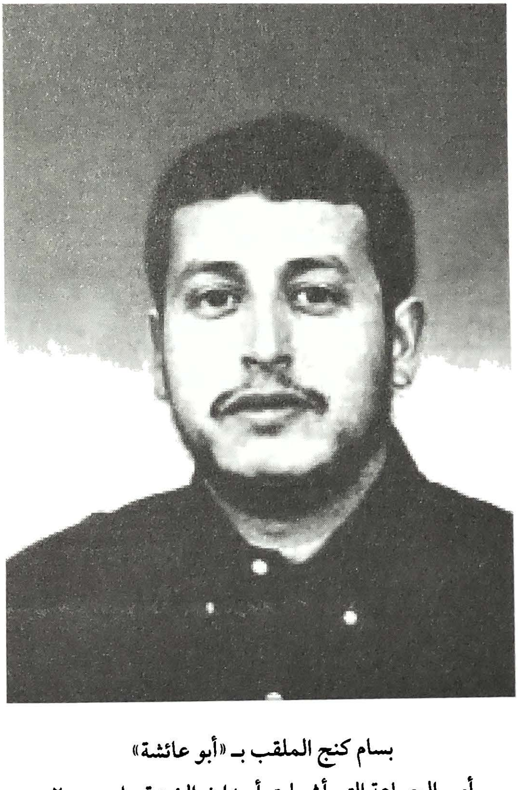

بسام كنج الملقب بـ «أبو عائشة»
أمير الجماعة التي أشعلت أحداث الضنية عام ٢٠٠٠

رغم أن السلفيين قلة بين سكان «قلعة المسلمين»، إلا أن صبغة الإرهاب أُلصقت بعاصمة الشمال. هنا لا يُشبه السلفيون أنفسهم. أصحاب اللحى الطويلة والشوارب المحفوفة يميّزون بين بعضهم: فـ«ليس كلُّ سلفيٍّ سلفياً». يشكو هؤلاء من نظرة سلبية تجاههم، ويتقاذفون تُهم المسؤولية. في طرابلس، يُحكى عن ثلاثة أنواع من السلفيين: متشدّدون ومنفتحون ومرتزقة. فأن تقول سلفياً في الإعلام، فذلك يعني أنّ المتلقين سيستحضرون صورة ملتحٍ يستلُّ سيفاً يتهيّأ ليضرب به عنق أحدهم أو ليذبح آخر. أن تقول سلفياً في مجتمع غير إسلامي، فإنّك تستحضر إلى أذهان أبنائه تفجيرات انتحارية وأعمالاً إرهابية ورعب الإبادة المحدقة بهم. أن تقول سلفياً حتى في الأوساط الإسلامية نفسها، فإنك تستدرجهم بذلك إلى التعبير عن مفاهيم خاطئة تطغى فيها السلبية المفرطة والمتطرفة على الوسطية الواقعية. «جهاديون متطرفون قتلة وقاطعو رؤوس وأدوات قتل. بشرٌ لا يُشبهون البشر»، كلّها أوصاف ومفاهيم نمطية زرعها مشتبهٌ فيهما اثنان في المخيلة الجماعية للمشاهدين: الإعلام والسلفيون أنفسهم.

في طرابلس، يتركز الوجود السلفي في منطقة أبي سمراء. يعيش هؤلاء جنباً إلى جنب. تنقسم المنطقة هنا إلى أحياء، يبرز فيها الحضور السلفي طاغياً. يمكنك ملاحظة ذلك من عدد المنقبات والرجال أصحاب اللحى. ويظهر تكاتف هؤلاء في ما بينهم جلياً: تجمعات وأحياء وسيارات رباعية الدفع. هنا التقيت شيخاً سلفياً يدعى وسام

المصري، لعب لاحقاً دور المفاوض لإطلاق سراح عسكريين لبنانيين مختطفين لدى تنظيم الدولة الإسلامية في جرود القلمون، جاره شيعي من آل الموسوي. يُصلّي الاثنان معاً في المسجد المجاور للمبنى الذي يقطنان فيه. مشهد الصلاة الذي يجمعهما يكاد يكون سوريالياً. السلفي يرفع سبّابته بعد السجود، فيما يضم الشيعي كفّيه ويرفعهما إلى الأعلى في وضعية القنوط. وهكذا يتجاور الاثنان بشكلٍ قد يبدو للوهلة الأولى أنه «إعلانٌ يدعو إلى الوحدة الإسلامية». الجولة في مناطق الشمال تكشف لك بعضاً من واقع السلفية هناك. تُضيّع البوصلة للوهلة الأولى، لكنك لا تلبث أن تجدها. تطرد أفكار الإرهاب التي تراودك بين الحين والآخر، وتغوص في التفاصيل فتختفي سوداوية النظرة، باستثناء ما خفي من بعض بذورها التي تستمر في ملاحظتها أو الشعور بها. تقرر أن تطرد الأحكام المسبقة مستنداً إلى معيار تراه معتمداً بالنسبة إلى كثيرين هنا، وخصوصاً عندما يتعلّق الأمر بالحكم وفقاً لـ«الممارسة الميدانية». انطلاقاً من ذلك، يُصنّف أصحاب اللحى هنا إلى ثلاث فئات: السلفيون المُرتزقة، السلفيون المنفتحون والسلفيون المتطرفون. الفئة الأولى لا تمتّ إلى السلفية بصلة، ما خلا الهيئة الخارجية. قالبٌ من دون جوهر. هكذا يوصفون، فيكيل علماء السلفية الاتهامات لهذه «الفئة الضالّة». يكشفون أنّ بالإمكان تمييزهم من «الأوشام التي تملأ أجسادهم». ويذكرون أيضاً أنّ هناك علامة فارقة أخرى تتجلى في «الألفاظ النابية التي لا يرتدعون عن الجهر

بها علانية»، فضلاً عن ارتباطهم بـ«جهات أمنية وسياسية تُحرّكهم». هكذا يرون أنّ «ورقة المئة دولار تصبح بوصلة يميل معها أصحاب اللحى المزيفة أينما تميل». لا يُشبه السلفيون المرتزقة أحداً، بل لا تجوز المقارنة هنا أصلاً. خلاصة يتفق عليها بعض مشايخ السلفية، وخاتمة تفتح على ما بعدها؛ إذ تبعاً للتصنيفات المذكورة، ينقسم السلفيون فعلياً إلى «منفتحين ومتطرفين»، وهم قلّة، لكن تكاتفهم يجعل منهم كتلةً صلبة يصعب اختراقها. التصنيف الذي يوافق عليه السلفيون أنفسهم يلقى إجماعاً في أوساط غير المتدينين. يحكي هؤلاء عن إيجابيات ساهم فيها السلفيون في المجتمع الطرابلسي، فيذكر البعض أنهم «ساهموا في جمع الشباب التائهين وانتشلوهم من إدمان المخدرات وغيرها». الحسنة هذه لا يلبث أن يراها آخر سيئة، مشيراً إلى أن «الغاية من الاستقطاب تحويل طاقات هؤلاء الشباب إلى خدمة أهداف المجموعات السلفية التي قد لا تصبّ في مصلحة الوطن». كذلك يحكي هؤلاء عن تنظيم قلّ نظيره مقارنة ببقية التنظيمات والمجموعات، لكنهم في الوقت نفسه يتذمّرون من ممارسات يرتكبها أصحاب اللحى في حق أبناء الطوائف الأخرى. يستنكر أحد الشبّان قيام السلفيين بإحراق متجر لبيع الخضار يملكه علوي في منطقة أبي سمراء؛ إذ إنّ «الأخير موجود في المنطقة منذ أكثر من عشرين سنة، ولا دخل له بالسياسة». يُعدد الشاب المذكور عشرات الحالات المشابهة. يوافقه في الرأي شبّان سلفيون ينأون بأنفسهم عن

تلك الممارسات، فيصفون أنفسهم بـ«سلفية الانفتاح وقبول الآخر». يُرشد أحدهم إلى «شيخ سلفي تولى الدفاع عن جاره العلوي في وجه شبّان سلفيين أرادوا إحراق متجره». هنا للعملة الواحدة وجهان أيضاً. سلفية مظلمة وأخرى مضيئة، ينقسم حيال نموها المجتمع الشمالي. فتستعيد الأذهان بدايات تنظيم حزب الله. يكاد الصراع الدائر هنا يماثل الصراع نفسه الذي خاضه التنظيم الوليد في ثمانينيات القرن الماضي في مواجهة أشقائه في الطائفة نفسها، حركة أمل.

في أبي سمرا أيضاً، يجهد السلفيون لتلميع صورتهم، وتحديداً أولئك الذي يحملون همّ الطائفة، وربما، المستاؤون من تصرفات أتباع الوجه المظلم للسلفية. يُبدي هؤلاء بشاشة زائدة، فيتسابقون في خطب ود الجيران. يختلطون مع جميع الفئات دونما استثناء، هادفين إلى أن يكونوا دعاة لمنهجهم بالألسنة وغيرها. تؤرق السلفيين هنا نظرة قاتمة إلى المستقبل؛ إذ تروج إشاعة مفادها أن «السلفيين يُسمّنون إعلامياً تمهيداً لذبحهم». وفي سياق النبذ الذي يعانونه، يروي أحدهم حوادث يتعرّضون لها دوماً لدى خروجهم من منطقتهم. يتحدث شاب سلفي عن أكثر من موقف أبدى له فيه أبناء الطوائف الأخرى أنه غير مرغوب فيه بينهم. ليس هذا فحسب، بل يتحدث الشاب عن «اشمئزاز» يُظهره له الآخرون بشأن لحيته الطليقة، يدفعهم إلى التمييز في معاملته.

يرى هؤلاء أن التركيز على الجانب المظلم في الممارسات المنسوبة إلى السلفيين الجهاديين، حقيقية كانت أو مفبركة، ساهم في

إذكاء حال النفور من أصحاب اللحى والشوارب المحفوفة، وخلق صورة نمطية ربطت بينهم وبين الإرهاب وأعمال القتل والإجرام. وساهم انعزال متّبعي المنهج السلفي ضمن مجتمعاتهم في مفاقمة هذا النفور. وزاد الوضع سوءاً، ابتعاد مشايخ السلفية عن الإعلام، نتيجة تبادل النظرة السلبية المسبقة بين الطرفين. وبالتالي، تُركت الساحة خالية أمام منتحلي صفة السلفيين لغايات مادية ومعنوية، فزادوا الطين بِلّة. هكذا بات السلفيون، دائماً وأبداً، في دائرة الشبهة والاتهام حتى إشعارٍ آخر. وطغت صورة السلفي السيئ على الجيد، فلم يعد يلتفت الآخر، أي المتلقي السلبي، إلى أنّ بين هؤلاء أباً يشقى لإعالة أبنائه ووالدة تكافح لتربية أولادها وتعمل لإعالة زوجها. لم يعد هناك، بنظر الجمهور، وجود لشباب لديهم هوايات. يأملون ويعشقون، لا بل إن بعضهم قد يستمع إلى الموسيقى سرّاً ويحفظ أسماء مقطوعاتها حتى. هكذا بات السلفي مرادفاً لـ«مصدر قلق لجيرانه وأهله حتى». رجلٌ يُعتقد أنه يسير مرتدياً حزاماً ناسفاً لن يتوانى عن تفجيره وسط حشود الأبرياء. ترافق ذلك مع تورّط عدد من السلفيين الذين يحملون الفكر الجهادي في بعض التفجيرات التي شملت عدداً من المرافق العسكرية. فصدف أن كان هؤلاء من أبناء الشمال اللبناني. وهكذا أصبحت القاعدة كالآتي: «أن تقول سلفياً، ذلك يعني أن الأنظار ستتجه تلقائياً إلى الشمال اللبناني». ورغم أن السلفية موجودة في كل لبنان، وينتشر متّبعوها في بيروت وخلدة وصيدا وإقليم الخروب والعرقوب

والبقاع وغيرها من المناطق، إلا أنّ طرابلس باتت تُتّهم دوماً بأنّها معقل للسلفية والأصولية. «قلعة المسلمين» ترفض التهمة. وكذلك يفعل سلفيوها أيضاً. ولا يجد الاثنان ضيراً في تهمة يعتبرانها مفخرة في جوهرها، لكنهما يرفضان أن تُسبغ عليهما وفقاً للمفهوم الإعلامي السائد. والحقيقة أن عاصمة الشمال التي خرج منها رائد السلفية الشيخ سالم الشهّال ليست سلفية الهوى كما تُصوّر. فالسلفيون فيها هم الأقلية. ويمكن لأيّ كان أن يلاحظ ذلك، سواء بالعين المجرّدة لدى زيارته المدينة ومحيطها أو باطلاعه على نتائج الانتخابات أو استطلاعات الرأي التي تُظهر أنّ حجمهم لا يزيد على خمسة في المئة في أفضل التقديرات، علماً بأن السلفيين لا يشاركون في الانتخابات النيابية أصلاً لأسبابٍ دينية، باستثناء بعض السوابق، أبرزها ما سجّله سلفيون في انتخابات ٢٠٠٩ بعد فتوى أصدرتها جمعية «وقف التراث الإسلامي» التي يرأسها الشيخ صفوان الزعبي بجواز المشاركة تصويتاً وترشّحاً.

يفتقد السلفيون القيادة الموحّدة؛ إذ لا وجود لشخصية محورية يدور في فلكها متتبعو المنهج السلفي. فما يراه كُثر دليل ضعف، يجده السلفيون دليل عافية. هكذا ينطلق مشايخ السلفية من التنوّع الذي تشهده ساحتهم، ليُعبّروا عن هدف استراتيجي جوهره «إقامة دولة الإسلام». بعيداً عن التنظير، يؤكد السلفيون أن تفرّقهم لا ينسحب على الموقف من الأزمة السورية. فهناك إجماعٌ في الأوساط السلفية على

الوقوف ضد النظام. ولا يتوقف السلفيون عن العمل ليل نهار لإنجاح «ثورة المسلمين المظلومين في سوريا». ينطلق هؤلاء من دافع ديني يعتبر «نصرة الشعب في سوريا فرض عينٍ»، فتنقسم مساراتهم إلى اثنين: سلفي داعم للنازحين في المأكل والمسكن والملبس، وسلفي آخر «يُعدّ ما استطاع إليه سبيلاً من سلاح ومقاتلين يُرسلهم للقتال في سوريا».

أمير الشمال ... شبح يبيع الأغنام

من أمير «القاعدة» في طرابلس، إلى مُرسل المقاتلين إلى سوريا وقائد محور السلفيين، وصولاً إلى مُجهِّز سيارات مفخّخة. الاتهامات لم تكن تتوقف بحق ابن باب التبانة، حسام الصباغ. لا يُشبه الصباغ غيره في طرابلس. ليس شيخاً ولا يدّعي المشيخة. يعمل راعياً وتاجر أغنام ويناديه عارفوه بـ«الحاج». ترك الدراسة في السنة الابتدائية الخامسة، لكن تحصيله الديني ثمرة جُهد شخصي. غادر لبنان عام ١٩٨٧ مهاجراً إلى أوستراليا هرباً من الأجهزة الأمنية السورية. خرج اسمه إلى الضوء عقب توقيف شادي المولوي في أيار ٢٠١٢، لكن ذكره قبلها كان يرد في تقارير أمنية، ولا سيما أنه توارى إثر اتهامه في قضية إرهاب خلال عام ٢٠٠٦.

وقد عاد اسم «أبو الحسن» إلى دائرة الضوء مع تسريب ملخّص التحقيقات مع نعيم عباس وبكر المحمود وعمر خضر، الموقوفين لدى استخبارات الجيش. (الأول متهم بنقل انتحاريين وسيارات مفخخة وإعداد عمليات إرهابية تستهدف مناطق لبنانية. أما الآخران فورد أنهما انتحاريان، شارك أحدهما في إطلاق صواريخ على مدينة

الحاج حسام الصبّاغ الذي تصفه الأجهزة الأمنية بـ «أمير الشمال»

الهرمل). وورد اسم الصباغ في إفادة خضر التي نقلت التسريبات اعترافه بأنّه كان في طريقه لمقابلة الشيخ حسام الصباغ في الشمال لتسليمه أموالاً لاستخدامها في تجهيز سيارات مفخخة، لكن الصباغ حينذاك تبرّأ من التهم المنسوبة إليه، واضعاً ما نُشر في سياق «الخدمة الرخيصة والمكشوفة للنظام السوري وحلفائه».

في عام ٢٠٠٤، عاد الصباغ إلى مدينته طرابلس عبر مطار بيروت. ترك عمله في البناء واختار العودة «حفظاً لدين» أبنائه العشرة. يحمل الرجل كنيتين: «أبو الحسن» و«أبو مظهر». لم يكن مطلوباً هناك،

ولم يكن مطلوباً في لبنان أول عودته. وهذا الأمر أكّده عناصر في الاستخبارات الأوسترالية لي. بل أكثر من ذلك، ننقل عن الرجل مواقف لافتة. فقد وقف الصباغ ضد من يدعو للجهاد داخل أوستراليا بسبب مشاركتها في حرب أفغانستان، باعتبار أن «هذه البلاد آوتنا عندما لم يكن لنا مأوى»، إنما كان يطلب إليهم الذهاب للجهاد ضد الأستراليين في أفغانستان حيث المعارك.

على عكس معظم رجال الدين في طرابلس، يكره الصباغ الأضواء، مختاراً الابتعاد عن الإعلام. كان يُكرر إجابته المعتادة لطالبي المقابلات الصحافية بأن «الوقت لم يحن بعد».

إلى جانب الوزير أشرف ريفي والشيخ سالم الرافعي والعميد عامر الحسن والعقيد المتقاعد عميد حمود (بيونستاه عميد)، اعتبر الصباغ أحد المؤثرين في القرار الأمني في عاصمة الشمال.

عرف عن الصباغ أنه لا يراوغ. وإذا لم يكن يريد الإجابة عن سؤال، يكتفي بالابتسام. كرر دوماً أمام الشبّان المتحمسين في طرابلس: «لا نُريد مشكلاً مع الدولة»، وكان يشارك معظم الأحيان في سحبهم من الشوارع. كانت التقارير الأمنية تقول إن لديه مجموعة يناهز عديدها ٣٠٠ مسلّح، لكن مقرّبين منه يؤكدون أنهم ضعف هذا العدد. وقد رفض الصباغ معارك الاستنزاف التي يستثمرها السياسيون في القتال مع جبل محسن، موقفه حينذاك كان واضحاً: «إما معركة حسم وإما لا معركة من الأصل».

وقف الصباغ إلى جانب الثورة السورية «استناداً إلى قناعة مبدئية وشرعية. نصرة للمظلوم ضد الظالم». لكنه كان يقول أمام من يلتقيهم إنه يعارض إرسال مقاتلين إلى سوريا؛ «لأن ساحة الجهاد هناك لا تحتاجهم إنما تحتاج إلى المال لشراء السلاح». نفى اتهامه بالانتماء إلى «القاعدة». ردد كغيره لازمة يعرفها السلفيون جيّداً: «يُسمّن السلفي ليُذبح».

قبل أن ألتقي الصباغ، كنت قد قرأت التقارير الأمنية عنه. صورته في التقارير كانت مخيفة. رجل بلحية طويلة وحاجبين مقطبين، وبنية جسدية قوية. طلبت من أصدقاء التوسط لمقابلته لكنه رفض غير مرة. هنا اضطررت لابتداع طريقة توصلني إليه. فاتصلت بأحد الوسطاء وقلت له: «لدي ملف مهم للصباغ. لا أريد مقابلته بوصفي صحافياً. الموضوع لمصلحته وليس لمصلحتي».

كل التقارير الأمنية كانت تقول إن الصباغ يتجول وهو يرتدي حزاماً ناسفاً، وحوله كمية من المرافقين، وإنه شخص جداً خطير.

انتظرته في أحد البيوت. دخل. ألقى السلام. صافحني بيد صلبة ثم احتضنني كأنني أخ من الإخوة الموجودين. كنت جلبت معي نسخة عن المعلومات والعمليات التي يُتّهم بالضلوع فيها. قرأتها على مسمعه قبل أن يطلب الاطلاع عليها مؤكداً أموراً ونافياً أخرى، ثم بدأ متحدّثاً عن نفسه. قال: «أنا أحب القاعدة ولكنني لست أميرها. أنا مطفأة في منطقة الشمال ضد قتال الجيش». أخبرني عن سفره إلى أستراليا، وكيف كان يعمل في بناء ناطحات السحاب، وكذلك في

الحدادة. لديه عشرة أولاد قرر جلبهم إلى لبنان عندما كبروا من أجل ألا «أخسرهم» هناك. في طرابلس يبيع الصباغ الأغنام. لم يتخط الصف الخامس الابتدائي ولذلك قال لي: «أنا لا أصلح أن أكون أميراً، فأنا لا أعرف أن أفتي ولا يحق لي». أخبرني «مطفأة الشمال» كيف أنه ساعد علويين كانوا يريدون قتلهم في باب التبانة وسلمهم للإسعاف، مفصحاً أنه لا يحب الخروج على وسائل الإعلام، «أكره هذا الشيء»، قال لي.

مجموعته المسلحة تعدادها ٣٠٠ عنصر. أكد لي الصباغ أنه لا يبحث عنهم، بل هم من يأتون إليه. «هؤلاء يأتون بناء على صيتي. أستيقظ صباحاً وأجد شباناً يقفون عند باب بيتي. يقولون لي نحن نحرسك. هؤلاء يبحثون عن قائد. أحاول أن أفهمهم وأسمعهم وأهديهم، لكن الاحتقان حولنا لا أستطيع تهدئته».

استكملنا أحاديثنا حتى وصلنا إلى حزب الله. «كيف علاقتك بالحزب؟» سألته.

- لا توجد أي علاقة.
- هل أنت مستعد للقائهم؟
- أكيد لا. هؤلاء يقتلون أهل السنّة في سوريا.

بالرغم من موقفه الحازم إلا أن الصباغ شخص عقلاني. وقد خرجت من عنده بانطباع جميل. احتضنته وقلت له: «أريد أن أرى إن

كنت تلبس حزاماً ناسفاً كما يقولون». ضحك الرجل الذي يتجول على دراجة نارية.

مرت الأيام. وطلبت لقاءه مرة أخرى. دعاني إلى منزله في الطابق الثامن أو العاشر من مبنى على أعلى تلة تكشف كل طرابلس. داخل البيت نافذة تشعرك وكأنك تجلس داخل طائرة. فتح مقعدين وقال: «أنا أجلس هنا مع زوجتي ومع من أحبهم»، ثم قدّم لي حليب غنم. شربت أنا وزميلي عيسى صليبي.

تكررت اللقاءات مع الصباغ وصار أكثرها في الشارع، عندما يأتي لتهدئة المسلحين في باب التبانة. لكنه في النهاية أوقف وحكم بالسجن سنتين، بالرغم من لعبه دور المهدىء للشارع والمساعد على الوصول إلى المطلوبين أمنياً.

رأيته في المحكمة العسكرية. كان وراء القضبان. سلمنا بعضنا على بعض.

قال له القاضي: «بدك وقاف عندو أو يوقف عندك؟». لم يجب أحدنا القاضي، لكن الصباغ حين ألقى عليّ السلام قائلاً: «كيفك رضوان؟»، نظر إلي بحدقتين كأنهما تقولان «انظر أين أصبحنا اليوم!».

الصباغ ليس مكانه السجن. خصوصاً أن تهمته الأساسية هي أنه مطلوب لملف في العام ٢٠٠٧ حول تشكيله مع الشيخ نبيل رحيم مجموعة لإرسال المقاتلين إلى العراق للقتال ضد الأميركيين. رغم ذلك لم يتم توقيفه في مطار بيروت ولا في أستراليا. لكن بالنسبة إلى

الأجهزة، هو رجل طليق اللحية ويحمل فكراً ما. الأجهزة يهمها أن يكون لها شدّاعة، بعبع. هذا الاقتناع هنا معزّز باستنتاج أنّ إميل لحود قام على ركام الضنية، وكذلك فعل ميشال سليمان عندما صعد إلى كرسي الرئاسة فوق دمار نهر البارد.

تلميذ الشيخ فستق يردّ له الجميل

Anjem Choudhry

من أصول باكستانية، وُلِد في بريطانيا وحمل جنسيتها. هو تلميذ الشيخ عمر بكري فستق، الشيخ السلفي اللبناني الذي بدأ حركته وانطلاقته من بريطانيا. والذي كان أحد أبرز المؤسسين لتنظيم «المهاجرين» البريطاني الذي كان بوابة استقطاب وتجنيد لمئات الشبان المسلمين حول العالم. تعرفت إلى الشيخ عمر في طرابلس، وعبره تعرفت إلى شخصيات تحمل الفكر نفسه.

كان أنجم تشودري يظهر على شاشات التلفزة مسوّقاً لـ«الدولة الإسلامية»، رغم إقامته في بريطانيا. وكذلك كان يفعل شيخ مصري اسمه هاني السباعي وهو من المنظرين للفكر الجهادي. والسباعي هذا ليس شيخاً عادياً، فقد اتُّهم بالتورط باغتيال الرئيس المصري أنور السادات في تشرين الأول عام ١٩٨١ . وهرب السباعي من حكم غيابي بالإعدام في قضية العائدين من ألبانيا، وحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة في محاولة اغتيال رئيس الوزراء الأسبق عاطف صدقي عام ١٩٩٣ . وقد حصل «المقريزي»، وهو اللقب الذي يشتهر به، على لجوء في

بريطانيا. وقد اشتبه في تورطه مؤخراً بـ«تطرّف ذبّاح الدولة الإسلامي» محمد إموازي المعروف بـ«الجهادي جون»، الذي ظهر في معظم المقاطع المصوّرة يذبح رهائن اختطفهم تنظيم «الدولة الإسلامية» بين العراق وسوريا.

لقد تواصلت مع الشيخين عبر أكثر من وسيلة اتصال هاتفية. الأول بوصفه منظراً ولكونه حاول التوفيق بين تنظيمي «القاعدة» و«الدولة الإسلامية» في بادئ الأمر. أما الثاني فلأنه نشط بعد توقيف الشيخ عمر، حيث كان يتصل بي طالباً تغطية إعلامية لحملات يقوم بها للضغط لإخراج الشيخ فستق من السجن.

وللمفارقة فإنّ الإسلاميين تحديداً منذ زمن طويل في بريطانيا، يتمتعون بحرية استثنائية. إذ يُسمح لهم قول ما يشاؤون ونشر الفكر السلفي الجهادي وحتى الدعوة إليه، رغم أنهم مراقبون بشكل دائم من قبل الاستخبارات. وهذه المسألة تثير الشبهة إزاء دور الاستخبارات البريطانية في التغلغل في الحركات الجهادية.

أثناء إعدادي لفيلم وثائقي أردت أن أقابل شخصاً عرف الشيخ عمر في لندن، كنت أريد مقابلة شخص يتكلم العربية، في حين أنجم يتكلم الإنكليزية، ثم طلبت موعداً للقاء أنجم. ذهبت إلى بريطانيا قبل أن تتوطد العلاقة به، ولي معه مقابلة مصورة. جلسنا معاً، وكانت ترافقني فتاة كـ chivala madlena (camera woman)، وكنت متوتراً إن كانوا سيتقبلونها أو لا.

ذهبنا إلى حي فيه جو يسيطر عليه الإسلاميون. شبه مطاوعة في قلب بريطانيا. مثلاً التي تعمل في الدعارة أو المخدرات أو فتاة لا تلبس الحجاب، كانوا يلاحقونها، ينصحونها أو يوبخونها كلامياً. وهذا ما أثار استغرابي حصوله في قلب بريطانيا.

ذهبنا إلى منطقة لا أذكر اسمها تقع إلى الشمال الغربي من لندن. قطعنا مسافة لا بأس بها. كان الموعد في محل حلويات. طلبنا الذهاب إلى المنزل لكنه لم يقبل، وطلب أن نجلس في حديقة عامة. هناك سألني بالإنكليزية: Ridwan mortaza?

- نعم.
- أنت شيعي؟
- لماذا تفترض أنني شيعي؟
- عائلة مرتضى عائلة شيعية كبيرة من أصول إيرانية...
- أنا مسلم يا شيخ.
- الحمد لله. عندي مشكلة مع الشيعة.
- ما هي؟
- ٩٥٪ من كلامهم تقية والباقي كذب. لا يمكنك تصديقهم في كل شيء يقولونه.
- لماذا تفترض هذا الكلام؟
- لأنني عايشتهم والتقية في صلب عقيدتهم.
- لكن في المنهج الإسلامي هناك التورية، مثلها مثل التقية،

وأعرف الكثير من رجال الدين الذين يمارسون التقية، إما خوفاً وإما تحبباً.

- لماذا لا تتكلم العربية؟
- أقمت فترة في مدينة عاليه في لبنان حيث كنت أدرس. أفهم القليل من العربية، لكنني لا أستطيع الكلام بطلاقة. وقد تتلمذت على يد عمر بكري فستق.

كان أنجم يدعو إلى «الدولة الإسلامية»، ويقول إن السنّة في لبنان مظلومون ويجب مساعدتهم. في تلك المقابلة، كانت المرة الأولى التي يعلن فيها مبايعته لأبي بكر البغدادي و«الدولة الإسلامية».

طلبت أن نلتقي ثانية خارج بريطانيا، فقال: «لا أغادر بريطانيا». عندها طلبت منه أن يصلني بمشايخ يثق بهم لأجري معهم مقابلات، فردّ: «لا أثق بأحد. لا أثق إلا بنفسي».

بعد توقيف الشيخ فستق على خلفية أحداث طرابلس، بدأ الرجل يتواصل معي لتنظيم حملة دعم له وإظهار مظلوميته عبر الإعلام.

أما أستاذه الشيخ عمر، فكانت أول مرة التقيته فيها في منزله في طرابلس. كان يضع راية لا إله إلا الله، وكان هناك سيف. حينذاك استقبلني بجملة «أهلاً بالرافضي». سألته: «هل ستأتي بسيف وتذبحني؟»، فضحك. كان شخصاً لطيفاً. يتميز بذاكرة صورية هائلة، كان يحفظ كتباً، لكن مشكلته أنه لا يسير معك «على الموجة نفسها». فهو يستمع إليك، ويقول فلان وفلان، لكنه لا يقدر على جذبك. هو

بارع كخطيب، وحتى طريقة أدائه أمام القاضي في المحكمة العسكرية كانت مخيفة، كأنه محام أثناء مرافعة. كنت أتواصل معه دائماً، حتى بتنا أصدقاء. كان ينفي ما يُنسب إليه عن تورطه في أي عمل مسلح، موضحاً أنه يعطي دروساً على البالتوك، ولديه الكثير من المريدين. وكان على عكس غيره من علماء السلفيين، لا يتهرب من الظهور في الإعلام. فقد كان يعتبر أنه من الضروري أن يخرج في الإعلام، وهو يحب الإعلام، وكان يقول الأمور كما يراها، بعكس الأشخاص الذين يحاولون تدوير الزوايا، وهذا ما تسبب له بالأذى في النتيجة، حيث أوقف في شقة قريبته في عاليه ليُحكم بالسجن ١٢ عاماً.

اللافت في عمر بكري فستق، أن كلامه على التلفزيون وفي وسائل الإعلام، كان يستفزّ الناس، خصوصاً أنه كان يقول المسائل كما هي. فتارة يدعو إلى الذبح والقتل وإلى إقامة دولة الإسلام و«حكم الإسلام»، وتارة أخرى يقول إن هذه طائفة ردة وهذه طائفة أهل ذمة.

شيخٌ ظريف يستفزّ المشايخ

الشيخ بلال دقماق، رجل سلفي غير موثوق من معظم مشايخ السلفية، لكنه مقرب من مدير عام قوى الأمن الداخلي الأسبق اللواء أشرف ريفي. هدفه، بحسب ما يعتبر كثيرون، الكسب وتحقيق الأموال، الإعلاميون يتسابقون ليستضيفوه لكونه يتكلم كلاماً عالي السقف يجذب الجمهور. لا يتردد دقماق في القول إن المشايخ يغارون منه لأنه أكثرهم شهرة. قال لي «يكرهني هؤلاء لأني أهاجم وليَّ نعمتهم. لكن هذا الكلام كان مدعاة لأكثر من رد من شيوخ سلفيين حيث أكد أحدهم لي أنهم يعتبرون دقماق وفستق «رجلين لا علاقة لهما بالمشيخة والعلوم الشرعية ولا بالسلفية من أساسها، والوسائل الإعلامية تتعمّد استضافتهما إمعاناً في تشويه صورة السلفية؛ فالاثنان يستجيبان لرغبة الإعلام فيجهدان لإثارة الرأي العام كسباً لمزيد من الشهرة المريضين بها. وذلك ينعكس سلباً وتحريضاً على الطائفة السنّية وأهلها والمنهج السلفي». كما أن بعضهم قال لي أكثر من ذلك. ومنها أن دقماق منتحل صفة شيخ، وفستق عميل لجهاز الاستخبارات البريطانية. لا تنتهي المسألة عند هذا الحد. فقد استعاد أحد المشايخ السلفيين

ملاحظاته بحضوري على سلوك دقماق الأخلاقي «المسيء للسلفية» كما قال لي، مذكّراً بأنّ الأخير «متّهمٌ أمام القضاء بالتحرّش بزوجة أحد السجناء وبمحاولة اغتصاب زوجة صديقه». كما يأخذ المشايخ على دقماق جهله بلغة القرآن أي اللغة العربية. أحدهم يقول إن جميع بيانات دقماق الإعلامية تضج بعشرات الأخطاء الإملائية البسيطة التي يستحيل أن يرتكبها رجل دين، حتى لو كان مبتدئاً.

هذه الاتهامات لم ترض دقماق بأي حال، إذ قال لي عندما واجهته بها «لا تدخلوا في الشخصي وحاسبوني على مواقفي. الاتهامات مُغرضة لتشويه صورتي. إنه الحسد والغيرة مما أصبحت عليه. أنا أقول ما لا يجرؤون هم على قوله. كبريات الصُحف ووسائل الإعلام الدولية تستأنس بأحاديثي ومواقفي. أنا من قدامى السلفيين، تفرّغت للدعوة السلفية منذ عام ١٩٨٩، كنت سلفياً عندما لم يكن هناك سوى ٤ أو ٥ مشايخ سلفيين. ثم إني مثلي مثلهم... ربما لم أدرس في معاهد شرعية، لكني أملك تحصيلاً شخصياً وخبرة شرعية جيدة. الحسد طبيعي، فقد كان بين النبي يوسف وإخوته للأسف الحسد من كبارهم بعدما باتت لي علاقات دولية هم لا يملكونها». تحدث الرجل ثم ضحك وأردف «أنا أُسامحهم وأكنّ لهم كل الاحترام، لكن حرامٌ عليهم شق الصف والتلهي بالتصويب بعضنا على بعض».

كذلك فعلت مع الشيخ عمر بكري، الذي قلت له إن مواقفه مرفوضة من المشايخ الموالين للأنظمة الخليجية، فأجابني حينذاك إنّ

«معظم مشايخ السلفية في لبنان يوالون النظام السعودي الكافر. كل من يوالي النظام السعودي يُدافع عن الطاغوت. أنا أنتمي إلى التيار السلفي المناوئ لكل الأنظمة من سعودي وقطري وتركي وإيراني. ولكي ترتاحوا، أنا من الأمّيين الذين بُعث فيهم محمد، لكن ذلك لن يُغير من موقفي من قطر والسعودية وبأن من يوالي أميركا في قتال المسلمين مرتدٌ كافر. مشايخ وأتباع مشايخ يرون في وجودي خطراً عليهم. أقول لمن يشكك بي، ردوا على الأحكام الشرعية. أليس ما أقول صحيحاً؟ أنا جاهز للمناظرة. أنا بعون الله على حق، وعليهم أن يتوبوا إلى الله».

في إحدى المرات، كان الشيخ عمر على قناة «أو تي في» وتقول له المذيعة، إن «رضوان كتب عنكم كذا وكذا»، فيقول «هو عميل للمحور الإيراني»، بينما هو صديقي.

اتصل بي البعض وأخبروني أن الرجل يقرعني. تفاجأت. علماً أني نشرت مقالاً في صباح ذلك اليوم قلت فيه إن أحدهم منتحل صفة، وكيف أنه يلهث وراء الإعلام.

بعد هذه الحلقة اتصل بي فستق. «أهلين كيفك شيخ؟»، «أهلاً حبيب كيفك شو أخبارك؟»، «شو خبروني عم تسبني على التلفزيون؟» قال «عم دق لتعرف إنو نحنا إخوة ونحنا أهل بس كرمال الإعلام مضطر أحكي هيك، وقدم اعتذاراً غير مباشر».

الشيخ بلال دقماق، لي معه قصص تخص عملي الصحافي. فقد كنت أكتب في «الأخبار» تحت اسم مستعار هو (زياد الزعتري).

كل ما كتبته بهذا الاسم كان عبارة عن «سكوبات» مع زميلي حسن عليق. وفي إحدى المرات، كتبت مقالاً «جننهم»، ما استدعى اتصالاً من الشيخين بلال دقماق ونبيل رحيم طلبا فيه لقائي، وكنت حينذاك أسكن في طرابلس مخفياً ذلك عن الكثيرين. رافقني زميلي عيسى صليبي والتقيناهما. تبعنا دقماق إلى أن وصلنا إلى مكان يجلس فيه عدد من المشايخ. وفيما نحن نترجل همس الشيخ رحيم في مسمعي «سيسألونك عن المقال المكتوب باسم زياد الزعتري، وهم يعرفون أنك هو». جلسنا ثم شرع دقماق في حديث عام عن المستجدات، قبل أن يتوجه إليّ بالكلام قائلاً «نريدك أن تعرفنا إلى زياد الزعتري». فأجبته «في الوقت الذي تريده. خذ هذا رقمه واتصل به وقل له إنك من قبلي».

فسألني: «هل رقمه بحوزتك؟» قلت «نعم»، ثم أعطيته رقمي الثاني المسمى على تطبيق «ترو كالر» باسم زياد الزعتري، وهو بالمناسبة طبيب من صيدا اخطفته القوات اللبنانية في العام ١٩٨٥ واختفى.

سجل دقماق الرقم وعلامات الاستغراب على محياه. «اتصلْ به»، طلبت منه. «لا نحن في وقت متأخر»، رد. «اتصل به، حاول»، كررت طلبي ثم حولت هاتفي الثاني إلى وضعية صامت. اتصل دقماق وما من مجيب. هنا قلت له «ولا يهمك، زياد شاب طيب، بإمكانك أن تتصل به ساعة تشاء، وأنا بكل الأحوال سأخبره وأطلب منه الاتصال بك، وربما نجتمع نحن الثلاثة. لكن هل لي أن أعرف ما هي القصة؟».

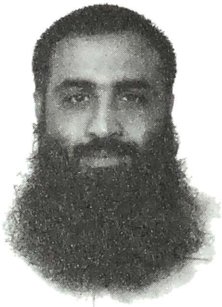

الشيخ بلال دقماق

«لقد كتب مقالاً عنيفاً ضدنا وكل معلوماته دقيقة. لماذا لا يكتب مقالات خفيفة؟»، هززت رأسي ثم شرعت في فبركة حكاية عن حياة الزعتري.

عند خروجي أتى الشيخ رحيم، وقال لي بالحرف «العمى بقلبك كيف قدرت تخردق وتطلع وتنزل وتهرب من الموضوع، وقنعتو؟».

- قلت «بشو؟».
- «يعرفون أنك زياد».
- «من هم؟».
- «أنت زياد».
- «لقد أعطيتكم رقم هاتفه للاتصال به»، ولو كنت كذلك لأخبرتك.

لكن الشيخ رحيم لم يقتنع، فدنا مني وقال «رضوان هناك مرجع أمني كبير جداً (إما وسام الحسن وإما أشرف ريفي). تكلمنا معه وأجاب أن زياد الزعتري هو اسم مستعار وهو في الحقيقة إما رضوان مرتضى وإما حسن عليق، والأغلب أنه رضوان».

- «حسناً، الأيام ستثبت لكم عكس ذلك»، قلت.

لقد قاموا بالتحقيق لمعرفة من هو «زياد الزعتري». وعندما زار زميلي حسن عليق، أحمد الحريري، قال الأخير «حصلنا على سجلات النفوس وبحثنا ولم نجد أي زياد زعتري لدينا بهذه المواصفات». لم يجبه حسن. لكننا ارتأينا أن نعتكف عن الكتابة بهذه الشخصية المستعارة، علماً أن اختيارنا للاسم وقع لكون الأخير طبيباً فُقد أثره في الثمانينيات واتُّهمت القوات اللبنانية باختطافه.

لم تنته صولات وجولات دقماق؛ ففي إحدى المرات اتصل بي من السعودية الشيخ إبراهيم الزعبي. هذا الشيخ دخل مفاوضاً من أجل الحجاج المخطوفين الـ ١١. كان أسس حزباً اسمه «أحرار سوريا»، اتصل بي وكنا على اتصال دائم وأجرينا معه أكثر من مقابلة ونشرتها بكل موضوعية. اتصل بي مرة وقال لي «أريد أن أستشيرك بأمر شخصي». الشيخ سوري الجنسية من درعا، قال لي «بلال دقماق شو رأيك فيه؟»، قلت «يا شيخ اعفني»، قال «ليش؟»، قلت «أول شي بعرفو للزلمي وشهادتي فيه مجروحة»، بفضل تسأل غيري، لماذا تسأل؟»، قال «أريد فتح مكتب للحزب في لبنان، وبدي أعطيه دعم ليدعم

المجموعات السورية والنازحين واللاجئين»، أجبت «ما بعرف، اعفني واسأل غيري».

مرت الأيام ثم اتصل بي الشيخ الزعبي. قال لي «تخاصمت أنا ودقماق. هذا نصاب، استضفته ٢٠ يوماً بالسعودية، لم يصلّ ولا فرض صلاة، وهو يقول أنا على سفر».

ومن إحدى القصص التي تروى عن الشيخ دقماق أن هناك صحافية أجنبية جاءت لمقابلة الشيخ عمر بكري، وكان هو Office boy ولم تجد الشيخ عمر، قال لها «أنا بعمل مقابلة». أجرى المقابلة وتحدث بكلام عالي السقف، ونُشرت صورته على الغلاف. تعرف طرابلس كلها بظهوره على الإعلام وصار الجميع يقول له حينذاك الشيخ بلال.

دقماق مقرب أيضاً من عقاب صقر، وهو رجل استخبارات، كان يسجل كل الاتصالات لكل الناس، ويستخدمها للابتزاز أحياناً. هذا ما كانت تزخر به التقارير الأمنية بشأنه.

هناك شخصية أخرى اسمها الشيخ أبو محمد شومان، ولعب دور الوسيط في ملف المخطوفين اللبنانيين وكان في بلجيكا، وقد دعاني للذهاب إلى هناك. لكني كنت أخشى من أن أختطف.

هذا الشيخ كان أيضاً صديقاً لدقماق وهو رفيق عقاب صقر، وكان يسجل لكل الناس ويتصل دائماً متخذاً دور الضحية.

أما الشيخ داعي الإسلام الشهال، فكان لافتاً فيه أنه هو يرفض

أن يعطي أي دور لوالده الشيخ سالم الشهال في تأسيس السلفية في طرابلس. علماً أن الأخير هو من جاء بالسلفية إلى طرابلس، حيث يقول الابن إنه هو من جلب الإطار التنظيمي للتيار في طرابلس.

الرجل صاحب لغة سياسية ودينية مرتفعة السقف. كان الرجل فقيراً ولم يجد دعماً من أحد، حتى فتح خطوط تواصل مع أشخاص في السعودية. للشهال أكثر من ولد. ابنته «مسلمة» غير ملتزمة دينياً، وهناك ولد آخر اسمه جعفر أوقف لفترة بتهمة الإرهاب وخطيبته ليست محجبة.

هرب الشيخ الشهال إلى السعودية، حينما تم اكتشاف مخزن سلاح لبلال دقماق، إلا أن الأخير أنكر ذلك وقال إن المخزن هو للشيخ الشهال. لا ندري حتى الساعة إن كان للشيخ المعادي لحزب الله، صلة بهذا المخزن.

التلّي يُعدم خاطف المُصوّر حسين

غالباً ما كنت أسمع تحذيرات من الذهاب إلى مقابلة الجهاديين في عقر دارهم كي لا أكون لقمة سهلة. أمام هذه التحذيرات كونت فريقاً من المساعدين والمرافقين الذين كنت أستعين بهم أحياناً كثيرة. أحد هؤلاء ، كان صديقي حسين الذي يسكن في بلدة العين البقاعية المجاورة لبلدة عرسال. عام ٢٠١٤، عرضت قناة «الميادين» فيلماً لي تحت عنوان «في جبال القلمون» لم يعجب الجهاديين لأنهم يعتبرون القناة «تابعة للنظام». اتصل بي فهد حمّادي، شقيق ومعاون قائد «كتيبة بلال الحبشي» رعد حمادي المشهور بـ«رعد العمّوري»، والذي تحوّل لاحقاً إلى متشدد بايع «الدولة الإسلامية»، في منتصف الليل طالباً المساعدة:

- أريد مالاً لأدخل عائشة (ابنته) إلى المستشفى.
- كم تريد؟
- ١٠٠ دولار.
- لا أستطيع أن أحول المبلغ عبر ويستيرن يونيون بسبب موضوع الإرهاب. سأتدبر الأمر.

اتصلت بحسين الذي لم يكن في حوزته إلا ١٠٠ دولار. استدان من والدته ٢٠ ألف ليرة لبنانية لينتقل، بحسب طلبي، إلى قرب مهنية عرسال في الثامنة صباحاً ويتصل بفهد لإعطائه المال.

انشغلت في ذلك اليوم ونسيت أن أتصل بحسين لأتحقّق من أن كل الأمور على ما يرام. كنت في نادٍ رياضي، فخطر لي أن ألقي نظرة على هاتفي. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عندما وجدت رسالة من حسين كانت قد وصلت قبل ٤٥ دقيقة يبلغني فيها أنه اختطف. حاولت الاتصال به فوجدت هاتفه مقفلاً. اتصلت بفهد فكان هاتفه مقفلاً هو الآخر. مر وقت كنت أكلم فيه نفسي: ماذا سأقول لأهل حسين؟ حوالى الساعة ٣:٣٠، اتصل بي فهد.

- فهد؟
- «كيفك شو أخبارك يا معلم»، أجابني، فشتمته وقلت له: «أين حسين؟». أجابني: «أخذوه جماعة وما رح يتركوه لتجي لعندن». عندها فقدت صوابي وهدّدته: «إذا ما انترك حسين رح أخطفك إنت وعيلتك، ورح خبر فرع المعلومات والمخابرات وجبهة النصرة حتى».

تواصلت مع المخابرات وفرع المعلومات فأكدا أن أي صحافي لم يدخل إلى المنطقة. أكّدت لهما أنّه دخل، لكن الأجهزة الأمنية أعلنت عجزها عن توقيف أحد، ناصحين بإبلاغ عائلته للتقدم ببلاغ. اتصلت بأشخاص في «جبهة النصرة» وقلت لهم إن «هناك أخاً مسلماً اختطفه الجيش الحر ويريدون ذبحه»، ثم اتصلت بفهد مجدداً وأخبرته. فقال:

رعد العمّوري... مطلق الصواريخ على لبنان الذي خطف زميلي

لي: «لن يخرج حسين إذا لم تأت أنت». هنا تصنّعت البرود وقلت له: «اذبحه وصوره وارسل لي الفيديو لأبيعه وأستفيد منه». ما أن أقفلت الخط حتى انفجرت بالبكاء.

بعد مكالمتي مع فهد، قررت أن أتصل بجماعة «كتائب عبدالله عزام» أيضاً وأخبرتهم بما جرى، فأرسلوا، تحت إمرة «جبهة النصرة» مجموعة إلى مخيم «أبو طاقية» مطالبين بالإفراج عن حسين ومهددين بأنه في حال لم يتسلموه قبل غروب الشمس فإنهم سيقومون باحتجاز كل من في المخيم. تجدر الإشارة إلى إنّ «النصرة» لها في عنق «كتائب عبدالله» ما يسمى «بيعة حرب»، أي إنّ عناصر الأخير يقاتلون في الأراضي السورية تحت إمرة «فرع القاعدة في بلاد الشام».

في تلك الأثناء، أرسل خاطفو حسين رسالة إلى أهله أبلغوهم فيها بخطف ابنهم، ما ضاعف الضغط عليّ. بعد الكثير من التهديد، جاءني اتصال، من رقم مجهول، في العاشرة من صباح اليوم التالي. كان حسين الذي أبلغني أنه بات طليقاً. كان، أثناء احتجازه، تعرض لضرب مبرح، وأجبر على حفر قبره بيديه، وطُلب منه اختيار السكين الذي سيذبح به، كما أتوا بشيخ قام بنصحه وأفتى بذبحه. فضلاً عن أنهم أكرهوه على القول في شريط مصور إنه ومدير مكتب مجلة التايم الأميركية في بيروت رامي عيشة وأنا ضباط ارتباط لدى حزب الله، وإننا نرسل فيديوهات لقناتَيْ المنار والعالم. وما زاد الطين بلة، أنهم وجدوا في هاتفه أناشيد وصوراً دينية شيعية وصلته على تطبيق الواتس آب.

هذه الجماعة نفسها بايعت تنظيم «الدولة الإسلامية» في القلمون. التحق هؤلاء بابن بلدتهم، موفق الجربان، الذي وُلّي إمارة هذا التنظيم. وتحوّلت منطقة وادي ميرا الجردية إلى غرفة عمليات لهم. مرّت أشهر انقطعت فيها الاتصالات بيني وبين هذه المجموعة، لا سيما بعدما أبلغني مقربون أنهم يخططون لاختطافي. ومع انطلاق معركة جرود عرسال في آب ٢٠١٧، عادت قضية مسلحي الجرود إلى الواجهة. ومع بدء تنفيذ عناصر جبهة النصرة الانسحاب باتجاه إدلب، انتشر خبر في وسائل الإعلام مرفق بصورة يُفيد أنّ أمير «النصرة» أبو مالك التلّي قام بقتل المدعو رعد حمّادي المشهور بـ«رعد العمّوري». وقد

تبين أنّ عناصر «جبهة النصرة» أنزلوه من أحد الباصات المتجهة إلى إدلب قبل انطلاقها وقد أعدمه التلّي شخصياً بإطلاق الرصاص عليه. وفيما تردد أنّه قُتل لمعارضته صفقة المغادرة، تناقل عناصر «النصرة» أنّه مسؤول أمني في «داعش»، وأنه كان مكلّفاً باغتيال أمير «النصرة» لعرقلة الاتفاق.

في عرسال كنت سنّياً: بوابة «عرش الإله» تنتهي بأشجار الكرز

تُتّهم بلدتا عرسال ومجدل عنجر من الأجهزة الأمنية بأنّهما مركزا ثقل تنظيم «القاعدة» في لبنان. دخلت إلى عرسال للمرة الأولى عبر الشيخ مصطفى الحجيري («أبو طاقية»)، أحد أبرز الشخصيات في عرسال التي أوجدت موطئ قدم لجماعات المعارضة المسلّحة والجهاديين. إذ إنّ الحجيري كان من أوائل من أنشأ مخيمات للنازحين السوريين وعوائل المسلّحين في الجرود. ويُحكى أنّ الرجل بايع أمير تنظيم «جبهة النصرة» أبو محمد الجولاني باليد، قبل أن يُصبح الصديق الصدوق لأمير «النصرة» في القلمون جمال زينية المعروف بـ«أبومالك التلّي». لمع اسمه عقب خطف العسكريين اللبنانيين يوم الثاني من آب عام ٢٠١٤. إذ إنّ الأخير«آوى» العسكريين الأسرى في منزله قبل أن يُتّهم بضلوعه في اختطافهم والتحريض على قتل أحدهم.

تعرّفت إليه عبر نجله عبادة المتهم بنقل سيارات مفخخة وقتل عسكريين من الجيش اللبناني بحسب ما أعلن وزير الدفاع في حينه فايز غصن. وقد قدم الحجيري أكثر من قطعة أرض لإنشاء مخيمات عليها،

وهو كان يتسلم الأموال للدعم والمدد. وعندما تجوّلت في مخيمات اللاجئين السوريين في البلدة كان اسم «أبو طاقية» بمثابة كلمة المرور. كانوا يسألونني إن كنت شيعياً أم سنّياً فكنت أكتفي بالقول: «أنا مسلم والحمد لله».

أثناء وجودي في البلدة، دخلت شاحنتان صغيرتان من نوع «بيك آب» إلى وسط عرسال. الأشخاص الذين كانوا على متنهما بدا أنهم قد عادوا توّاً من معركة. كانوا ملتحين وبرفقتهم ثلاثة جرحى. تقدمت منهم وكانت ترافقني صحافية أجنبية، وحاولنا الحديث معهم. قالوا لي: «نلتقي في مستوصف الشفاء، قرب المسجد الذي بناه أبو طاقية». كان المقاتلون من «جبهة النصرة»، وكانت المرة الأولى التي ألتقي هذا العدد من المقاتلين دفعة واحدة. أذكر جيداً أنهم كانوا يختلفون عن بقية المقاتلين. لم يكونوا استعراضيين، بل كانوا هادئين وصامتين في التعاطي مع الإعلام. وبالتالي، عليك أن تبذل جهداً كبيراً لتحصل منهم على الكلام.

في ذلك اليوم، تعرّفت إلى «أبو القاسم العدناني»، عرّف عن نفسه بأنه «إعلامي» في «الجبهة»، واكتشفت لاحقاً أنه بايع «الدولة الإسلامية». عرض عليّ «أبو القاسم» الدخول إلى يبرود، مشترطاً أن على الصحافية الأجنبية التي ترافقني أن تضع حجاباً على رأسها، وأن الزيارة يجب ألا تقل عن أربعة أيام، وأن المادة التي أصوّرها ستخضع للتدقيق من جهتهم. وبرغم حماستي إلا أنني تروّيت خوفاً على

زميلتي، فأبلغته أن «عليّ أن أنسّق مع إدارة الصحيفة». كنت قد أجريت بعض المقابلات، فسألت «أبو القاسم» إن كنت بحاجة إلى إذن، فقال: ««أنا من يعطي الإذن هنا. لكن في الداخل (أي في القلمون) علينا أخذ إذن الأمير» أبو مالك التلي.

عدت إلى عرسال مجدداً مع صديق لي للدخول إلى يبرود. وصلنا متأخرين عن الموعد المحدد. قال لنا فهد إن الشباب قد دخلوا إلى يبرود، عرض أن يصعد معي في سيارتي للحاق بهم فوافقت. عندها أزال لوحة السيارة، قبل أن نسلك طريقاً جبلية مقفرة إلا من مسلحين وشاحنات ومقالع صخر، يتقدّمنا شاب على دراجة نارية. بسبب وعورة الطريق، أصيبت سيارتي بعطل ما أدى إلى تسرّب زيت المحرك منها. انتظرنا في بستان لأشجار الكرز ريثما ذهب الشاب على الدراجة النارية لإحضار زيت للمحرك. تعطل السيارة منعنا من إكمال رحلتنا إلى يبرود، فعدنا ليلاً إلى عرسال. لحقت بنا سيارة من نوع «غراند شيروكي». وعندما وصلنا إلى المخيم، ترجل منها مسلحون. تقدم أحدهم مني مستفسراً عن هويتي، فقلت له: «أنا لبناني، من بيروت». طلب هويتي فأعطيته إخراج قيد مزوّراً يفيد أنني سنّي المذهب. سألني: «ماذا تفعل هنا؟»، فأجبته: «أنا هنا للتصوير لمصلحة شركة إنتاج». مرّت الأمور على خير.

نمت في المخيم المزدحم بالفقراء وبنساء المقاتلين وأطفالهم. استضافني في خيمته فهد حمّادي (الذي تورّط في خطف المصوّر

حسين لاحقاً). كان المقاتلون يأتون إلى المخيم للراحة والاطمئنان على عائلاتهم. في تلك الليلة كانوا يتحدثون عن اشتباكات تجري في القلمون، وعن قتالهم إلى جانب «جبهة النصرة». كان هؤلاء حريصين على استخدام تطبيق السكايب من خلال حساب مزور (بروكسي) كي لا يتم تحديد مواقعهم. ثم أصبحوا يستخدمون لاحقاً تطبيق تيليغرام. استطعت في تلك الزيارة الحصول على عناوين «سكايب» لأربعة منهم.

أثناء وجودي بين المقاتلين سألتهم عن السبب الذي جعلهم يقاتلون مع «النصرة»، فكان جوابهم شبه الموحد: «لأنها الأصدق، وقد أثبتت نفسها على الأرض».

وثق المقاتلون بي إلى حدّ أنهم، بعد فترة، كانوا يتصلون بي ويسألونني معلومات عن شخص ما أوقفته الأجهزة الأمنية. وغالباً ما كنت أسأل، وأرد خبراً لهم بأن لا معلومات لدي حتى لا يعرفوا أني على صلة قوية بالأمن اللبناني.

في القصير، كاد يقتلني حزب الله

عزّزت اللقاءات المتعددة مع جهاديين وضباط سوريين منشقين الثقة بيننا. عرضوا عليّ الدخول إلى سوريا. قمنا بتصوير عملية زرع الألغام ونقلها من مكان إلى آخر. أدخلوني إلى القصير وهناك التقيت قائد «كتيبة الوادي» أبي علي الحربة. كما التقيت أيضاً مجموعة من «كتيبة الفاروق» التي كان يقودها آنذاك القصيراوي موفق الجربان المشهور بـ «أبو السوس».

الوضع الميداني في القصير كان مرتبطاً بشكل أساسي بأبي علي حربة. جماعته من «كتيبة الوادي» هم من كانوا يُسهِّلون دخولي إلى المنطقة وخروجي منها. كان الرجل «أمير حرب» في القصير التي كانت تغص بالسلاح. رأيتها معقلاً للمعارضة السورية المسلحة بعد سقوط بابا عمرو في حلب. فمن انسحب من هناك من المقاتلين لجأ إلى القصير. كنت أعتقد أن ما من أحد قادر على الدخول إلى القصير بسبب التحصينات بداخلها. ورغم محاصرتها من قبل مقاتلي حزب الله، كانت هناك منطقة اسمها «الفتحة»، بمثابة ثغرة كنت أدخل من خلالها مع مسلّحي الفصائل.

القصف الذي تعرّضت له القصير لم يكن مسبوقاً بالنسبة إلى مسلّحي المعارضة. لم تشهده أي من المدن والبلدات السورية قبل معركة القصير. كان حزب الله قد استحدث سلاحاً جديداً أسموه «زلزال». وهو عبارة عن عبوة ناسفة عملاقة تُحدث دوياً هائلاً. بين منطقة وأخرى، كنا نجلس ونهرب ثم نعود إلى المكان نفسه فنجد أشلاء مقاتلين أو حتى مدنيين ممن بقوا في القصير، أو مصابين يُحتضرون. دقائق كانت تفصلني عن الموت، لكنّ الهمّ الأكبر كان إسعاف الجرحى. لم أكن أشعر كثيراً بالخوف. بالأحرى، لم أشعر بالخوف قطّ رغم أني كنت أرى الموت في كل مكان. عملي المجرد من أي موقف كان يشعرني بأن لا علاقة لي بكل ما يجري. كنت أشعر للحظات أني Immortal، إنسانٌ لا يفنى. ولا أخفي أني كنت أتعاطف مع المقاتلين. خرجت روح بعضهم أمامي. مشاهد الدم والدموع لا يُمكن أن تُمحى من ذاكرتي. حتى أن أحد المشاهد لفتني وأتذكره جيداً. جريح يحتضر كان المسعفون يتبرعون بدمه لجريح آخر. كل هذه الصور والأحداث التي عايشتها لم أشعر أنها خلقت لديّ أي «تروما»، لكنها كانت تُضاعف الحزن في داخلي. لم أذهب إلى طبيب نفسي. بعضهم قال لي «أنت أكيد مريض نفسياً، أنت في حاجة إلى علاج».

بعد عودتي إلى وادي خالد، جلست بجسمي المهدود. فكرت ملياً بما شاهدته. حدثت نفسي. «أنا مجنون بالتأكيد. شو بدي بهالشغلة؟

شو خصّني بكل هالمعركة. لنفترض أجت قذيفة فيي ومتت، أهلي مين بدو يعيشن؟ أنا معيل عيلتي». عزمت على أن لا أكرر ذلك، خصوصاً أن حزب الله، بعد عودتي من القصير، اكتشف «الفتحة» ونصب كميناً قتل فيه ٤٠ مسلحاً من جماعة الحربي. ربما كنت سأموت بقذيفة للجيش السوري أو لحزب الله.

اعتمدت أكثر من وسيلة اتصال مع المقاتلين. بعضها آمن وبعضها الآخر غير آمن مثل البريد اليدوي. بعض الذين كنت أتواصل معهم كانوا يرفضون التحدث عبر الهاتف أو عبر تطبيق سكايب خشية أن تكون الخطوط مراقبة، ومن كان يتكلم منهم كان يعتمد لغة متحفّظة. هؤلاء كانوا يتبعون نصيحة أيمن الظواهري، أن أرسلوا بريداً يدوياً أو اذهبوا إلى من تريدون لقائه شخصياً.

تواصلت مع البعض عبر تطبيقات تيليغرام وفايبر وسكايب، ومن مزايا الأخير أن المحادثات المكتوبة عبره إذا حذفتها فإنها تحذف عند الطرف الآخر في الوقت نفسه، وهو ما كنت أحرص عليه.

أما في تعاملي مع الوسطاء، فكنت أخبرهم ماذا أريد وينقلون الرسائل التي كانت مشفّرة أحياناً (Encrypted). أما التواصل الهاتفي فكان يتم عبر هاتف سوري ولبناني أملكه، إضافة إلى رقم أستخدمه لتطبيق «واتس آب» فقط. أما أسماء من أتواصل معهم فكنت أحفّظها بغير حقيقتها حتى لا يقع الهاتف في أيد أخرى.

«عاشوراؤهم وعاشوراؤنا»

كنت أريد الذهاب إلى يبرود. رتّب الزيارة هذه المرة رامي عيشة، صديقي الصحافي في مجلة التايم الأميركية. في اليوم الثاني أو الثالث ربما، أبقيت سيارتي في المخيم واستقللت وصديقي شاحنة «بيك آب» صغيرة مقابل ١٥٠٠٠ ليرة لبنانية. كنت جالساً إلى جانب السائق حاملاً الكاميرا وأقوم بالتصوير. بعد نحو ساعتين توقف السائق خلالهما لكل عابري السبيل الذين كانوا ينتظرون أي سيارة تقلهم. وصلنا إلى منطقة تسمّى مزارع رأس العين. توجهنا إلى بيت مسور أمامه حديقة. كل بيوت تلك المنطقة فخمة وتبعد كثيراً بعضها عن بعض. حلّ الليل، فذهبنا إلى يبرود لشراء دجاج ووقود بالدولار. تعرفت إلى الشباب الذين يؤلفون كتيبة «بلال الحبشي»، وخضنا في نقاشات مختلفة جعلتني مقرباً إليهم.

غالباً ما يكون الخوف هو الشعور الغالب قبل لقاء هؤلاء، ولكن عندما تصبح بينهم يضحي الخوف خلفك، وتشعر أنك واحد منهم. في وقت الصلاة، قال قائدهم «أبو رائد»: «ما حدا ينحرج والتاني ما يقوم يمثل... اللي ما بصلي ما يقوم». فقمت وصليت.

في صباح اليوم التالي تناولنا الفطور، وبدأت إجراء مقابلات معهم. كانت لكل منهم قصته. بعضهم تعرض أهله للقتل، وبعضهم الآخر لا يعرف شيئاً عن عائلته المقيمة في حلب. حديثو الالتزام الديني بينهم كانوا يُمعنون في الـ«هم» والـ«نحن». قال أحدهم: «يا أخي عاشوراؤهم حزنٌ ولطمٌ وإيذاء نفس، وعاشوراؤنا صيامٌ وصلاةٌ وقراءةُ قرآن». ولفت آخر إلى إنّ عناصر تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» وزّعوا مناشير تدعو إلى «صيام العاشر من مُحرّم تقرُّباً إلى الله تعالى».

«أبو الليل»، والد رعد حمّادي الذي تبنّى إطلاق الصواريخ على منطقة الهرمل، وهو رجلٌ خمسيني يُشارك في العمليات القتالية ضد الجيش السوري. قال: «نحن السُّنة منذ استُشهِد صدام حسين تبهدلنا». فتدخل آخر مستنكراً: «صدّام حسين كان قاتلاً. صحيح أنّه قاتل الشيعة، لكن لا تنسوا أنّه قتل الكثير من المجاهدين». احتدم النقاش، فتوافق الجميع على إنهاء الحديث.

«صاعق»، الشاب الحلبي العشريني، تكلم عن ممارسات «تفرضها الدولة الإسلامية علينا»، لكن «أبو رائد»، القيادي الميداني للمجموعة، صحّح له منبِّهاً: «لا تقل تفرضها علينا، بل هي تُنَوِّرُك بأمور دينك». وتحدث آخرون عن «منع التدخين والتشديد على إرخاء اللحى». ورداً على سؤال حول الشيخ أحمد الأسير كان الجواب تأكيداً بأن الأسير «لم ير القصير في حياته قطّ. وصل إلى جوسيه لالتقاط بعض الصوَر ثمّ غادر بسرعة».

أثناء التصوير حضر قائد الكتيبة رعد حمّادي، مطلق الصواريخ على الهرمل، وتوجّه إليّ بالكلام: «تشبه شاباً من آل الحاج حسن». أجبته: «لست هو»، فعلّق: «كأنك هو، ولو كنت هو فعلاً لكنت كوّمتك بأرضك». كان رعد مدخناً شرهاً، لكنه حرص على ألا يظهر مع السيجارة أثناء التصوير، لأن كان له علاقة قوية مع «النصرة» التي تحرّم التدخين.

سهرت تلك الليلة مع المقاتلين أستمع إلى قصصهم عن «ظلم النظام وتورط حزب الله». ولفتني أن رعد لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وعندما كانت تصله رسالة نصّية، كان يطلب من أحدهم قراءتها أو يملي عليه الردّ. أتى الحديث على ذكر مقتل معمّر القذّافي، فاستفسر عمّن يكون. وعندما أخبرته أنّه الرئيس الليبي السابق، ردّ بأنّه لا يُتابع نشرات الأخبار!

قضينا الليلة الثانية في ضيافة رعد. وتبين لي أن الرجل خليط غريب من الطيبة والكرم والفقر والإجرام. لكن شقيقه فهد نصّاب ومتزلف. فيما والدهما «أبو الليل» شخص حقود أبله وبسيط.

في يبرود، التقيت الفلسطيني نضال المغيّر الذي تتهمه أجهزة الأمن اللبنانية بالوقوف وراء تفجير المستشارية الإيرانية في شباط العام ٢٠١٣، والتقيت المسؤول عن تفخيخ السيارات الذي استقبلنا من دون أن ينبس بأي حرف. كما التقيت الشيخ أبو مالك التلي، أمير «جبهة النصرة». سألته الحصول على مقابلة معه، فكان جوابه : «إن شاء الله».

أبو القعقاع ربيب النظام..
ماذا عن تنظيم «الدولة الإسلامية»؟

إنه محمود قول آغاسي، المشهور بـ«أبو القعقاع». هذا الرجل هو صناعة أجهزة استخبارات الدولة السورية. «إمام المسجد» المقيم في حلب صنعه النظام ليشتمه ويحرض عليه، في الوقت الذي كان فيه النظام في عزّ قوته. استخدمته أجهزة الدولة السورية «مغناطيساً» لاستقطاب الجهاديين لقتال الأميركيين في العراق بعد احتلاله عام ٢٠٠٣. بهذه الطريقة، كانت الدولة السورية تضرب عصفورين بحجر واحد: تتخلّص من حَمَلة الفكر السلفي الجهادي الذين يهددون أمنها بتصديرهم إلى العراق للقتال فيه، وتُزعج الأميركيين المحتلين لبلد عربي ومسلم بمقاتلين عقائديين أشدّاء.

ضابط أمنٍ سوري أكد لي أن العميد محمد سليمان كان يتولى متابعة ملف «أبو القعقاع» قبل أن يتولّى الأمر لاحقاً اللواء آصف شوكت. يروي الضابط نفسه أن الكيمياء بين شوكت و«أبو القعقاع» لم تعمل، فـ«استدار» الأخير. سرّبت أجهزة الأمن السورية معلومات وصوراً تفيد بأنه كان يعمل لحسابها، فاغتيل في حلب عام ٢٠٠٧. وقد

وُجهت أصابع الاتهام في ذلك إلى أكثر من جهة، من بينها الأميركيون باعتبارهم أبرز المتضررين من «أبو القعقاع» الذي لم تكن تخلو خُطبه من تهديد أميركا بـ«طحن جماجم جنودها على أرض العراق».

ولعل اتّهام الدولة السورية لاحقاً بلعب دور في صناعة تنظيم «الدولة الإسلامية» مردّه أنّ أجهزة الأمن السورية، بالتواطؤ مع «أبو القعقاع»، كانت تُرسل عناصر استخبارية لاختراق تنظيم «القاعدة» و«دولـة العراق الإسلامية»، وكذلك لأن «الدولة الإسلامية»، في الأشهر الأولى لإعلانها، لم تقاتل الجيش السوري، وكانت استراتيجيتها تقضي بالسيطرة على المعابر التي تُعتبر مصدر دخل رئيساً وشرياناً حيوياً لتمويل التنظيم. وقفت قيادة التنظيم بعدها أمام خيار أي العدوين تُقاتل: الدولة السورية أم فصائل المعارضة؟ قبل أن تخلص إلى أنّ مصلحتها تكمن في قتال فصائل المعارضة بمختلف توجهاتها، لاقتناع المجلس العسكري للتنظيم بأنّ هذه الفصائل، إذا انتصرت على النظام، فإنها ستقاتل التنظيم لإقامة دولة مدنية.

«أبو طاقية».. صاحب الـ«هوليوود سمايل» ليس بريئاً

عرسال بلدة مغرية لأي صحافي. فهي مرادف لوادي خالد. هما منطقتان حدوديتان تجاوران سوريا، وأغلب قاطنيهما يعملون في التهريب بحكم التاريخ والجغرافيا. يشتهر أهالي عرسال بصلابتهم وقساوتهم، حتى يقال إنهم مثل الحجر الصخري الذي تشتهر فيه بلدتهم المليئة بالمقالع والكسارات المعروف بـ«الحجر العرسالي الصلب».

عندما نويت الدخول إلى عرسال، تعاملت معها مثلها مثل أي منطقة: أُقيّمها أمنياً لناحية موقعها والمطلوبين فيها، أُجري دراسة أولية لتقدير المخاطر، أعد لائحة بالأشخاص الذين يجب عليّ مقابلتهم والتعرف إلى خلفيتهم السياسية والدينية، لا سيما مفاتيح المنطقة. مع الأخذ في الاعتبار أن البعض سيرتاب بي بمجرد علمه أنني أعمل لجريدة «الأخبار». لذلك، صرت أحترف التمويه كالزعم أنني أعمل لحساب صحيفة سعودية أو مراسلاً لوكالة أجنبية. وقد استصدرت

إخراج قيد باسم وهمي، وبطاقة صحفية باسم جدي محمد سعيد. وكنت أحياناً أعمد إلى تغيير شكلي، فأطلقت لحيتي ووضعت نظارات سميكة.

بدأت رحلتي في عرسال مع النازحين السوريين، ومنهم فهمت نبض المنطقة. أي من يملك في يده الحل والربط، ومن هو الأقوى. عرفت أن أكثر الأشخاص أهمية هو الشيخ أبو طاقية (مصطفى الحجيري)، وكنت أعرّف عن نفسي أني من طرفه، ولم أكن قد التقيته بعد، راسماً له في خيالي صورة مختلفة.

اكتشفت حينذاك أن بعض هؤلاء النازحين في النهار هم أنفسهم المسلحون ليلاً. وكان بينهم متعلمون ومهندسون ومحامون وأساتذة مدارس وجامعات. كما كانوا ينقسمون بين «الجيش الحر» و«جبهة النصرة».

لعل السؤال البارز الذي كنت أواجه به من قبل هؤلاء هو: «من أين أنت؟ سنّي أم شيعي؟». ولكي أهرب من مواجهتهم بالحقيقة وما قد يترتب عليها، كنت أرد: «أنا من بيروت». وقد ساعدني أيضاً تفصيل أنني ولدت في ليبيا، وأن لدي خلفية معرفية بالعلوم الشرعية. تكررت زياراتي إلى المدينة بمعدل اثنتين أسبوعياً في بعض الأحيان، تعرفت خلالها إلى كثيرين، وحاولت تقديم خدمات للبعض ممن لا علاقة لهم بالسلاح عبر مساعدتهم لدى الأمن العام اللبناني أو لدى جمعيات تُقدّم مساعدات إغاثية. وقد بقيت على تواصل مع هؤلاء لفترة طويلة.

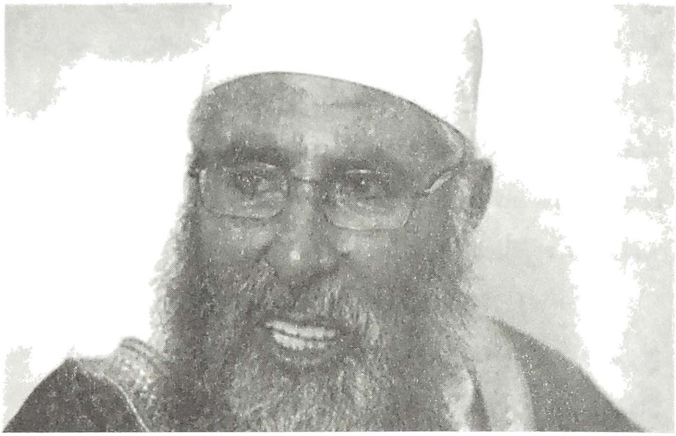

الشيخ مصطفى الحجيري المشهور بـ «أبو طاقية»

في إحدى زياراتي إلى عرسال، تعرّفتُ إلى «أبو طاقية». كانت، ترافقني صحافية أجنبية، نصور لاجئين يقفون إلى جانب الطريق. مرّت شاحنة صغيرة (بيك أب) كما في كل مرة تقل جرحى ومقاتلين بشعور ولحى طويلة قادمين من معركة. قدّرت أنهم من «جبهة النصرة»، فاقتربت منهم مسلّماً:

- السلام عليكم شيخ، أنا صحافي ومعي صحافية أجنبية، هل يمكن أن نجري مقابلات مع الشباب ونصورهم؟
- لا غير مسموح.
- إلى أين أنتم ذاهبون؟

- إلى مستشفى الرحمة في عرسال (مستشفى ميداني لأبي طاقية).

لحقنا بهم، ودخلت إلى المسجد، فيما كانت زميلتي تُجري مقابلات مع نازحين. هناك رأيت أبا طاقية: لباس أفغاني وقبعة بيضاء وأسنان ناصعة البياض كأنها Hollywood smile. كان منهمكاً عندما عرفته بنفسي، فأجابني بـ: «هلا». في المسجد تعرفت إلى مجموعة من الشباب، من بينهم «أبو القاسم» الذي توطدت علاقتي به.

رأيت جرحى ومقاتلين كانوا سابقاً بمعظمهم مع «الجيش السوري الحر»، قبل أن ينتقلوا إلى «جبهة النصرة». سألتهم عن السبب فكان الجواب إنّ «الحر» غير عقائدي، فيما «النصرة» الأقوى على الساحة السورية. فهي فصيل جديد مدرب ومسلّح جيداً والأكثر شراسة بين الفصائل، لكونها تقاتل عن عقيدة، في حين أنّ البقية كانوا مجموعة من المرتزقة يقاتلون وينسحبون أو مسلّحين عشوائيين يجمعهم كره النظام فقط. كان عناصر «النصرة» أكثر انضباطاً، فهم لم يسرقوا أو يفرضوا خوّات ولم يعتدوا على الأعراض أو يعاقروا الخمر كما كانت تفعل قيادات «الحر» وعناصره. كل هذا لعب دوراً في الاستقطاب. وبما أن الإنسان مفطور على حب القوي، فإن حصة «النصرة» كانت أكبر من غيرها من الفصائل. هذه الصورة التي كان ينقلها المسلّحون عن هذا التنظيم.

عدت مرة أخرى إلى عرسال، بعد أسبوع، برفقة الصحافية الأجنبية

نفسها. هذه المرة التقيت أبا طاقية. عرّفني إلى نجله عبادة الحجيري. كان اسم الأخير قد ورد في قضية تفجير سيارتين مفخختين في حيّي بئر العبد والرويس في الضاحية الجنوبية. وقد ذكره وزير الدفاع اللبناني الأسبق بالاسم بوصفه من ضمن المجموعة المتهمة بتفخيخ السيارات ونقلها. حصلت على رقم هاتف عبادة وبدأت بالتواصل معه، وقد سهّل لي لاحقاً الدخول إلى المخيمات وتعريفي المسلحين لاحقاً.

في لقائنا، تكلّم أبو طاقية في العموميات، فلم أحصل منه على ما أريد. لذلك قررت أن أصوّر النازحين. وفيما أنا أقوم بذلك، اقترب أحدهم مني، وسألني: «ماذا تصورون؟ هل يهمك الدخول إلى يبرود؟». فأجبته: «بالتأكيد... عند أبو مالك؟». فنظر إلي بريبة مستفسراً: «هل تعرف أبو مالك؟». أجبته: «نعم (ولم أكن أعرفه). أليس الشيخ الذي يلبس نظارات؟». هنا نظر إلي الرجل وقال: «والله منّك قليل»، ثم عانقني، وسألني: «يا شيخ أنت من وين؟». أجبته: «أنا من بيروت». «يعني مسلم؟»، أجاب: «الحمد لله».

أشار بعينيه إلى الصحافية الأجنبية وقال: «أقنعها بأن تذهب لتصوير مقابلة مع الشيخ والمعسكرات».

ذهبت إليها متصنعاً الحديث ثم عدت إليه قائلاً: «تريد أن تحصل على إذن من الإدارة أولاً».

- «تُصور معسكرات»، قال بإلحاح.
- «ربما تنوون اختطافها»، رددت متبسِّماً. فضحك الرجل طويلاً:

- «نعم ولكن لن نسيء إليها أو نؤذيها، معاذ الله».
- لماذا؟
- لأنها أجنبية وبيطلعلنا منها مصاري.
- وأنا كم حصتي؟.
- ندفع لك ٥ آلاف دولار.
- أريد ٢٠ الفاً. ستحصلون على فدية مليون دولار وتعطونني منها خمسة آلاف فقط؟.
- ستحصل على ما تريد لكن اقنعها بالدخول.

ذهبت لأتكلم معها ثم أجبته: «نريد أن ننتهي من التصوير».

غافلته وأبلغت زميلتي بأن علينا الخروج فوراً. وعندما خرجنا من عرسال شرحت لها تفاصيل العرض.

لعل من أكثر السمات التي ميزت من التقيتهم من المقاتلين هي الحقد القائم على الظلم أو الجهل. فشخص مثل رعد كان من الطفار ومطلوباً للعدالة قبل بدء الأحداث السورية، لكن كان يوجد أناس آخرون متعلمون أجبرتهم الظروف على حمل السلاح. كما يصح القول في البعض إنهم كانوا برؤوس يابسة. كان هؤلاء جميعاً يفتقدون إلى قائد، ودائماً يطمحون إلى دولة.

ماجد الماجد قتلته صورة...
وحُقنة سامة؟!

عند توقيف أمير «كتائب عبد الله عزام» ماجد الماجد عام ٢٠١٤، كنت أعمل لأعرف كيف تم توقيفه؟ وأين؟ وماذا سيفعلون في «جبهة النصرة» و«كتائب عبدالله عزام» من أجله؟

تواصلت هاتفياً مع «أبو القاسم» الذي كان قد أبلغني بأنه يعمل مع «النصرة»، لكنه فعلياً كان قد أصبح مع «الدولة الإسلامية»، فقال: لديهم معلومات أنّه «يوجد عميل وراء ما حصل»، وأنهم يشكّون بأن هذا العميل أرسل صور «الأمير» أثناء وجوده في المستشفى للأجهزة الأمنية.

طلب مني قائلاً: «نريد منك مساعدتنا على معرفة هوية العميل».

هنا تدخّل أحدهم وقال بلهجة لبنانية: «هل بمقدروك أن تحصل لنا على معلومات عن أبو عائشة اللبناني (وهو مع «جبهة النصرة)؟»».

أخذت منه الاسم الثلاثي، وسألت عنه، وعن طريق الخطأ قدمت اسم جده بدلاً من اسمه الشخصي، فكان الرد الأمني على الاسم الذي

قدمته أن لا شيء عليه. أبلغت الرجل بالرد، فصار يضحك، سألته عن سبب ضحكه. قال: «أنت أكيد غلطان».

أعدت طلب السجل مجدداً خوفاً من أن يكون الضابط قد أراد الإيقاع بي، وقدمت هذه المرة الاسم صحيحاً. أتى الجواب إنّ أبا عائشة متهم بتشكيل مجموعة مسلحة، ومهاجمة حاجز للجيش، ولائحة طويلة من الاتهامات بالأعمال الإرهابية.

أعدت إخبارهم، فقال: «الحمد لله». فقلت: «عجيب أن يحمد أحدكم الله على هذا». قال: «سأحكي لك هذه الحكاية، هناك شيخ في سجن رومية كان يدعى أبو طلحة الكويتي، حَمَد الله بعد علمه بصدور الحكم الخامس بحقه بالإعدام». وقد هرب وقتل لاحقاً.

وقع أمير «كتائب عبد الله عزّام» ماجد الماجد في قبضة الجيش في كانون الثاني من عام ٢٠١٤. الخبر حينذاك يكاد لا يُصدّق. توقيف مطلوبٍ بأهمية الإرهابي السعودي حيّاً حلمٌ راود أجهزة أمنية كثيرة قبل أن يتحقق، إلا أنه أربك المؤسسة العسكرية. ما إن سُرّب الخبر، حتى سارعت محاولات إلى احتوائه. فلم يخرج بيانٌ رسمي عن قيادة الجيش يوضح ملابسات التوقيف، ولم يؤكد الخبر ولم ينفه أي مسؤول رسمي. وحتى نفي وزير الدفاع فايز غصن تصريحه حول الأمر من دون إثبات «الإنجاز» أو نفيه، بدا مريباً. كل شيء في شأن العملية لم يكن عادياً، تماماً كما هو ماجد بن محمد الماجد، أمير أحد أذرع الجهاد العالمي، وقائد أحد أكثر التنظيمات الجهادية سريّةً. وهذا ما يتطلّب التحسّب من ردود فعلٍ انتقامية.

قبل عشرة أيام من اعتقاله، أرسلت الاستخبارات الأميركية برقية عاجلة إلى «فرع الأمن الاستراتيجي» في وزارة الدفاع اللبنانية، تفيد بأن الماجد موجود في جرود بلدة عرسال اللبنانية، وأنه نقل إلى أحد منازل البلدة بعدما ساء وضعه الصحي. وبعد يومين، وصلت برقية أخرى تفيد بأن اتصالات تجرى لنقل الماجد إلى بيروت للعلاج لحاجته إلى عملية غسل كلى عاجلة. يوم الثلاثاء، في ٢٤/ ١٢/ ٢٠١٣، تولّت سيارة إسعاف نقله من عرسال إلى مستشفى المقاصد في بيروت. عندها وصلت برقية أميركية عاجلة تؤكد أن قيادياً في تنظيم «القاعدة» موجود في أحد مستشفيات العاصمة.

في هذه الأثناء، تشكّلت خلية خاصة في مديرية الاستخبارات، وتولّى فريق لإحصاء كل من دخل مستشفيات لبنان أو لا يزال فيها لمعالجة أمراض الكلى. وبعد بحث، أُحصي نحو ٤١٥ حالة جرى التحقّق من أنها تعود جميعاً للبنانيين، ما عدا اثنتين، إحداهما لمواطن عربي تم التثبت من هويته في أوتيل ديو، وأخرى لشخص مجهول في مستشفى المقاصد، قبل أن يتبين أن هذا الرجل دخل المستشفى مستخدماً بطاقة هوية مزورة تحت اسم محمد طالب.

وفي وقت لاحق، أرسل مُخبر إلى المستشفى، وتم استغلال لحظة نوم الماجد بسبب حقنة مهدئة، لالتقاط صور له، تم نقلها مباشرة إلى اليرزة حيث جرت مطابقتها مع صور للماجد، وعندها تقرر إعداد خطة لتوقيفه.

أول الاقتراحات كان دهم المستشفى لتوقيفه ونقله من هناك، ولكن برزت محاذير أمنية ناجمة عن احتمال أن يكون خاضعاً لحراسة خاصة قد يؤدي الاصطدام معها إلى اشتباك يُستغل لتهريب الماجد أو حتى لقتله، ثم تقرّر انتظار تقرير الطبيب. وبعد ظهر الخميس، في ٢٦/ ١٢/ ٢٠١٣، ورد اتصالٌ هاتفي من مستشفى المقاصد إلى غرفة عمليات الصليب الأحمر يطلب نقل مريض سوري الجنسية إلى البقاع. وتشير المعلومات إلى أن «أمر المهمّة» الذي أوكل إلى ثلاثة شبّان من الصليب الأحمر، تضمّن إيصال المريض الذي يعاني فشلاً كلوياً إلى البقاع، حيث كان يُفترض أن تتسلمه منهم سيارة إسعاف أخرى لنقله لتلقي العلاج. وتضيف المصادر، «لم يكن الشباب الثلاثة على علم بهوية المريض»، مشيرة إلى أن مرافقاً مدنياً كان يفترض أن يرافق المريض، لكنه لم يحضر لسبب مجهول. على هذا الأساس، انطلقت سيارة الإسعاف من مستشفى المقاصد في اتجاه البقاع. لم تكد السيارة تتجاوز مبنى المديرية العامة للأمن العام في فرن الشبّاك عبر الطريق السريع باتجاه مستديرة الصيّاد حتى قطعت الطريق عليها سيارات عسكرية تابعة للجيش اللبناني.

تضيف الرواية إن عناصر «القوة الضاربة» في استخبارات الجيش انقضّوا على سيارة الإسعاف في عملية خاطفة. فوجئ المسعفون بما يجري. ورغم تعريفهم عن أنفسهم، تعرّضوا للضرب قبل تقييدهم ظنّاً من القوة العسكرية أنّهم متواطئون مع المشتبه فيه. تؤكد المصادر أن

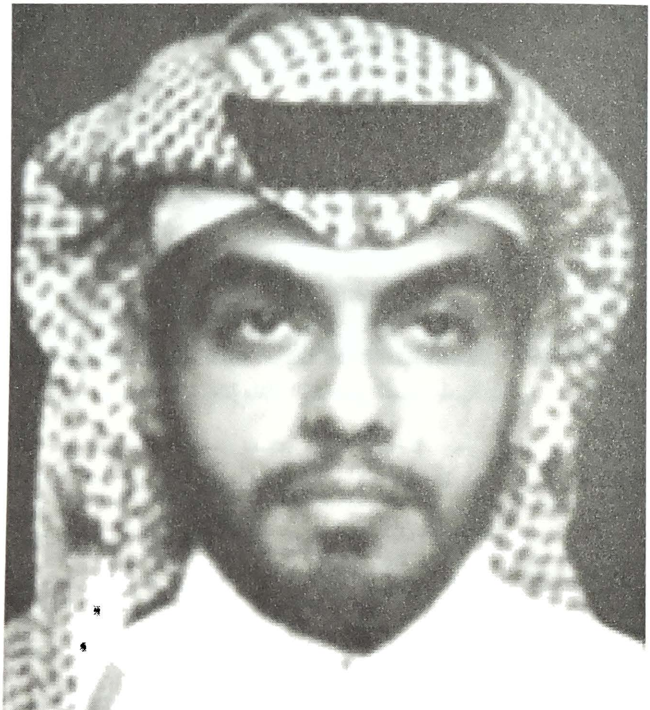

أمير كتائب عبد الله عزام ماجد الماجد

جثة ماجد الماجد في السعودية

الماجد كان في كامل وعيه في تلك الأثناء، وقد أخبرني أحد عناصر الأمن الذي شارك في توقيفه أنّ الماجد كان مصدوماً لدى توقيفه. لم يُقدم على أي حركة، كان يُدير رأسه متفحّصاً العناصر الذين أوقفوه بعينين جاحظتين. ولم يكن معه أي مرافق.

يشار إلى أن الأجهزة الأمنية تلقّت سابقاً معلومات عن الوضع الصحي السيئ للماجد، وأن إحدى كليتيه قد تعطلت، فيما تعاني الأخرى متاعب ألزمته التوجه مراراً إلى مراكز لغسل الكلى. وهو كان يلجأ إلى إحدى الشقق في بيروت للراحة قبل أن يعود أدراجه. وكشفت المعلومات أن أحد مساعديه كان يرافقه بصورة دائمة. بعد توقيف الماجد، عقد اجتماع خاص في مكتب قائد الجيش ضمّه وكبار

ضباط الاستخبارات، وتم الاتفاق على حصر معلومة توقيفه بفريق ضيق، وكيفية المباشرة بالتحقيق معه قبل تدهور صحته. كما خُصص طاقم طبي للإشراف على وضعه الصحي، فيما قالت مصادر أمنية أن لا معلومات جدية تم استخراجها من الماجد بسبب تدهور وضعه الصحي.

بعد ثمانية أيام، فارق ماجد الماجد، رجل الأسرار، الحياة، كما قضاها، بغموض. لم يُعرف إذا تُوفي أم قُتل؟ ووسط أجواء التشكيك، خرج مفوض الحكومة لدى المحكمة العسكرية القاضي صقر صقر ليؤكد الخبر، معلناً تكليف طبيب شرعي للكشف على جثّة الماجد. هكذا كانت نهاية المطلوب السعودي، الذي تنقل المصادر أنّه «كان فاقداً للوعي في أيامه الأخيرة. وأنّه عندما يستيقظ يكون في حالة هلوسة ويبصق دماً». ورغم إصدار تنظيم كتائب عبدالله عزام بياناً يروي فيه سيرة أميره الراحل، مؤكداً أنّ الوضع الصحي للماجد كان سيئاً، إلا أنّ رواية جرى الهمس بتفاصيلها تحدثت عن حقن الماجد بحقنة مركبة من مواد خاصة لتصبح «حقنة سامة» لتسوء حالته الصحية ويُفارق الحياة، ويظهر أن وفاته حصلت بشكل طبيعي نتيجة تسمم دمه بفعل التهاب الكلوي.

الفصل الثالث

علي... ابن المخيم المغدور

قبل سنوات، قصد الشاب الفلسطيني علي خليل (مواليد ١٩٩٢) مكاتب صحيفة «الأخبار» باحثاً عن عمل، أيّ عمل. لم يكن يحمل شهادة جامعية. ولا يعلم شيئاً عن أصول الكتابة الصحافية، لكنّه كان يعرف معظم كتّاب «الأخبار». فقد كان من قرّاء الصحيفة المواظبين وتربطه صداقات عبر الفايسبوك ببعض كتّابها، رغم أنّ «عديدين يتهمونها وقناة الجديد بتصوير المخيّم كبؤرة للإرهاب وإهمال معاناته».

لم يكن علي يشاطر أهل المخيّم هذه الرؤية، إنّما كان يلقي باللائمة على الدولة اللبنانية المسؤولة عن تردّي حاله. كان ابن شقيقة الشيخ أسامة الشهابي يعرف المطلوبين من أبناء عين الحلوة فرداً فرداً. في نظر علي، «قلّة منهم تحمل مشروعاً، وبعضهم الآخر تجّار، فيما الأغلبية بينهم مظلومون ثمّ مجرمون بالإجبار». تحدّث يومذاك عن «جيش المخبرين الذي يفبرك الأخبار بحق أبناء المخيم ليقتات بها على فتات الأمنيين». والمظلومون، في عُرف علي، هم أولئك الذين تُزجّ أسماؤهم في أحداث أمنية، هم براء منها، فيُدفعون إلى

عدم الخروج من المخيّم خشية التوقيف، ويفاقم الأزمة فقدان الثقة بالقضاء العسكري بفعل التجربة. وبحسب ما أسرّ علي وقتذاك، «بعد مدّة، سينجرف المظلوم اليائس والمحاصر في المخيّم نحو الجريمة، أو قد تجتذبه إليها جماعة معيّنة ينتمي إليها ويضرب بسيفها... والدافع لذلك ظلم الحكومة اللبنانية وفقدان المتّهمين الأمل بتسوية قريبة تُنقذهم». كان علي يختلف عن كُثُر من أبناء جيله. كان يعيش صراعاً فكرياً داخلياً بين ما تنشده نفسه وما شبّ عليه. في تلك الفترة، كان متأثراً بحزب الله. كان يحفظ معظم أناشيده الثورية ويحلم بأن يكون مقاتلاً في صفوفه. ويقول: «لاحقاً سبّبت لي مجاهرتي بحبّ السيّد حسن نصرالله بعض المشاكل في المخيّم». يروي علي أنّه كان يفاخر وسط أقرانه بحبّه لأهل البيت الذين «عرّفني إليهم خالي الشيخ أسامة الشهابي الذي لم يكن يفوّت عليَّ فرصة من دون أن يقول إنّهم قدوته».

قرابة الثانية من فجر يوم أحد، قتل مجهولون ملثمون علي نضال خليل في مخيم عين الحلوة. انطلقت «الثورة السورية» واستمرّ الوضع على حاله في المرحلة الأولى. في تلك الأثناء، كان علي يود الزواج بفتاة شيعية يُحبّها، لكنّ وضعه المالي الصعب حال دون ارتباطه بها. بحث كثيراً عن عمل من دون جدوى. ثم وجد عملاً «مياوماً» حتى تمكّن من بناء منزل بالقرب من منزل أهله.

في المخيّم، كان شقيقه الأكبر وخاله خليل الشهابي يتّهمان بالتشيّع. أما خاله أسامة الشهابي، أحد أبرز «قاعديي» عين الحلوة،

والذي يتّهمه القضاء العسكري بالتورّط في عمليات إرهابية والانتماء إلى «فتح الإسلام»، فتأخذ عليه بعض المجموعات الأصولية رفضه تكفير عوام الشيعة. فيما أصبح شقيقه الأوسط، أحمد (مواليد ١٩٩٠)، مطلوباً بعد ورود اسمه في أحد التحقيقات المتعلّقة بعبد الغني جوهر (المتهم بتفجيرات ضد الجيش في الشمال عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨).

علي نضال خليل قتيل «إسلام المخيمات»

لم تدم حال علي طويلاً. ترك العمل وضاقت به سُبل العيش. بحث كثيراً عن مصدر رزق من دون جدوى. فقد الأمل بالارتباط بحبيبته الأولى. انطوى على نفسه أكثر واعتزل الناس لفترة. بعد مدّة، أوقف أحد أصدقائه على مدخل مخيم الرشيدية للاشتباه فيه بالتخطيط لعمل إرهابي. ومنذ أشهر قليلة، أُدرِج علي نضال خليل على لائحة المطلوبين. لم يكن قبلها كذلك. كان يخرُج من المخيّم متى يشاء، لكنّه لم يعد كذلك. تزامن ذلك مع تداول بعض الفصائل الفلسطينية اسمه بوصفه مشاركاً في الأحداث الأمنية التي ضربت المخيّم في الآونة الأخيرة، وتحديداً عمليات الاغتيال. في الشهرين الماضيين، كان علي يشكو ظروفاً صعبة بسبب غياب أي فرصة للعمل داخل المخيّم، لكنّه كان يعزي نفسه بأن «السجن لمصلحة الإنسان أحياناً»، قاصداً أسوار المخيّم التي ارتفعت في وجهه. موقفه من حزب الله كان قد تغيّر. لم يُفصح أكثر، قال فقط إنّه لم يعد يراه كما كان. في المحادثة ما قبل الأخيرة، ذكر علي أنّه بدأ يتابع دروساً دينية لدى الشيخ بهاء الدين الحجير. ولدى سؤاله حينذاك إن كان الأخير هو نفسه المتّهم بالتورّط بتفجيري السفارة الإيرانية، ردّ بنعم. لكنه اعتبر أن «التهم باطلة بحق الشيخ الذي درس في السعودية وله من العلم سعة ويستحيل أن يهدر دماء الأبرياء»، ثم انتقل إلى الحديث عن مضمون كتابٍ يقرأه قال إن اسمه: «أشراط الساعة»، شارحاً أنّه عن «علامات يوم القيامة الكبرى والصغرى».

قرابة الثانية من فجر يوم أحد، قتل مجهولون ملثمون علي نضال خليل في حي الصفصاف في مخيم عين الحلوة. وبحسب المعلومات وقتذاك، لم يكن هناك اشتباك، إنّما كانت «عملية اغتيال وتصفية». فقد كمن مسلّحان لعلي ثم أطلقا النار عليه وأصاباه بجروح خطرة، نُقل أثرها إلى مستشفى لبيب الطبي، لكنه ما لبث أن توفّي.

لم يُرِد علي خليل أن تكون حياته كما كانت. كان يود العمل ليتزوّج ويؤسّس عائلة صالحة. في إحدى المرّات قال ممازحاً: «لو كان معي ٢٠٠٠ دولار لكنت تزوّجت وأنجبت طفلاً يحمل اسمي». قصّة علي تنسحب على كُثر من أبناء المخيمات، وتحديداً «عين الحلوة». تداول أصدقاء علي عبر الواتس آب نشيداً كان قد سجّله بصوته، وأهداه إلى السجناء الإسلاميين في سجن رومية المركزي. لم يبق من علي سوى صوته الصادح ببضع كلمات تحكي عن لسان حال كثيرين مثله: «متّعونا بهواء منعه كان حراماً... ليس بعد الليل إلا بدر فجرٍ يتسامى».

علي هو قتيل «إسلام المخيّمات». دخلت بعد قتله إلى صفحته الخاصة على «الفيسبوك». لا تتحرّك. ما عاد فيها حياة. لا رسائل جديدة تصلني منه. أين الفتى، اللاجئ ابن اللاجئ، ابن مخيّم عين الحلوة، الذي لم يبلغ العشرين بعد؟ لقد مات علي. مات مقتولاً، مظلوماً، حائراً، فقيراً كما ولد وعاش وعرفته.

قبل سنوات راسلني، أوّل مرّة، على موقع التواصل الاجتماعي

حتى تم اللقاء. لم أكن أعرفه، لكن هو كان يعرفني، ككاتب صحفي، من متابعته المقالات التي أنشرها في جريدة «الأخبار». شاب طويل القامة، ضخم البنية، وقد لفت نظري حجم حذائه الكبير، الذي عرفت أن مقاسه ٤٥... بعدما سألته. ضحكنا يومذاك في لقائنا الأول. كان لطيف المعشر. أثناء اللقاء تذكرت أنه يضع صورة السيّد حسن نصرالله على «الفيسبوك» كصورة شخصية له. سألته عن الأمر، فأخبرني عن حبه للسيّد، ولحزب الله، وتأثره الخاص بآل البيت، وذلك كما علّمه خاله أسامة الشهابي! خاله أحد أبرز الوجوه «القاعديّة» داخل مخيّم عين الحلوة الفلسطيني. كان اسم تنظيم «القاعدة» لسنوات خلت، ولايزال نسبياً، يمثل رعباً في لبنان. حكاية علي أعقد مما تبدو ظاهراً. لم يكن من الصعب الخروج بهذا الانطباع عنه.

وفتح علي قلبه، وحكى. «المخيّم مظلوم في الإعلام»... سرد حول هذه الفكرة الكثير من الأوجاع ببلاغة لافتة. كان يحفظ شذرات من كتاب «نهج البلاغة» لعلي بن أبي طالب. التقيته لاحقاً في صيدا، غير مرّة، وأخبرني أنه فتح خطاً على حزب الله، ولفرط حماسته راح ينظّر للتشيع داخل المخيم، المخيم السنّي في نهاية الأمر، معتبراً أنه بذلك «يصدح بالحق». شاع سرّه، الذي ما عاد سرّاً، أخيراً. انتشرت حكاية «تشيّعه» بين أبناء المخيم. ذلك المخيم الذي يعج بالحركات والتنظيمات والجماعات الإسلامية السلفية. بعضهم طلب من خاله، الشيخ أسامة، أن يلجم ابن اخته وينهاه عما صار عليه. أخبرني كل

ذلك. ساعدته مادياً، غير مرة، كنت أعطيه بعض المال إثر طلبه. طالت مدة بحثه عن عمل. لم أكن أعلم أن غيابه لفترة، ثم عودته للتواصل معي، ستريني شخصاً آخر غير الذي عرفته. راسلني من حساب جديد له على «الفيسبوك». لا صورة للسيد هذه المرّة، بل صورة لتلك الراية السوداء اللون، وعليها: «لا إله إلا الله». كان ذلك بعد التفجير الذي ضرب السفارة الإيرانية في بيروت. سألني عن حالي، ثم تكلّم عمّا يفعله حزب الله في سوريا، بلغة سلبيّة، وهنا انتبهت إلى أن خطاب علي قد طرأ عليه تغيير انقلابي.

سأتحقق لاحقاً، بعيني، من هذا التحوّل. التقيته في المخيم. أرخى لحيته، وهي قليلة الشعر أصلاً، لحية يقصد بها أنه أصبح في مكان آخر.

– ما الحكاية يا علي؟ دعنا نجلس قريباً في المقهى الذي نلتقي فيه عادة.

– لا يمكنني أن أخرج من المخيم بعد الآن.

أصبح مطلوباً للجيش اللبناني. يعرف أن اسمه أصبح عند حواجز الجيش، عند مداخل المخيم، وفي كل مكان، وبالتالي دخل مرحلة التواري عن الأنظار. حصل ذلك إثر توقيف الجيش لشاب يعرفه، عند مدخل مخيم الرشيدية، قيل إنه كان يتجهز لتفجير جسده داخل المخيم، ووصل إلى المحقّقين أن هذا الشخص تربطه علاقة بعلي.

لاحقاً، طلب علي مني مبلغ ٢٠٠٠ دولار لأنه يريد أن يتزوّج.

في ظل هذا العصف الذي يضرب أفكاره، حياته، حاضره ومستقبله، عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وأمنياً، علي يريد أن يتزوج! إنه الحب. كان يحب فتاة. أجزم أنه كان صادقاً في ذلك. كنت أعرف أن عليّاً يُحب، مثله لا أتصور أن يكره، لمجرد الكره، بعدما لمست مراراً طيبته وبساطته وعفويته... وضياعه. استطعت آنذاك توفير مبلغ ٥٠٠ دولار من أجله، كنت سأعطيه إياها في لقاء قريب، اتفقنا عليه، لكن تأجل الموعد بسبب عملي وانشغالاتي المفاجئة.

غاب علي. قتل «الشيخ عرسان» داخل مخيم عين الحلوة. المقتول محسوب على جماعة إسلامية سنّية، غير معادية للشيعة سياسياً في لبنان، هي جمعية المشاريع الإسلامية، والتي تُعرف بين الناس باسم «الأحباش». أيعقل أن يكون ما أسمعه صحيحاً؟ أن يكون علي هو القاتل! سألت نفسي. لا أعلم. لا تهم السياسة هنا. الحكاية عن شاب كنت أراه يذوي، يذوب، يتحطم، أكثر مما يحطم المخيم أبناءه في الحالات العادية. الحكاية لم تعد هنا مجرد فقر وحرمان وقلة تعليم وبطالة. كنت أرى بعيني كيف يموت أحدهم قبل أن يموت حقاً. كنت عاجزاً عن فعل الكثير.

شاع في المخيم أن القاتل هو علي. وصلتني هذه الأصداء. تواصلت معه، وحددنا موعداً للقاء قريب، لكن قُتل قبل اللقاء. مجموعة مسلحة كمنت له في المخيم، فتمت تصفيته. مات علي. لم أره بعدها... إلا في خيالي. انتهت رحلته. حزنت كثيراً، أكثر مما

كنت أتوقع، كنت أراه طفلاً، وكان يريد أن يصبح شيئاً. لقد أصبح... قتيلاً. كتبت عنه مقالاً في الجريدة، ووصفته، في العنوان، بالمغدور. هذه قناعتي. كان مظلوماً. بغض النظر عن ارتكابه لجرم القتل أم لا، لكن نمط عيشه، كفلسطيني لاجئ، أساساً، وكحالة خاصة لها ما لها من أزمات عائلية وتربوية وعقائدية وتنظيمية، كل ذلك كان يشكل في نظري حياة ظالمة له.

بعد نشر المقال، وصلتني رسالة من فتاة اسمها فاطمة، حبيبة علي الأولى، والتي لم تقبل عائلتها أن تتزوج منه لأنه سنّي وهي شيعية، ولأنه فقير الحال أيضاً. أخبرني مراراً كم كان يحبها. الآن ذهب من حياتها إلى الأبد. ليست هي، بالمناسبة، التي كان يريد أن يتزوجها. حكايته مع فاطمة قديمة، وانتهت. كان يريد الزواج بأخرى اسمها عائشة. لم يتزوج أي منهما. لا فاطمة ولا عائشة. توسلت إلي فاطمة حتى ألتقيها، كانت تريد أن تخبرني شيئاً، لكن لم أستطع تلبية الطلب. لم أكن حينذاك في مزاج يسمح لي بسماع أي شيء.

استفزني جداً ما حصل لعلي. لم تكن حادثة عابرة عندي. سألت كثيراً حتى أعرف ما الذي حصل معه. عرفت، في مرحلة لم أكن أتواصل معه فيها، أنه بدأ يتلقّى دروساً دينية عند الشيخ بهاء الدين الحجير. كان هو قد ذكر اسم هذا الشخص أمامي مرّة. كان اسمه مرتبطاً بالعملية المزدوجة التي ضربت السفارة الإيرانية في تشرين الثاني عام ٢٠١٣. الشيخ كان «وسيطاً» في تلك العملية. فنسّق مع الانتحاريَين معين أبو

ضهر وعدنان المحمد منفّذي الهجوم، أعرف أنه شخص متطرف جداً، كما تصفه الأجهزة الأمنية، فقلت هذا لعلي مرة، وأنه مرتبط بتلك العملية، فكان ردّه عليّ: «يقولون ذلك».

علمت لاحقاً أن الشيخ الحجير يبيت عند شخص مقيم في المخيم، اسمه بلال بدر، والأخير أحد الملاحقين أيضاً، وهو من المنتمين إلى جبهة النصرة. ما أعرفه، حقيقة، أن بدر، حتى ذلك الحين، كان قد قتل أكثر من ٢٣ شخصاً. لقبه «عزرائيل». إذا قرر قتل أحدهم يقصده إلى بيته، ويفعلها. لديه مجموعة إسلامية تعاقب بالجلد كل شاب «يتحرش» لفظاً بفتاة في الشارع. في هذه الأجواء عاش علي داخل المخيم. في هذه البيئة، التي، ومنذ نعومة أظفاره، كما أخبرني مراراً، كان يعرفها ويفهم كثيراً من طلاسمها.

بعد اغتياله، توطدت علاقتي بشقيقه أحمد. الأخير أكبر من علي بسنوات قليلة. أيضاً في البداية كان لديه علاقة تواصل مع حزب الله قبل أن تنقطع. حاله من حال كثيرين من أبناء المخيم. كنت أتواصل معه بواسطة «الواتس آب». كان ينقل إليّ أحياناً بعض عناوين ما يجري في المخيّم. أردت الذهاب للمشاركة في عزاء علي، داخل المخيم، إلا أن الوضع الأمني كان متوتراً في تلك الأيام، فلم أتمكن من ذلك. أسامة الشهابي، خال علي وأحمد، كان يرتجف من الحزن في العزاء، كان متأثراً جداً، هذا ما عرفته منه شخصياً، وفي عزاء ابن شقيقته هدد من على المنبر: «نحن نستطيع حرق المخيم. ما حدا يجرّبنا». أعرف

أنه كان قادراً على ذلك. لديه مجموعة من الشبّان الجاهزين والأوفياء له.

أحمد، شقيق علي، كان في وضع ماديّ غير مريح. بشكل غير إرادي، كنت أقارن بينه وبين علي. أحمد يتميز بشيء من القسوة، مقابل اللين الموجود لدى علي. أحمد يتواصل معي لأن خاله يثق بي. دخل السجن، ثم خرج، ثم أصبح ملاحقاً بتهمة أمنية، تحديداً في ملف عبد الغني جوهر. القضية «إرهاب» مجدداً. قرابته من خاله الشيخ أسامة وعلاقته به وحدها تهمة عند الاستخبارات. عرفت لاحقاً أنه انضم إلى «جبهة النصرة»، ثم تركها والتحق بتنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش). سألت خاله عنه بعد ذلك، فقال: أحمد بطبيعته أقرب إلى «الدولة». دموي. كان يجلب الناس ويجلدهم. طبعه عنيف.

كل هذا لم يكن يهمني في تلك المرحلة. كنت مأخوذاً بموت علي، بتلك الطريقة، بهذا البرود. علي الشاهد الحي، عندي، على كيفية صنع مأساة إنسانية داخل مخيم للاجئين الفلسطينين. مأساة شاب كان يريد أن يكون شيئاً، أن يفعل شيئاً، أن يكون له كيانه. كان يمكن له أن يكون شيئاً آخر، لو كان الحال مختلفاً، ربما، أو لو ولد وعاش في مكان آخر، وأنا أشهد على ذلك.

«أبو الأفغان» الذي أعدّ لـ «جحيم لبنان» باعه «عميل مزدوج»

أحمد مرعي لبناني يحمل الجنسية الدانماركية. أوهم الاستخبارات الدانماركية وتنظيم «القاعدة» أنه يعمل لحسابهما في الآن نفسه. بدأت القصة بعد حرب العراق. تشرد العراقيون بين سوريا ولبنان، وكان الرجل على تماس معهم. في العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ كان أحد الأساسيين في تنظيم «فتح الإسلام». أوهم الاستخبارات الدانماركية أنه يساعدها. كان كلما أتاه عراقي طالباً مساعدته للحصول على تأشيرة دخول إلى الدانمارك، يطلب مقابلها ٥ آلاف دولار. وعندما يحصل عليها، يبلغ المخابرات الدانماركية بأن العراقي عنصر في «القاعدة» فيوقفونه. هكذا، كان مرعي يقبض من الطرفين.

لكن ما علاقة مرعي بـ«أبو الأفغان»؟ هذا الأخير أردني الجنسية وقيادي مهم جداً في «القاعدة»، شغل في فترة من الفترات منصب «أمير الأنبار» في العراق. نفذ الأميركيون عملية أمنية خاصة لقتله واعتقدوا أنهم قضوا عليه. أقامت عائلته مراسم الدفن وتقبّلت العزاء، لكنه كان لا يزال على قيد الحياة. انتقل إلى لبنان وانضمّ إلى «فتح الإسلام» بعد

لقائه أحمد مرعي. وجود مرعي مع مطلوبين حال غير مرة دون القبض على هؤلاء، إذ كانت المخابرات الدانماركية تتصل بفرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي محذّرة بأن «رجلنا في الداخل».

مرعي كان يعلم جيداً من هو «أبو الأفغان»، وأن هناك جائزة قيمتها ٢٠ مليون دولار لمن يرشد الأجهزة الأمنية إليه. جاء «أبو الأفغان» إلى لبنان ليستطلع الأرض من أجل تنفيذ مجموعة تفجيرات في يوم واحد، فتواصل مرعي مع السفارة الأميركية عارضاً إرشاد الأميركيين إلى مكانه. كان قد جهّز نفسه جيداً. ولما أبلغوه أن الرجل ميت، قدّم إليهم خصلة من شعره لإجراء فحص DNA والتثبّت من أنه لا يزال حياً. لكن حصل ما جعل «أبو الافغان» يشتبه بأنه مراقب. إذ أُوقف صاحب مستودع استأجروه لتخزين بودرة الأمونيوم التي تزيد من عصف الانفجارات، فاستشعر بأن هناك خرقاً وغادر لبنان فوراً. بعد فراره، لم تحل وساطات المخابرات الأجنبية دون توقيف مرعي في شقة في شارع المئتين في طرابلس. قبل دهم فرع المعلومات للشقة، وردت اتصالات من المخابرات الدانماركية والأميركية لوقف العملية. لكن فرع المعلومات أصر على إكمال العملية وأوقف مرعي. جرت اتصالات أخرى للإفراج عنه، إلا أن فرع «المعلومات» كان يشك في تورطه مع الجهاديين. لذلك، قبل الإفراج عنه بساعات قليلة، جهد محققو فرع المعلومات للحصول منه على اعتراف، وأخضعوه لتعذيب شديد، تضمّن اغتصابه بعصا. عندها أقرّ بكل شيء، فما كان من فرع المعلومات إلا أن أبلغ المخابرات الخارجية باعترافاته.

أمام القضاء، توعد مرعي بقتل من حققوا معه وعذبوه بالقول «سأقوم بقتلهم بعد خروجي»، مسمياً للقاضي أسماء الضباط. وهو الآن لا يزال في سجن رومية يقضي محكوميته. وقد استعان الأمن العام به في سجن رومية ليلعب دوراً في الوساطة مع أفراد من قيادة تنظيم «الدولة الإسلامية» قبل بداية المعركة في جرود رأس بعلبك والقاع.

بعد مقالتي عن «فتح الإسلام»، بفترة بدأ الجهاديون يثقون بي. حيث طلب مني أحد المسؤولين في «النصرة» بريدي الإلكتروني لتصلني منه رسالة هي عبارة عن مقطع فيديو للجبهة. وللمفاجأة كان الفيديو الأول الذي يُعلن تأسيس «جبهة النصرة لأهل الشام» . ظهر في الفيديو كيف كان مقاتلوها الملثمون يتدربون ويستعدون للمعارك. حينذاك عرضت الفيديو المسجل بجودة عالية جداً، على إبراهيم الأمين وهيئة التحرير في جريدة الأخبار، لكن رجّحنا احتمال أنه «من الممكن أن يكونوا مخابرات سورية»، لكون المسلّحين في الفيديو ملثّمين وهذا ما لم يُعتد مع مقاتلي تنظيم القاعدة. يومذاك وضعته بشكل خجول كرابط في المقال على موقع الصحيفة على أنّه عن جماعة جهادية جديدة ظهرت. الرجل الذي أرسل الرابط كان شيخاً في تنظيم القاعدة، تبيّن لاحقاً أنّه قريبٌ من قيادة النصرة في بلاد الشام.

عمر الأطرش المثقف... ناقلاً للانتحاريين

التقيت الشيخ عمر الأطرش للمرة الأولى في بلدة سعدنايل. وكان شيخ يدعى محسن شعبان قد أوقف بتهمة محاولة تهريب الشيخ أحمد الأسير. يومذاك أعلن الإعلامي مارسيل غانم على الهواء عن معلومات تؤكد اعتراض اتصال للأسير في محيط مربع منطقة عبرا، وهذا ما تسبب في هروبه. كان الاتصال من هاتف شعبان الذي استقلّ سيارة مفتي البقاع، يرافقه مراسل قناة «الميادين» عمر كايد، لتهريب الأسير. تسريب الخبر دفع الأسير لإقفال هاتفه والتواري بطريقة أخرى. حاولا الاتصال به ففوجئنا بأنّ خطه مغلق. أوقفهما الجيش اللبناني وأودعا سجن رومية. خرج كايد بوساطة من حركة حماس، فيما مكث شعبان عدة أشهر قبل إطلاقه. أثناء وجوده في السجن كان يتصل بي يومياً، وبعد خروجه أقام مأدبة في سعدنايل وأصر على حضوري.

في سعدنايل، عرّف الشيخ شعبان عني باسمي: رضوان مرتضى. فانبرى شاب في منتصف العشرينيات، يرتدي لباساً دينياً من دون عمامة، قائلاً: «رضوان مرتضى من جريدة الأخبار وقناة الجديد؟»

أجبت: «نعم»، فقال: «لنا ثأر عندك». ابتسمت وقلت له: «ها أنا أمامك. لكن أي ثأر؟». قال: «أنا عمر الأطرش»، فقلت له «رحم الله عمر». أجاب: «أنا ابن عم عمر الأطرش (الذي استهدف صاروخ سيارته في الجرود)، وأنت متهم بوضع جهاز تعقّب في سيارته لكشف إحداثياته وأعطيت معلومات عنه لحزب الله». سألته: «هل أنت مقتنع بذلك؟». أجابني: «هذه هي الرواية المتداولة. هل لديك رواية أخرى؟». قلت له: «لا يوجد أي منطق لاتهامي. أنا أجريت مقابلة معه قبل ١٠ او ١٥ يوماً، أضف إلى ذلك، الوقت الذي استغرقه المونتاج والبحث عمن يشتري المقابلة. فلو كنت أنا، كان من المفترض قتله بعد ٣ أيام. كما أن المرة الأخيرة التي رأيته فيها لم أكن معه في السيارة».

لم يجب، لكنه فتح حديثاً آخر، فخاض في نقاش حول أداء قناة «الجديد» وجريدة «الأخبار»، وحول «قتل حزب الله لأهل السنّة». رغم ذلك، بدا لي الرجل على قدر كبير من الثقافة، ولذلك فوجئت كثيراً عندما اعتقل لاحقاً بتهمة نقل انتحاريين.

التقينا ثانية، بعد أيـام، في سعدنايل أيضاً، بدعوة من أحد مشايخها. ومجدداً خضنا في نقاش طويل ركّز فيه على «مظلومية أهل السنّة»، وكيف أن «من يُوقف من الشيعة وهو يبيع سلاحاً يصنف بأنه تاجر سلاح، في حين يتم توقيف السنّي بتهمة الإرهاب». في الجلسة نفسها كان حاضراً الشيخ عمر الويس، وهو من عشيرة الويس، وله صلة قرابة بأمير «داعش» في القلمون، فطرح «ضرورة أن نتساعد لإخراج

الشيخ عرفان المعربوني». والأخير شاب لبناني من البقاع (بلدة حام)، درس في أزهر البقاع، وكان مقيماً في السكن الداخلي. بعد تخرجه التحق بكلية الدعوة في بيروت. ولشدة فقره كان ينام في الجوامع ويأكل من موائد الرحمن للفقراء التي يمولها أهل كل منطقة. بعد فترة، التحق بحركة «بالجهاد الإسلامي»، لأن حركة «حماس» ترفض غير الفلسطينيين. وخضع لدورات عسكرية في إيران. في عام ٢٠١٠ وقع خلاف داخل «الجهاد» حول إدارة مسجد في بلدة مجدل عنجر. يومذاك أبلغني صديق بأن شخصاً يريد التعرف إلي. في مطعم الشمس، في مجدل عنجر، التقيت «أبو العبد أبو معيلق». رجل قصير القامة، صاحب كاريزما، يهابه من حوله. كان الخلاف حول المسجد بينه وبين الجهاد، وقد أكد لي أنه هو من بنى المسجد فيما تدعي الحركة أنها هي التي بنته. وقد أكد لي القيادي في «الجهاد» أبو عماد الرفاعي أن أبا معيلق كان منتدباً من الحركة في دول الخليج، وهناك أسس لعلاقات ساعدته على بناء مساجد جيّرها لحسابه الشخصي.

بعد بدء الأحداث في سوريا، علمت أن أبا معيلق انشق ومعه مجموعة من ضمنها المعربوني (تزوج لاحقاً ابنة أبو معيلق) وعمر الأطرش، عن «الجهاد»، وتحوّلوا إلى أعداء لدودين لحزب الله وتورطوا بالدم الشيعي في الضاحية. هؤلاء، كما نعيم عباس وغيره ممن كانوا في صفوف «الجهاد الإسلامي» قبل أن ينشقوا، يفهمون بيئة حزب الله جيداً. ولعل مشكلة «الجهاد» أنها لا تعمل على عناصرها

ثقافياً بالشكل الصحيح. فهم سنّة قريبون من الشيعة، ويتدربون على يد حزب الله، وبما أن لديهم فراغاً ثقافياً يستغل تنظيم «القاعدة» ذلك ويعمل على استقطابهم.

بعد فترة أوقفت أجهزة الأمن السورية أبو المعيلق لاتهامه بالتورط في تحركات مناهضة للنظام في مخيم اليرموك. بعد أشهر خُطف المعربوني في البقاع. بحسب رواية أهله، كان قد لجأ إلى «القيادة العامة» للتوسط من إجل إطلاق والد زوجته، فطلبوا منه ١٠٠ ألف دولار مقابل ذلك. وعندما أحضر المال اعتقلوه ورحّلوه إلى أحد فروع الأمن السوري بتهمة تهريب المسلحين وتمويلهم. كان المعربوني، بحسب من يعرفونه، خطيباً مفوّهاً وقريباً من القلب و«قبضاي». وبعد ما عُرف عنه من فقر، بدأت فجأة تظهر عليه آثار نعمة محدثة كشرائه سيارة فاخرة بقيمة ٤٥ ألف دولار.

طلب مني الشيخ عمار الويس أن أساعد على الإفـراج عن المعربوني عارضاً عليّ المال فرفضت. لكنني طلبت مقابل ذلك «مفتاحاً» على القلمون، وآخر على تنظيم «القاعدة». وهكذا حصلت التسوية.

بعد ذلك بأسبوعين أوقف الشيخ عمر الأطرش في صور، وفي اليوم نفسه قتل ابن «أبو العبد» في البقاع الغربي لدى محاولته تهريب شخص يدعى «أبو صهيب» (تسلّم لاحقاً منصب مساعد مسؤول «جبهة النصرة» في القلمون). كما أوقف الابن الثاني لـ«أبو العبد».

الشيخ عمر الأطرش

عندما علمت بتوقيف الأطرش، ترددت في نشر الخبر خشية أن أسيء إلى علاقتي بهم. لكنني في النهاية نشرته. في اليوم التالي انهالت عليّ الاتصالات عاتبة لأن الشيخ عمر كان «صديقي». بعد أيام نشرت في «الأخبار» مقالاً بعنوان «عمر الأطرش: دعم الثورة شرف لنا». بعد فترة تواصل معي على الفايسبوك من سجن الريحانية:

- رضوان؟
- شيخ عمر كيفك؟
- كيف بدي كون قاعد بالسجن مثل الكلب. نحن في منطقة مشتعلة، النار تصل إلينا شيئاً فشيئاً، نظن أنها بعيدة منا، لكننا سنستيقظ يوماً ما ونجد كل ما نشاهده في التلفاز وصل إلينا، كيف نُذبح ونُقتل.

قلت في نفسي إن الرجل ربما يردد شعارات، فسألته:

- هل كنت تعمل على تسريع إيصال هذه النار إلى هنا؟
- أنا غلطت، الدولة لا تتبلّى على أحد وتعتقله إن لم يكن مذنباً. لكنهم ضخّموا ملفي. أنا لست كما قيل عني، وعلينا أن نجمع الناس سنّة وشيعة ومسيحيين.

شعرت بالصدمة. ناقل الانتحاريين يتكلم عن الوحدة الوطنية؟ قال لي: «اطلق هذه الحملة وأنا معك. امش بالموضوع وأنا سأطلب من الشباب في البقاع أن ينزلوا إلى الشارع ويقطعوا الطرقات».

حاولت أن أحصل على أجوبة أوضح لكنني لم أستطع. بعد فترة دهم سجن رومية، وقطع الإنترنت عنه، لكن الشيخ عمر بقي على تواصل متقطّع معي، مشدداً على موضوع الوحدة، وأن على الجميع رفع الصوت في وجه حزب الله لإخراجه من سوريا.

الصورة الأولى لـ «أمير النصرة»

لم يمر الوقت كله في سلام ووئام مع الجهاديين. إذ تخللته فترات من عدم الرضى بعدما اعتبروا أنني أعمل من دون تنسيق معهم، وأتسبب لهم بمشاكل. أثناء تلك الفترة، وعندما نشرت صورة «أبو مالك التلي»، قامت قيامة الجهاديين. لم يستطيعوا أن يفهموا أنني في النهاية صحافي، وأن التلي كان موقوفاً لدى السوريين. وهذا يعني أن صوره موجودة لدى أجهزة الأمن السورية وحزب الله وغيرهما. كما أنه قابل أهالي العسكريين المخطوفين. وهو، كما رأيته في يبرود، لا يتنقل محاطاً بإجراءات أمنية، ولا يتلثّم مثل «أبو محمد الجولاني».

كتبت عن «أبو مالك» في أحد مقالاتي بأنه في العقد الخامس من العمر. إسلامي منذ ما قبل الحرب السورية. وبسبب نشاطه «الجهادي»، سُجِن فترة طويلة (يقول مقربون منه إنه قضى ١٣ عاماً في السجون السورية). في سجن صيدنايا، تعرّف إلى الجولاني، أمير «جبهة النصرة» (تنظيم القاعدة في بلاد الشام)، وخرج من السجن بناءً على العفو العام الذي أصدره الرئيس السوري بشار الأسد عام ٢٠١١.

هناك مقالات كثيرة أخرى كتبتها وسعيت فيها إلى نقل الحقيقة،

لكن الجهاديين كانوا يرون أنها تعطي انطباعاً سلبياً وتحبط العزائم، خصوصاً بعد خسارتهم معركة القلمون. وكانوا يلومونني على الظهور على قنوات «خبيثة»، كـ«الميادين» و«المنار» و«الجديد». علماً أني حرصت على ألا أظهر في أي منها في بداية مشواري. كنت أعزي نفسي دائماً بأنني باحث عن الحقيقة ويجب أن أكون على مسافة واحدة من الجميع، فلماذا أرضي هؤلاء ولا آخذ أولئك بالاعتبار؟ لم أستطع أن أكون في يوم مع طرف، ولم يكن لدي مشكلة في أن يكرهني أي من الطرفين لمجرد أنني أفصح عن الحقيقة التي أعرفها.

أبو مالك التلّي... أمير جبهة النصرة في القلمون

إمارة رومية

يُقدم ابن مجدل عنجر خالد يوسف المشهور بـ«خالد ملكة» والمكنّى بـ«أبو الوليد» في الإعلام على أنه «أمير مبنى الإسلاميين» في سجن رومية. أوقف ملكة بعد محاولته سرقة «بنك الموارد» في شتورة. لديه صورة تجعله أقرب إلى رجال المافيا، وهو بصحبة عشرات المسلحين. شاب طويل مفتول العضلات شعره طويل، تشعر معه وكأنك أمام «رامبو». اعتبر ملكة أحد «قبضايات» السجن. في بداية تواصلنا كان مقلّاً في الكلام وجافاً. التقيته في مكتبه في مجدل عنجر، بعدما أمضى خمس سنوات في السجن من أصل ١٥ سنة خرج بعدها بإخلاء سبيل. باركت له الحرية. لكنه طوال الحديث كان يعتبر أنه يتحدث مع شخص شيعي، فكان جل كلامه حول الوحدة الوطنية، رغم وجود معلومات تتردد عن احتمال تسلمه «إمارة» الساحة اللبنانية.

«أبو الوليد» يذكرني بحسن نبعة: هو أحد أعضاء مجموعة الـ١٣ التي اعترفت باغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، قبل أن تتراجع عن اعترافاتها جرّاء تدخّل رئيس فرع المعلومات آنذاك العميد وسام الحسن. متزوج من ابنة «أبو مصعب الزرقاوي». كان الرجل

«الأمير» اللوجستي لتنظيم «القاعدة في بلاد الشام»، وهو خطير للغاية. فشقيقه ربيع قتل الشيخ نزار الحلبي في العام ٢٠٠٦. أما رفيقه وسيم عبد المعطي فقد كان أمير «الإسلاميين» قبل أبو الوليد. وهو شاب طويل مفتول العضلات، سجن عام ١٩٩٦ وهو في الـ٢٥ من عمره، ولا يزال في السجن.

تواصلت مع وسيم بالصدفة وتبادلنا أطراف الحديث. كان قد جرى انقلاب عليه في مبنى الإسلاميين داخل سجن رومية بعدما اتهم بالعمالة للنظام اللبناني، وبكتابة تقارير للأجهزة الأمنية عن السجناء. اجتمعوا عليه وحاولوا ذبحه وجزوا له شعره، وبال أحد مهاجميه عليه.

وسيم شخص قارئ ومثقف. كان يناقشني بما تحويه كتب الشيعة ويقول لي: «أنا أحاول أن أرشدك كباحث عن الحقيقة». كان يضيف: «لديك بحار الأنوار، أصول الكافي، كتب الكليني، وسائل الشيعة، دقق في أمهات الكتب عند الشيعة، وستفاجأ كم فيها من الخزعبلات، انظر أيضاً إلى كتاب تحرير الوسيلة وتحديداً مفاخذة الرضيعة».

«قد يكون مدسوساً»، قلت له.

فأجاب: «اذهب إلى دار المحجة البيضاء وانظر». بالفعل هذا ما وجدته. صار يلفت نظري إلى قول هنا وحديث هناك، وعندما قلت له «إنني لا أشتم الصحابة ولا أرضى أن تُتّهم السيدة عائشة بالزنى. لا أؤمن بما تتحدث عنه، والكثير من الشيعة لا يؤمنون به أيضاً»، كان يجيبني: «هذا يعني أنك لست شيعياً، وقومك الذين لا يعرفون هم على ضلالة، إذ يفترض بهم أن يبحثوا ويتبينوا».

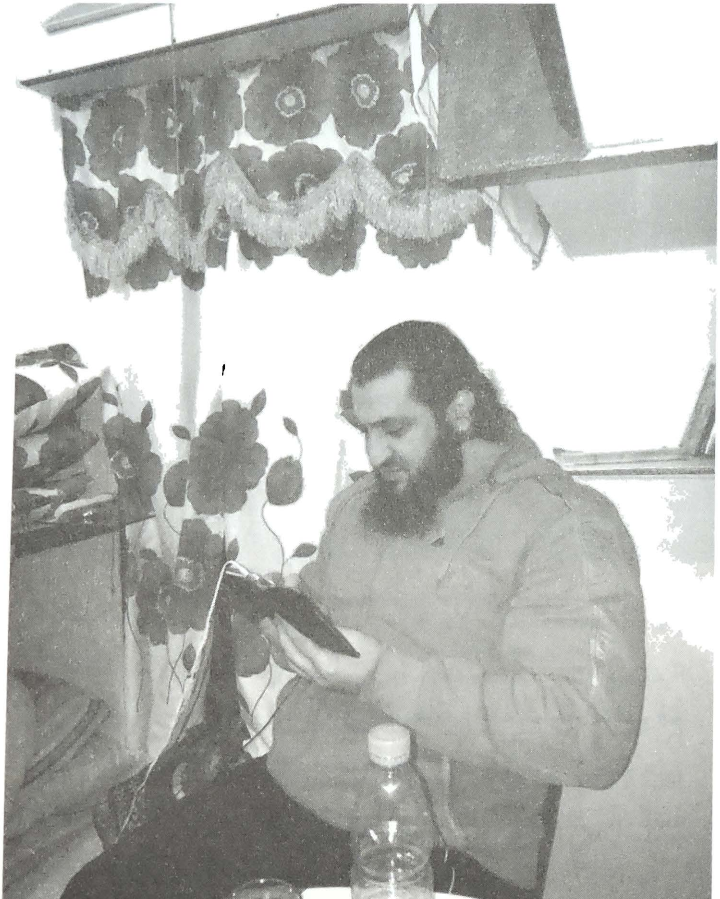

أبو الوليد... أمير إمارة رومية

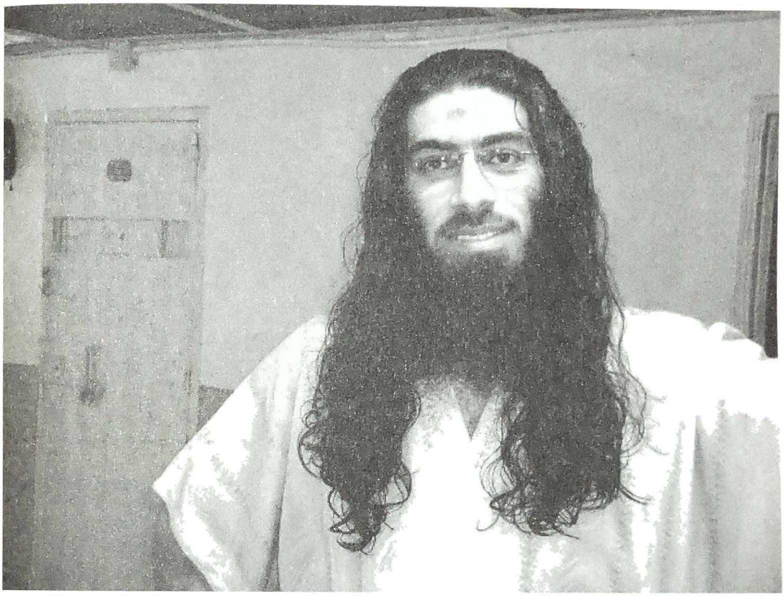

وسيم عبد المعطي... أمير سجن رومية الذي أطيح به

رفض وسيم غير مرة أن أرسل إليه بطاقة هاتف مسبقة الدفع رغم وضعه المادي المزري. كان موعوداً بعفو بعد ١٨ أو ٢٠ سنة على توقيفه، وصدر قرار من لجنة تخفيف العقوبات، وطلب مني أن أنقله من السجن إلى منزله. لكن قرار الإفراج عنه ألغي.

صحيح أن بعضاً من الجهاديين جهلة وأميون، لكن هناك أيضاً جامعيون ومهندسون وأطباء وخبراء معلوماتية وأصحاب ثروات. بشكل عام، قيادات تنظيم «القاعدة» من أصحاب الشهادات، أما

العناصر ففيهم من كل صنف. كل عنصر منهم لديه دافع ما، لكن بعضهم يقاتل عن اقتناع وبعضهم الآخر دافعه الحقد والجهل. ويتمحور تفكيرهم حول ما يسمونه «مظلومية» أهل السنّة، و«المشروع الإيراني الفارسي»، وأن الشيعة يريدون قتل السنّة والهيمنة عليهم وإذلالهم، واتهام حزب الله بأنه «حرس حدود لإسرائيل». ويبرر مقاتلو «القاعدة» عدم تعرضهم لإسرائيل بأن هناك «عدواً صائلاً» هو النظام السوري وحزب الله. يستندون في قولهم هذا إلى أحاديث غيبية، مثل «فتنة الشام تبدأ بلهو صبية، إلى أن يخرج المهدي».

تغص أدبيات تنظيم «القاعدة» وغيره من التنظيمات المشابهة بالكثير من الأحاديث، ولعل من المفيد التذكير ببعضها هنا، وهي موضع خلاف بين السنّة والشيعة، مثل:

«الرايات السود تأتي من الشرق». فالشيعة يقولون من إيران، والسنّة من أفغانستان، لأن خراسان تضم إيران وباكستان وأفغانستان. البغدادي يؤمن أنه سيسلم الراية إلى المهدي، لباسهم الأسود انطلاقاً من اللباس العباسي، والقتل عندهم بهدف الحياة الأفضل، القتل ليس للقتل، القتل هو للوصول إلى الإنسان الأفضل، وكل شعائرهم التي يطبقونها في الدولة الإسلامية، تستند إلى نصوص.

مكافآت مالية مقابل رأسي

تواصلت مع المقاتلين في القلمون، مستأذناً الحضور لتصوير تحضيراتهم وكذلك تجهيزاتهم وتدريباتهم. أتت الموافقة بعد سؤالهم الشيخ «أبو مالك»، لكن أحد الأجهزة الأمنية طلب مني عدم الذهاب لأنني قد ألتقي «أبو جعفر». وهذا الأخير «معلم» عمر الأطرش وكان يرسل السيارات المفخخة. وهو يتهمني بأنني السبب في قتل الأطرش الأول، وقد رصد مبلغاً من المال مقابل قتلي. توقفت عن الذهاب، وبدأت بالبحث عن مصور أضمن عودته سالماً، ولذلك كنت أريده من الطائفة السنّية. عثرت على مصور في قناة «سي إن إن» يدعى يامن سكرية، مقابل أجر قدره ألف دولار أميركي يومياً، لكنه اعتذر في اللحظة الأخيرة لأن زوجته أنجبت مولوداً جديداً. هكذا لجأت إلى شخص آخر هو صديق يدعى عبد الرحمن عرابي. اتفقنا، لكنه قبل يوم من الموعد اختفى ولم يعد يجيب على هاتفه.

بعدها تواصل معي شاب اسمه ماهر الدنا كان يعمل في تلفزيون «الثبات». قال لي: «أريد أن أعمل معك»، فأجبته أن العمل «خطر بعض الشيء، لكني أضمن رجوعك لأنهم (الجهاديون) سيعتبرونك

أخاً لهم إن زكيتك عندهم» وسألته: «هل تتقن التصوير؟». فقال لي: «لا أنا مراسل، أضغط على زر التسجيل في الكاميرا فقط». فقلت له إن هذا لا يكفي، وعليه أن يتعلم كيف يحصل على كادر مناسب للصورة. وجئت بمخرج ومصور قاما بتعليمه على مدى أسبوع.

قبل ذهاب الدنا إلى القلمون أعطيته ٥٠٠ دولار، وعرضت عليه أجراً ٥٠٠ دولار يومياً، أو مبلغاً مقطوعاً مقابل أن يدرج اسمه في الفيلم. أمّنت له سيارة إلى شتورة، ومنها توجه بباص صغير إلى عرسال. هناك استقبله شقيق أحد المقاتلين في «جبهة النصرة» واستضافه ليلة قبل أن يسهّل له عبر آخرين الذهاب إلى يبرود. عند الخامسة عصراً، اتصل بي الدنا. سألته: «هل قمت بالتصوير؟»، فأجابني «صورت الطريق».

عند الثامنة اتصل بي «أبو القاسم» وقال لي: «صاحبك خائف ومرتعب، يخاف من مشاهد قطع الرؤوس وغيره، ويقول إنه يريد المغادرة». تكلمت إلى الدنا، جاءني صوته مضطرباً «رضوان أريد العودة الآن، اتفقت أنا والشباب، سأنزل لأن لدي شغلاً في التلفزيون ثم أعود الثلاثاء وأبقى هنا أسبوعاً».

- لكنك في إجازة بحسب ما عرفت، ثم إنك وصلت بعد جهد طويل، فهل من المنطقي أن تغادر؟.
- عندما أعود سأخبرك.
- هيك ما بيمشي الحال، أنت عرضت حياة الشباب للخطر ما بيمشي الحال، لماذا أنت خائف؟ هل تعرض لك أحدهم؟
- لا لم يحدث.

تحدثت إلى «أبو القاسم» وسألته ما إذا كان أحد تعرض للدنا أو أن قصفاً حصل فأكد لي أنه «لم تسقط قذيفة واحدة، ووضعنا لصاحبك الطعام لكنه أكل القليل، ثم طلب الشيخ تعريفه على المنطقة».

تملكني خوف من أن يكون الدنا حاملاً لجهاز تعقب، وأن يتم قصف المركز بمجرد خروجه. خشيت أن أقول للجهاديين أن يفتشوه حتى لا يظنوا أنني أرسلت شخصاً لا أثق به، كما خشيت أن يقتلوه.

طلبت من الدنا أن يبقى اليوم التالي لكنه رفض. ولأنه لم يكن في إمكانه الخروج من المنطقة بمفرده، تكفل «أبو القاسم» بإرساله مع شابين إلى عرسال. شكرته على ذلك، وسألته هل إنّ الأمر يشكل خطراً عليهم، فأجابني «صحتك بالدنيا. بس ثاني مرة ابعث لنا حدا قلبه قوي».

في عرسال بات الدنا ليلته عند الشاب الذي استقبله لدى وصوله، وفي صباح اليوم التالي التقيته في محلة السفارة الكويتية. أعطاني العدة وكشف لي أن «أحد المسلحين كان يعمل ناطوراً في مدرسة أبي وربما عرفني لأنني كنت قومياً سورياً». فقلت له: «لا أصدق هذا الكلام، فلو عرفوك لقتلوك». لم يرد. أعطاني «الداتا» و٥٠ ألف ليرة من أصل الـ ٥٠٠ دولار قائلاً: «إن هناك أشياء ضاعت في يبرود منها الدرع والطاسة».

بعد ذلك بأربعة أيام بدأت معركة يبرود، كنت أعرف أنها ستحصل، ولهذا كنت مستعجلاً. فوجئت بالدنا يضع منشوراً على

الفيسبوك قال فيه: «عدت من يبرود حيث جثث القاعدة ستتفحم». اتصلت به وطلبت إزالة المنشور. لكنه عاود وضع صورة له مع ملثم في منزل قال إنها التقطت في يبرود، علماً أنه لا يمكن تأكيد ذلك.

في اليوم التالي، نشر الدنا في موقع «سلاب نيوز» الحلقة الأولى من تحقيق من خمس حلقات تحت عنوان «رحلتي من لبنان إلى يبرود ـ عشاء مع انتحاري». اختلق عشر قصص من ساعات ثلاث فقط قضاها هناك.

صحافي بزيّ انتحاري

كان رفيقي حسين شابون ذاهباً إلى منطقة العين، لكنه وصل متأخراً إلى شتورة، ولم يعثر على ميكروباص فاتصل بي طالباً أن يبيت ليلته عندي في بيروت. أثناء عودته إلى بيروت، صودف حينذاك أن التقى أحد قياديي «كتائب عبد الله عزام» وسلم عليه لكونه قد التقاه معي في عرسال، لكن أحد المخبرين رآهما. فأوصل معلومة مغلوطة تقول إن القيادي في الكتائب أرسل أحد الانتحاريين القادمين من عرسال وهو يلبس ثياباً حمراء. تم انتظار الحافلة عند منطقة ضهر البيدر، وما أن وصل، حتى انقض العسكريون على من بداخله بطريقة لا يستطيع فيها «الانتحاري» المفترض تنفيذ التفجير. كان من بين الركاب حسين وشخص آخر يرتديان ثياباً حمراء، فتمّ توقيفهما والتحقيق معهما. مرّت ساعات قبل أن يُفرجوا عنه بعدما تبيّن أن المعلومة التي وصلتهم كانت خاطئة.

نُبيدهم أو يُبيدوننا

محمد العارفي، هو أحد مدربي «النصرة». خرج من لبنان مع عائلته إلى إدلب أو دير الزور، حيث قاتل مع الجبهة، ثم أصبح المدرب العسكري لعناصرها. ضخم البنية وذو وجه سمح. التقيته في عين الحلوة. كان مبتسماً كل الوقت، وكلما سألته أو طرحت معلومة معينة، ينظر إلى الشيخ ويقول صح. تكلم عن قتاله ضد «الدولة»، وكيف أصيب ورجع إلى لبنان. قال لي: «الدولة الإسلامية تقول قتالنا مع النصرة هو قتال طائفة ردة فإما نبيدهم وإما يبيدوننا، بينما تقول النصرة: هداهم الله». أكد لي أن «المعركة مع حزب الله آتية لا محالة، وسنميز بين من وقف معنا ومن خذلنا. الحساب قادم، حزب الله ينصر الطاغوت وهو نظام بشار، والطاغوت لا محال زائل، وغداً معركتنا معكم، بدنا نقاتل بالجنوب، حزب الله حرس حدود لإسرائيل. كم عدد شهداء الحزب في مواجهات مع إسرائيل؟ انظر إلى قيادات الشيعة، المالكي وغيره وانظر إلى قياداتنا، فهم بين مطارد ومقتول وسجين».

الاستخبارات تحاول تجنيدي

حاول أكثر من جهاز استخبارات استمالتي، من بينها الاستخبارات الإيرانية والروسية والسورية واللبنانية، للعمل معهم وتزويدهم بما أحصل عليه من معلومات ومشاهدات. وكذلك فعلت أجهزة استخبارات أجنبية عرضت عليّ أن تموّل مكتب دراسات باسمي كما

تفعل مع أكثر من شخص. ورغم علمي أنّ الأجهزة، كما المقابر، تأخذ ولا تُعطي، حاولت أن أقايضهم. قلت لهم «أعطيكم ملفاً ويُمكنكم أن تُقاطعوا معي معلومة للتثبت من صحّتها، وفي المقابل تعطوني ملفاً». طلبت ملف اغتيال عماد مغنية من أحد الأجهزة الأجنبية، لكنهم في الحصيلة لم يوافقوا. عرضوا عليّ المال، لكنني رفضت. رفضي هذا ساعدني على البقاء خارج عالم الاستخبارات الذي قد يصل بك إلى القتل. كما أنه عالم عندما تدخل إليه لا يمكنك أن تخرج منه، فضلاً عن خيانتك للناس الذين أمّنوك.

صحافي مشتبه فيه من كل الأطراف

كنت أتعاطى مع الجهاديين في كل مكان بطريقة مغايرة، تختلف بحسب المنطقة والأشخاص. أسلوبي مع الشيخ أسامة الشهابي ليس نفسه مع قائد «كتيبة بلال الحبشي» رعد حمّادي الذي بايع تنظيم «الدولة الإسلامية» لاحقاً. فأسامة إنسان متزن تستطيع أن تطرح هواجسك وتساؤلاتك أمامه كما هي، من دون مداراة ومواربة. بينما الأمر كان يختلف في أمكنة أخرى، وتحديداً مع العناصر لأنهم جهلة وبسطاء. فهم انفعاليون تحركهم غريزة الحقد والدافع الذاتي، وليس العقيدة. لا يمكن في حال كهذه أن تنجو بنفسك إلا بالتعاطي معهم على قدر عقولهم. بعض هؤلاء كان يتواصل معي طمعاً بالمال، وكذلك طمعاً بالشهرة، وبعضهم الآخر سعياً للتقرب مني لأنني صحافي معروف. من بين هؤلاء من كان يُمنّي نفسه بأن أخدمه في أن أساعد على الإفراج عن أحد معارفه الموقوفين بسبب علاقاتي. لكن على الرغم من ذلك، كان هؤلاء يعتبرونني في المقلب الآخر، ولذلك سعوا جهدهم لاستمالتي دينياً.

أما أنا فكنت واضحاً أمامهم بأنني لا أستطيع أن أساعدهم سوى

بمجرد إيصال صوتهم، ما سيحسن صورتهم عند العامة، خصوصاً أن هناك نفوراً شديداً من الإعلام الذي يرونه موجّهاً ضدهم ويعمل لمصلحة الأجهزة الأمنية. وبالفعل، سعيت لتقديم صورة مغايرة.

لم يكن من السهل على كُثُر منهم تقبل أنني شيعي أسكن في الضاحية الجنوبية لبيروت، وأعمل في جريدة «الأخبار». كانت لدى بعضهم شكوك بأنني أكون مخبراً، إذ لم يكن من المنطقي عندهم أن تكون جريدة «الأخبار» «المدعومة إيرانياً»، قادرة فعلاً على الاحتفاظ بالهامش الذي يمكنهم من الحديث. لكني كنت أزيل تلك الشكوك بالتأكيد أنني صحافي لا أوالي طرفاً. بل أكثر من ذلك، كنت أطلب منهم الحذر من التلفّظ بأي معلومة أمنية أمامي حرصاً على أمنهم.

بعد عرضي لفيلم «في جبال القلمون»، ومقابلتي مع الانتحاري الذي فجر نفسه لاحقاً، اعتبرني الكثير من الناس بطلاً طرق عقر دار الجهاديين، اخترق صفوفهم وأوصل حقيقتهم ثم عاد.

لكنه هؤلاء أنفسهم وجدوني أنقل وجهة نظر الجهاديين. فأنا لا أقول «داعش» بل «دولة إسلامية» ولا أقول «إرهابيين» بل جهاديين. هكذا أضحيت مثار شك، وباتت تطرح جملة من الأسئلة حول حقيقة عملي التي تخولني مقابلة الجهاديين غير مرة.

عندما كنت أتعاطى مع مطلوبين وأشخاص حذرين، كنت أتعاطى معهم ككتاب مفتوح كي يثقوا بي. كنت أحرص على أن أكون صادقاً بكل تفصيل أُعطيه، إن سألوا عنه، لأُزيل الشك المحتمل. وكانت

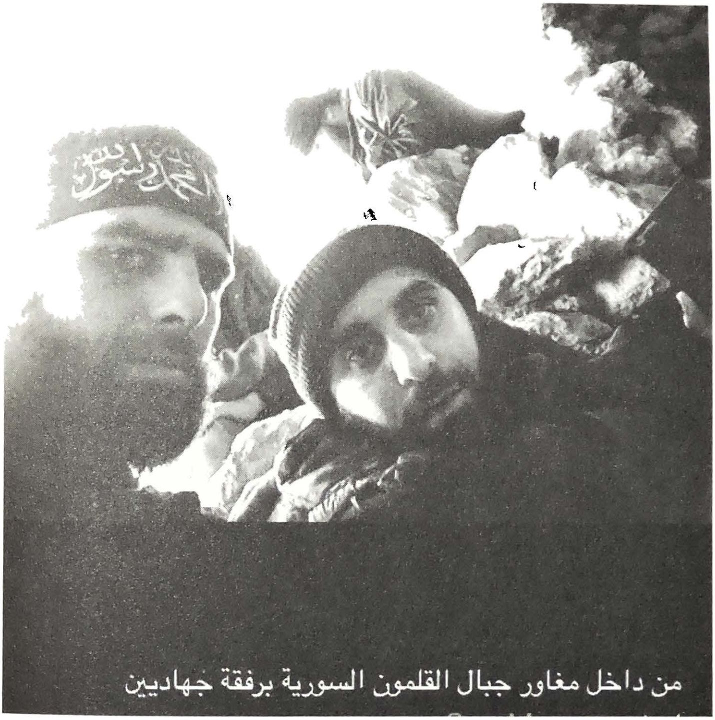

من داخل مغاور جبال القلمون السورية برفقة جهاديين

المقالات التي أكتبها فرصة للاختبار. لذلك حرصت عند كتابة مقالي عن مقاتلي «فتح الإسلام»، أن أصل صورة هذا التنظيم كما هي من دون تحريف.

جلست مع مجموعة أشخاص ممن قاتلوا في مخيم نهر البارد. أحد هؤلاء تمكن من مغادرة المخيم، وسرد لي ما جرى. كتبت تحقيقاً مفصّلاً ضمن سلسلة البحث عن أمير لبلاد الشام (الحلقة الثانية) في صحيفة «الأخبار»، ثم أرسلت إليه الجزء المتعلق به، فطلب تعديل بعض المسائل غير الصحيحة، فقمت بإزالتها فعلاً. ثم نشرت المقال على هذا الأساس، عندها قام الشيخ الذي كنت أتواصل معه بتزكيتي بأنني شخص صادق يُعتمد عليه ويُمكن التعامل معه لكونه لم يحرف أو يزيد حرفاً.

مقال ابراهيم الأمين، «وردة على بحر العرب»، كان بمثابة جواز السفر لي من مكان إلى مكان، اعتبر فيه إبراهيم الأمين أسامة بن لادن شهيداً. كنت دائماً أحمله معي، وأقرأه أمامهم.

هكذا يعيش القتلة

بلدة عرسال لم تكن تُحسد على حالها. لقب «عاصمة الإرهاب» كان يقضّ مضجعها، كما يقضّه الإرهابيون. مئات المسلّحين، ويُقال عدة آلاف، كانوا ينغلون في شوارعها وجرودها. يُصادرون قرار أهلها، ويعتدون عليهم أحياناً، متّخذين من الدين مطيّة. يفرضون «الخوّات» ويخطفون مقابل فدية، ويرتكبون ممارسات أقلّها السلب والسرقة و«التشليح». أما شعارهم الدائم، فـ«مظلومية أهل السنّة والجماعة». تحت هذا المسمّى، كانوا يجمعون السلاح لـ«قتال الرئيس السوري بشّار الأسد وحزب الله».

انتشر هؤلاء، ومعظمهم لبنانيون وسوريون، في المساحات المتداخلة حدودياً بين لبنان وسوريا. سيطروا على المعابر غير الشرعية وتحكّموا بها. هناك أقاموا «دولتهم»، وتنقلوا بسيارات رباعية الدفع، معظمها مسروق، مزوّدة بزجاج حاجب للرؤية، ومدموغة بشعار «كتيبة شهداء بابا عمرو» ترفع علم «الجيش السوري الحر». هكذا كان يُميّز هؤلاء أنفسهم من بقية الكتائب المسلّحة التي تتحرّك في المنطقة. وهم

يتبعون أسلوباً هوليوودياً استعراضياً؛ إذ يعتمدون زيّاً عسكرياً موحّداً، ويضع كل منهم مسدسين إلى جانبي كاحل القدم. أما سلاحهم المعتمد، فبندقية الـ«M4» الأميركية الباهظة الثمن. بعضهم كان يلفّ نفسه بـ«شرشور رصاص»، أو يرتدي نظارة شمسية، محاولاً الظهور بمظهر البطل السينمائي رامبو، ولكن بنسخة سلفية. كان يغلب، في هذه المجموعة، الاستعراض على التديّن الذي لا تجد له أثراً إلّا في المظهر الخارجي. ورغم ذلك، كانت تعدّ هذه المجموعة الأشرس والأكثر عدة وعديداً بين بقية المجموعات.

ليس في عرسال وجرودها من لم يسمع بالشيخ رائد الجوري (٢٥ عاماً). الشاب العشريني لم يكن سوى مهرّب صغير قبل بدء الأزمة السورية. بعدها، بات «الشيخ رائد». تحوّل من مهرّب وقاطع طريق إلى «ثائر». حاله كحال كثيرين. دخل رائد بابا عمرو وقاتل فيها قبل أن تسقط بيد الجيش السوري. انتقل بعدها إلى القصير على رأس مجموعة مسلّحة، لكنّه لم يمكث طويلاً، فقد طرده الأهالي بسبب ارتكاباته؛ إذ كان يستسهل القتل وتنفيذ الإعدامات العشوائية. انتقل إلى بلدة قارا السورية القريبة من جبال القلمون، وهناك أعلن تأسيس «كتيبة شهداء بابا عمرو». وكان يستقر في المنطقة الحدودية بين لبنان وسوريا، حيث يستحيل أن يمر شيء من دون إذنه، ومن دون قبض ثمنه.

رغم شهرته كـ«تاجر دين»، عزّز الجوري علاقته بالمجموعات

الأصولية المتمركزة في جبال القلمون؛ إذ كانت تربطه علاقة جيدة بأمير «جبهة النصرة» في المنطقة السعودي أبو الهدى الجزراوي ونائبه الكويتي المعروف بـ«الكرّار». أعطاهم المال والسلاح كي يكفي نفسه ومجموعته قتالهم وينال رضاهم وغطاءهم الشرعي. معظم المقاتلين تحت إمرته هم لبنانيون من عرسال، تحوّلوا من مهرّبين إلى «ثوّار» وتجّار سلاح وأصحاب ثروات، وهم متورطون في عشرات عمليات السلب والقتل تحت ذريعة «الجهاد في سوريا». امتهنت مجموعة الجوري الخطف مقابل فدية، وتحديداً خطف الصحافيين الأجانب. وسُجّلت آخر عملية، عندما خطف المصور الصحافي جوناثان البيري الذي يعمل لحساب وكالة بولاريس، وأطلق سراحه مقابل فدية قدرها ٤٥٠ ألف دولار. أفادت المعلومات التي حصلت عليها حينذاك بأن هؤلاء كانوا يتواصلون مع المجموعة التي خطفت الصحافي الإيطالي دومينيكو كويريكو في حمص، بتكليف من شقيق نائب لبناني ينشط على خط الوساطة في سبيل تحصيل مبلغ ٥٠٠ ألف دولار بدل فدية يتقاسمونها في ما بينهم. كذلك نشط الجوري ومجموعته على خط نقل المتفجرات.

نقل عن الجوري اعترافه علناً بقتل الشباب الأربعة (اثنان من آل جعفر وواحد من آل أمهز ورابع من آل أوغلو) في وادي رافق في جرود عرسال في ١٦ حزيران ٢٠١٣، بذريعة أنّهم يشكّلون «كتيبة استطلاع تابعة لحزب الله».

قائد لواء «فجر الإسلام» عماد جمعة قبيل توقيفه

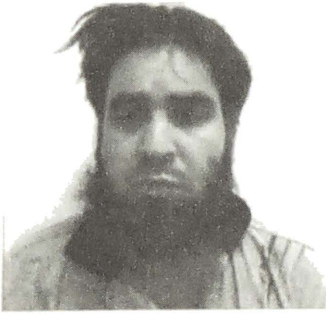

..وبعده

أبو علي الشيشاني أحد قادة الهجوم على عرسال

أمير «داعش» أبو حسن الفلسطيني الذي قتله الجيش

الانتحاري الذي استهدف المستشارية الإيرانية

إن معظم أسماء المشتبه فيهم في متفجرة بئر العبد في ٩ تموز ٢٠١٣ وإطلاق الصواريخ وقتل عسكريين من الجيش على حاجز في البقاع، الذين أتى بيان وزير الدفاع فايز غصن على ذكرهم، كانوا يعملون تحت إمرة الجوري. المعلومات التي استطعت الحصول عليها تقول إن هؤلاء كانوا يعملون قتلةً مأجورين. لا يتحرّكون بدافع الدين والفتوى الشرعية، لكن محرّكهم الأوحد مصالحهم الخاصة والمبالغ المالية التي تُدفع لهم. أما في ما يتعلق بأحمد حميد، المتهم بالمشاركة في قتل عسكريي الجيش وإعداد عبوات ناسفة، فهو ابن عم خالد حميد الذي قتلته استخبارات الجيش في عرسال مطلع شباط ٢٠١٣. فأحمد حميد لا يشبه ابن عمه الشهيد في شيء. إذ إن الأخير كان ملتزماً دينياً، فيما يُعرف عن الأول ابتعاده عن الدين وشُربه الكحول وتعاطيه حشيشة الكيف.

«القاعدة» في سوريا: من التأسيس إلى الانشقاق

دخلت «القاعدة» إلى الميدان السوري بين تموز وآب عام ٢٠١١، للتأسيس لحراك جهادي. وصل «أبو محمد الجولاني» إلى أرض الشام، يرافقه ثمانية أشخاص من جند «دولة العراق الإسلامية»، موفدين من «أبي بكر البغدادي». بذرة الجولاني أنبتت انتشاراً واسعاً قبل أن يقع الانشقاق الدموي بين فصيلي «القاعدة» الرئيسيين على الأرض السورية. وهنا القصة الكاملة كما ترويها مصادر إسلامية مطلعة.

ارتبك أهل «الجهاد العالمي» حيال الأزمة الوليدة في سوريا. بالنسبة إليهم، كانت صورة الأحداث التي اندلعت في ١٥ آذار عام ٢٠١١ ضبابية. في المراحل الأولى، لم يحرِّكوا ساكناً. اكتفوا بالمراقبة عن بُعد، ريثما يحددون موقفهم. لم يسر ذلك على جميع «الجهاديين». ومن دون إذن «الأمير»، تسلل كُثُر من جنود «دولة العراق الإسلامية» سرّاً من أرض الرافدين لـ«الجهاد على أرض الشام». رأت قيادة التنظيم

العراقي في هذا التسرُّب تهديداً «قد يتسبّب في تصدّع الدولة وانشقاق عناصرها».

لذلك، حرّم أمير التنظيم «أبو بكر البغدادي» التوجّه إلى سوريا، معتبراً أيَّ مخالفٍ للحظر «جندياً منشقّاً»، لأن «الأوضاع لا تزال غير واضحة المعالم ويجب التريث». هذه الإجراءات فاقمت من التململُ في صفوف «المجاهدين»، لكنّها لم تحل دون استمرار تسلل بعضهم من خارج الإطار التنظيمي لـ«دولة العراق» إلى أرض الشام. لم تكن لـ «القاعدة» أرضية في سوريا، باستثناء بعض الخلايا النائمة منذ ما قبل اندلاع الأحداث، والتي كانت مهمتها تقتصر على توفير المستلزمات اللوجستية لـ«الجهاديين» الوافدين. كانت هذه الخلايا عبارة عن أفراد تنحصر وظيفتهم في نقل المقاتلين من سوريا إلى العراق، وتوفير مضافات وبيوت أمان، ولم يكن من ضمن مهامها المواجهة المباشرة مع قوات الأمن السورية. التململ في أوساط «الجهاديين» الراغبين في القتال في سوريا، دفع مستشار البغدادي، العقيد حجي بكر، إلى طرح فكرة تشكيل مجموعة من غير العراقيين تتوجّه إلى سوريا بقيادة سوري. بذلك، يحال دون التحاق أي عراقي بالجبهة السورية من دون إذن مسبق، وتضمن «الدولة» عدم انشقاق عراقيين عنها. وفي الوقت نفسه، يمكن للقيادة الجديدة في الشام أن تستقطب أعضاء غير عراقيين من الخارج. هكذا أوفد المجلس العسكري لـ «دولة العراق»، بين تموز وآب عام ٢٠١١،

«أبو محمد الجولاني» إلى الشام مع ثمانية آخرين، بينهم أحد أبرز شرعيي «جبهة النصرة» اليوم، «أبو ماريا القحطاني». وكانت مهمة هؤلاء تهيئة الأرضية لتشكيل تنظيم جهادي يكون امتداداً لـ «دولة العراق الإسلامية». وكان دعمهم المادي وتسليحهم من «الدولة» حصراً.

أرسل البغدادي الجولاني إلى سوريا لوقف التسرب من تنظيمه إلى الشام

لم يستقر الموفدون التسعة في مكان معين. لكن النواة الأولى لعملهم «الجهادي» كانت في محافظة إدلب. بعدها انتقلوا إلى كل من حلب ودير الزور. ومن هذه المحافظات الثلاث، انطلق تنظيم «جبهة النصرة» للانتشار في كل سوريا، حتى بات رأس حربة المعارضة المسلّحة. وتوحّد شكل معظم العمليات العسكرية التي اعتمدها مقاتلوه وفق أسلوب حرب العصابات والعمليات الانتحارية. العقبة الأساسية تمثّلت في مرحلة الاستقطاب، ثم كرّت السبحة. ووفق أحد قيادات «النصرة»: «لم يكن رجال القاعدة مقبولين لدى السوريين في المرحلة الأولى. إذ كان اسم القاعدة يشكّل نفوراً لدى غالبيتهم، لكنّ العمليات الاستشهادية زكّتهم فيما بعد».

في ٢٤ كانون الثاني عام ٢٠١٢، «زفّ» الجولاني «البشرى للأمة الإسلامية بتشكيل جبهة لنصرة لأهل الشام من مجاهدي الشام في ساحات الجهاد» (انفردت «الأخبار» بنشر فيديو التأسيس قبل

عرضه على المنتديات الجهادية كافة). (http://ipv6.al-akhbar.com /term/1738). وبعد أقل من شهر، في ١٢ شباط ٢٠١٢، خرج الشيخ أيمن الظواهري في تسجيل مصوّر دعا فيه «المجاهدين» من كل أصقاع الأرض إلى أن «ينفروا» إلى سوريا. عندها، بدأت «الهجرة الجهادية» بشكل علني. دعوة الظواهري كانت بمثابة النبع الذي رفد «الجبهة» بمئات المقاتلين. لكن ذلك كان سيفاً ذا حدّين. إذ إن سهولة قبول «النصرة» للمنتسبين سمح لعشرات الجواسيس بالتسلل إلى صفوفها. فكان يُقبل انتساب أي «أنصاري»، وهو وصفٌ يطلق على كل سوري الجنسية، بعد أن يزكّيه أحد عناصر التنظيم بأنه «نظيف أمنياً». بعدها، يخضع المنتسب إلى دورات شرعية وعسكرية. أما «المجاهد المهاجر»، أي القادم من الخارج، فيحتاج إلى تزكية من أحد الثقاة في وطنه الأم، علماً بأنّه لم تكن هناك بيعة في البداية، بل دورات شرعية فقط. وتشير المصادر إلى أن «العدد الأكبر من الجواسيس الذين أعدموا كانوا يعملون لمصلحة الاستخبارات الأردنية». وقد دفع ذلك قيادة «الجبهة» إلى «الحد من دخول المنتسبين الجدد، ووقف قبول دخول أي مهاجر في صفوف التنظيم»، بذريعة منح الأولوية لاستيعاب الراغبين من السوريين في صفوف التنظيم. وفي موازاة ذلك، ولتلافي اجتذاب التنظيمات الممولة سعودياً للجهاديين المهاجرين، كُلّف «أبو خالد السوري» من الظواهري شخصياً بالإشراف على «حركة أحرار الشام».

لم تمض أشهر على تأسيس «الجبهة» حتى ذاع صيتها في سوريا. ورغم ربطها بتنظيم «القاعدة» في المرحلة الأولى، إلا أن كثيرين استوقفهم أسلوب عملها المغاير للأسلوب المعتمد لدى التنظيم العالمي، لا سيّما لجهة إخفاء ملامح قتلاها الذين يسقطون أثناء تنفيذ العمليات العسكرية والتفجيرات في تسجيلاتها المصوّرة، فيما تفاخر «القاعدة» بهم. وقد ذهب بعض رموز المعارضة السورية إلى اتهامها بـ «العمالة لمصلحة النظام السوري» قبل أن يتبيّن أن الغاية من تمويه وجوه قتلاها كانت حماية عائلاتهم من الأمن السوري.

في تلك الفترة، كانت «جبهة النصرة» لا تزال تأتمر بأوامر البغدادي بوصفه القائد العام، إلى أن طلب أمير «الدولة» من جنديّه أمير «النصرة» استهداف أحد الفنادق التركية أثناء اجتماع لرموز المعارضة السورية. استعظم الجولاني الأمر، وردّ على أميره بأنّ عملية كهذه من شأنها إغلاق أبواب تركيا في وجه «جبهة النصرة»، ما يعني وقف تدفق المال والسلاح. تكرر رفض الجولاني لأوامر البغدادي غير مرّة. فاعتبر أمير «الدولة» رفض الجولاني عصياناً، لكنّه لم يُفصح عن ذلك. ولاختبار ولاء جنديّه، أعلن البغدادي في نيسان ٢٠١٣ توحيد «دولة العراق» و«جبهة النصرة» في تنظيم واحد تحت مسمى «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، لكن رفض الجولاني تكرر معلناً عدم موافقته على الإدماج ورفض الالتحاق بالكيان الجديد.

ضعضع الخلاف صفوف «الجهاديين» في سوريا. وللاحتماء وتوفير الغطاء والمشروعية لخطوته، رفع الجولاني الأمر إلى «أمير الجهاد العالمي» أيمن الظواهري الذي أمر ببقاء «النصرة» في سوريا و«الدولة» في العراق. لم يوافق البغدادي على التسوية، لأنه «صاحب الخير والجولاني خائن متخاذل». وانتقل الخلاف بين الرجلين إلى صراع احتدم بين أمراء «الجهاد» في العالم. وتحوّل الصراع على الإمرة اشتباكات مسلّحة على أرض الشام بين أبناء الفكر الواحد خلّفت مئات القتلى، وهدّدت بالتحول إلى «حرب جهادية عالمية»، طرفاها «ابنان شرعيان» لتنظيم «القاعدة»: الأول («جبهة النصرة») يستمد مشروعيته من ولائه للقيادة «التاريخية» المتمثلة بالظواهري، والثاني («الدولة») يستقي المشروعية من تحدره من «قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين» (بزعامة «أبو مصعب الزرقاوي»)، ومن سيطرته على حيز جغرافي يجيز له إقامة «إمارة حكم» تسيّر شؤون المسلمين ويتوجب على بقية التنظيمات الخضوع لها.

باختصار، على أرض الشام اليوم، «القاعدة» يحارب «القاعدة».

الجربان أميراً للجرود: حكاية تأسيس «داعش» على الحدود اللبنانية ـ السورية

تأسيس تنظيم الدولة الإسلامية في الجرود معمّدٌ بالدماء منذ أن رُفِعت راية العقاب فوق جبال القلمون بعد انسحاب المسلحين المنهزمين في القصير عام ٢٠١٣. سيف الذبح أمعن قتلاً في أمراء التنظيم قبل مناوئيه، قبل أن يتمكن أميره الحالي موفق الجربان من توحيد الصف. طبول الحرب تُقرع، ورغم أن المعلومات تتحدث عن وسيطين للتفاوض، يُصرّ مقاتلو التنظيم على أنهم سيقاتلون «حتى آخر جندي».

لم يكن موفّق عبدالله الجربان، الملقّب بـ«أبو السوس»، يعلم أنّ سنين الحرب الست ستحوّله من «متظاهر يُطالب بالحرية» إلى «أمير» على رأس أكثر الجماعات تشدداً في العالم، تنظيم «الدولة الإسلامية»، الذي يعتبر الحرية مطلباً فاسداً (بحسب تصريح وزير حربه السابق طرخان باتيرشفيلي، المشهور بـ«أبو عمر الشيشاني»، لمجلة دابق).

الشاب الأربعيني كان لحّاماً، ثم عمِل في تربية الدواجن (الجدير ذكره أن شقيق الجربان يدير مزرعة دواجن في لبنان منذ سنوات)، قبل

أمراء تنظيم الدولة الإسلامية في القلمون

أن يفتح دكان سمانة في بلدة القصير يوم نزل مع المتظاهرين للمطالبة بإسقاط النظام. لكنه لم يلبث أن شكّل فصيلاً مسلّحاً لقتال الجيش السوري. الجربان كان أحد مؤسّسي «كتيبة الوادي» التي نشطت بين وادي خالد والقصير، لكنه تركها لاحقاً ليلتحق بأقوى فصيل في المنطقة: كتائب الفاروق، فصيل سلفي بوجهٍ معتدل. يقول عارفوه إنّه كان ملتزماً دينياً، لجهة تأديته الصلوات الخمس والصوم فقط، لكنه لم يكن يوماً متشدداً. وبقي كذلك إلى أن بايع «أبا بكر البغدادي». أما تسمية «أبو السوس»، فقد ورثها من جدّه الذي كان يعمل فوّالاً. يروي أحد جيرانه في القصير أنّ زبائن جدّه كانوا يقولون إنّ الفول الذي يبيعه فيه سوس أو «مسوّس»، ومن هنا خرج اللقب ليصبغ أبناءه من بعده.

في القصير، لم يمرّ وقت طويل حتى تسلّم الجربان زمام قيادة كتائب الفاروق. شارك «أبو السوس» مع الشيخ عبد السلام حربة الملقب بـ«أبو علي حربة» في محاولة تهجير المسيحيين من قرية ربلة في ريف القصير. كذلك هاجما معاً القرى التي يقطنها لبنانيون في حوض العاصي (داخل الأراضي السورية، قبالة الهرمل). وقبل معارك قرى غرب العاصي، اختطف الجربان شاباً من مدينة الهرمل كان يقيم في قرية سورية، متّهماً إياه بالعمل لـ«مصلحة الشيعة». و«ثبّت» التهمة بحقه بعدما وجد في منزله بندقية صيد! يومذاك عُذِّب الشاب بوحشية، ساوم لأيام من أجل الحصول على مبلغ فدية لإطلاق سراحه، قبل أن يُعطي «أبو السوس» نفسه الأمر بقتل الشاب اللبناني. كذلك اختطف صحافيتين أجنبيتين، وأفرج عنهما بعد حصوله على مبلغ أربعة ملايين دولار. الخطف مقابل فدية مكّن الجربان من جمع ثروة طائلة، ساعدته لاحقاً على تقوية تنظيمه، من خلال دفع رواتب مقاتليه بصورة منتظمة.

وتواجَه الجربان، في القصير، مع حزب الله والجيش السوري. تلك كانت أولى المعارك التي يُهزم فيها الرجل، لتكرّ من بعدها سبحة الهزائم. وتكشف المصادر أنّ تاجر التبغ المعروف بعبد السلام عيّوش أجرى مفاوضات غير مباشرة بين جماعة «أبو السوس» وحزب الله أثناء معركة القصير، مشيرةً إلى أن التفاوض الأول مع حزب الله كان لتحرير جثماني شهيدين له سقطا خلال معركة القصير، مقابل نقل ٤٠ جريحاً لكتائب الفاروق من بساتين القصير إلى مستشفيات طرابلس.

بعدها، وإثر فرض الحزب حصاراً على مسلّحي القصير من الجهات كافة، جرى التفاوض على وقف إطلاق النار للانسحاب من القصير. فانسحب «أبو السوس» مع بقية الفصائل باتجاه يبرود، علماً أنّه بعد هزيمة القصير، وبسبب تفاوضه مع الحزب، اتُّهِم «أبو السوس» من قِبل الفصائل المعارضة بخيانة «الثورة» وبيع القصير لحزب الله!

مكث القيادي القصيراوي في يبرود طويلاً، قبل أن تتكرر فيها الهزيمة مجدداً بمواجهة حزب الله. كان الجربان لا يزال حينذاك يقود كتائب الفاروق، التي بدأت تتآكل. بعد معركة يبرود، انكفأ مسلّحو المعارضة السورية باتجاه جرود القلمون. كان نجم تنظيم الدولة الإسلامية قد بدأ بالصعود، وكانت جبهة النصرة قد أصبحت الفصيل الأقوى في هذه البقعة الجغرافية. في موازاة تعيين «أبو مالك التلّي» على رأس «النصرة»، كان «أبو عبدالله العراقي» يقود «الدولة الإسلامية» في القلمون. وكان التعاون بين الفصيلين قائماً، رغم الصراع الذي اشتعل في كل سوريا بين «إخوة الجهاد»، بسبب محافظة التلّي على خصوصية العلاقة بين التنظيمين في القلمون.

لم يمر وقت طويل قبل أن يُستبدل «أبو عبدالله العراقي» بابن مخيم برج البراجنة، الفلسطيني أحمد طه، بناءً على أوامر «والي الشام» أبو ثابت الأنصاري. أعاد الرجل «دولة الخلافة الإسلامية» إلى جرود القلمون بثقلٍ أكبر، وانتزع بيعة أكثر من مجموعة مسلّحة أساسية تنشط في ريف دمشق الشمالي، التي أسلمت زمام قيادتها إلى «أبو حسن

الفلسطيني»، الرجل الأربعيني ذي الباع «الجهادي» الطويل، الذي ترك صفوف فتح الانتفاضة في مخيم اليرموك وسُجن غير مرة قبل أن يلتحق بركب «الدولة الإسلامية». كان من بين هؤلاء لواء «فجر الإسلام»، المؤلّف من نحو ٥٠٠ مسلّح، يقودهم ابن القصير «أبو أحمد جمعة»، الذي أعلن تبرّؤه من «المجالس العسكرية الديمقراطية العلمانية»، ومبايعته ومن معه لـ«خليفة المسلمين إبراهيم بن عواد على السمع والطاعة في العسر واليسر». هكذا اشتدّ عود تنظيم الدولة الإسلامية في الجرود، علماً بأنّ معظم المسلّحين الذين بايعوه هم من أبناء بلدة القصير وريفها.

بدأ أبو حسن الفلسطيني، رفيق درب نعيم عباس، عمليات تصفية طالت لبنانيين وسوريين بتهمة «الكفر أو العمالة». ونفّذ عدة عمليات خطف للحصول على فدية مالية، وكان يُصرّ على رفض أيّ وساطة من أيّ جهة أتت. بعد توقيف الجيش لـ«أبو أحمد جمعة»، نفّذ عناصر التنظيم بقيادة أميره «أبو حسن الفلسطيني» ما عُرِف بـ«غزوة عرسال» واحتلوا البلدة اللبنانية بالتعاون مع مقاتلي جبهة النصرة. كان ذلك في ٢ آب ٢٠١٤، تاريخ اختطاف العسكريين اللبنانيين.

أثناء مهاجمة عرسال، أُصيب «أمير» التنظيم الفلسطيني إصابة قاتلة، ما لبث بعدها أن فارق الحياة. خلَف الأمير الراحل المدعو أبو طلال الحمد، الذي شهد بداية التفاوض مع الدولة اللبنانية بشأن العسكريين المخطوفين. لم يطل الوقت حتى دبّ الشقاق بين قيادات

«الدولة الإسلامية» في جرود القلمون. فُصِل «لواء فجر الإسلام» من الصفوف بشبهة ممارسات تُخرِجه من المنهج، و«نُفي» عناصره من القلمون إلى حمص. استُدعي الحمد إلى الرقة حيث قُتل لاحقاً، وتولّى شؤون التنظيم من بعده، مرحلياً، «أبو عبد السلام التونسي»، قبل أن تصدر الأوامر بتولية زمام قيادة تنظيم «الدولة» في الجرود للشيخ «أبو عبدالله الأردني»، المشهور بـ«أبو الوليد المقدسي». تمكّن الشرعي الأردني من إعادة تنظيم شؤون التنظيم، وبدأ تشكيلات جديدة. الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين من العمر، تمكّن في فترة قصيرة من رفع عديد التنظيم من ٩٦ شاباً إلى ٨٠٠، بعد استمالته عدداً من الفصائل التي كانت محسوبة، اسمياً، على «الجيش الحر». والمعروف عن «المقدسي»، بحسب قيادات جهادية، أنّه «صاحب غلوّ كبير وحاقد على النصرة»، رغم أنه كان في صفوفها قبل انشقاقه عنها. وقد أفتى بقتل أحد قادة «الدولة» لأنّه رفض تكفير مسلّحي «الجبهة». ورغم ذلك، لم يلبث مقاتلوه أن انقلبوا عليه واتهموه بالردة. أُجهِز عليه مع زوجته ذبحاً بوصفه «مرتداً لا يُستتاب». كذلك قُتل في الاشتباكات بين أبناء التنظيم نفسه الأمير العسكري في التنظيم «أبو بلقيس العراقي». وشهدت صفوف التنظيم من بعدها انشقاقات عديدة وبدأت حروب الأجنحة. قسّم الصراع الداخلي تنظيم «الدولة» إلى فروع. هنا برز دور «أبو السوس» الذي عُيّن أميراً مرحلياً للتنظيم، ليقود الجناح العسكري الأقوى في القلمون. أحكم «أبو السوس» سيطرته على تنظيم الدولة

في القلمون، مثلما فعل في القصير مع كتائب الفاروق. وقاد حملة تصفية كي لا يبقى قيادي قوي غيره، فقضى على مناوئيه كافة.

اتّخذ «أبو السوس» من وادي ميرا مركزاً له. من هناك، شنّ الهجمات ضد تنظيم «جبهة النصرة»، واختطف أشخاصاً من عرسال بتهمة التعامل مع حزب الله والدولة اللبنانية، عامداً إلى تصفيتهم. واستمال أيضاً مجموعات من فصائل أخرى، في أوج تقدّم «تنظيم الدولة» في سوريا.

كان يُقاتل تحت راية «أبو السوس» مئات المسلحين (تراوح التقديرات بين ٤٠٠ و٧٥٠) يُسيطرون على مساحة تعادل أكثر من ضعفي المساحة التي كانت تسيطر عليها جبهة النصرة. وقبل المعركة الأخيرة في آب ٢٠١٧، نُقل عنه رفضه للتفاوض، وتأكيده أنه سيقاتل حتى آخر مسلّحيه من أتباعه. لكن هؤلاء لم يصمدوا في مواجهة جيش حزب الله والجيشين السوري واللبناني. بدأت معركة تحرير الجرود في آب ٢٠١٧ تحت مسميين. الأول معركة «فجر الجرود» التي أطلقها الجيش اللبناني ومعركة «إن عُدتم عدنا» التي خاضها حزب الله والجيش السوري. مسلحو جبهة النصرة، طلبوا التفاوض لينسحبوا على رأس ٨ آلاف نازح سوري إلى إدلب بعد مفاوضات قضت بإخراج ثلاثة سجناء للنصرة مقابل تحرير ثمانية أسرى من حزب الله لدى تنظيم القاعدة في بلاد الشام. في غضون أربعة أيام، حقق حزب الله إنجازاً يمكن وصفه بالتاريخي: للمرة الأولى منذ

عام ٢٠١١، انهارات دفاعات مسلّحي جبهة النصرة الذين حوصروا في بقعتين محاذيتين لعرسال. إزاء ذلك، نشرت «جبهة النصرة» فيديو يُظهر الأسير مهدي شعيب يطلب من أهله التدخل لدى قيادة حزب الله لوقف المعركة كي لا يُقتل. هذه الخطوة كانت بمثابة صافرة انطلاق المفاوضات بين حزب الله وجبهة النصرة، بعد انطلاق معركة جرود عرسال قبل ١٢ يوماً. غير أن جانباً كبيراً من كواليس التفاوض بقي خفيّاً، رغم أنها مرت بمراحل ثلاث. المرحلة الأولى، قبل المعركة بشهرين، كانت تهدف إلى تحرير أسرى حزب الله لدى جبهة النصرة في إدلب. لم تنجح المفاوضات حينذاك. رغم ذلك، انطلقت المرحلة الثانية خلال الحشد للمعركة، بهدف إخراج «النصرة» من الجرود، ففشلت المفاوضات أيضاً. وبعد انطلاق المعارك، بدأت المرحلة الثالثة، لتحقيق تحرير الجرود وإخلاء الأسرى. وكادت صفقة التسوية تُطاح، مع رفع النصرة سقف مطالبها، لولا أن لوّح حزب الله بالعودة إلى المعركة. كان التفوّق ميدانياً لمصلحة حزب الله، ما حال دون أن تفرض جبهة النصرة شروطها، لكنها حصلت على ورقة قوة بأسرها ثلاثة عناصر من الحزب بعد بدء هدنة وقف إطلاق النار. غير أن ورقة القوة هذه لم تخوّلها سوى الحصول على ٥ سجناء في مقابل الأسرى الذين كانوا في قبضتها. حاولت النصرة تحقيق انتصار إعلامي، رغم الهزيمة العسكرية، سواء عبر المقابلتين الإعلاميتين اللتين أجراهما أبو مالك التلّي ليخرج فيهما يتحدث كما المنتصر، أو الإيحاء بأن جبهة النصرة

فرضت شروطها. ورغم أنه لم تُكشف رسمياً بعد خفايا المفاوضات التي سبقت إتمام الصفقة المعقودة بين حزب الله و«جبهة النصرة»، إلا أن مصادر بارزة مقربة من قيادة جبهة النصرة أخبرتني أن القائد العام لـ«جبهة النصرة» أبو محمد الجولاني هو من كان يدير دفة التفاوض وليس أمير قاطع القلمون أبو مالك التلّي. وتحدثت معلومات الجبهة عن مسار مفاوضات عمره أشهر لإخراج أسرى حزب الله الخمسة في إدلب مقابل إخراج المطلوب شادي المولوي (متّهم بقتال الجيش والتخطيط لتفجير انتحاري استهدف مقهى في بعل محسن في الشمال اللبناني) ورفاقه من المخيم، لكنها تعثّرت غير مرة. إضافة إلى مطلب ثانٍ كانت تُطالب به قيادة النصرة يتعلق بالإفراج عن سجناء «مهمّين» موجودين في السجون اللبنانية. غير أن المفاوضات توقفت بعد رفض حزب الله مطلبَي الجولاني. معركة الجرود أعطت زخماً لإعادة فتح باب التفاوض.

تضيف المصادر أن العلاقة الوطيدة التي تربط المطلوب اللبناني شادي المولوي بالجولاني، دفعت الأخير إلى الطلب من التلي إدراج شرط إخراج شادي المولوي ومجموعته من مخيم عين الحلوة لإتمام صفقة التبادل. وهنا تؤكد مصادر سورية في «النصرة» أن العلاقة بين التلي والمولوي توتّرت في الأشهر الأخيرة، مشيرة إلى أن سبب الخلاف مالي، مردّه اعتبار المولوي أن التلّي، بوصفه مسؤولاً عن الساحة اللبنانية مجبرٌ على توفير مصاريف للعناصر التي بايعت التنظيم،

والمحاصرة في عين الحلوة. وتكشف المصادر أن التلي أرسل مبالغ مالية إلى المولوي عدة مرات، قبل أن يوقف دعمه عنه لأسباب غير محددة.

هُزمت جبهة النصرة لينسحب مسلّحوها. وبذلك انتهى وجود فرع تنظيم القاعدة في بلاد الشام (المسمّى في سوريا «جبهة النصرة») على الحدود اللبنانية السورية.

أما جبهة الدولة الإسلامية، فقد استسلم فيها نحو ١٢٠ مقاتلاً منهم في اليوم الثاني للمعركة وسلّموا أنفسهم لمقاتلي حزب الله، قبل أن يستسلم الباقون. فالهجوم انطلق من مختلف الجبهات ضد المسلحين المتحصنين في الجرود المقابلة للبلدتين اللبنانيتين رأس بعلبك والقاع قبل أن يرضخ مسلحو الدولة الإسلامية ويُطالبوا بالتفاوض. وقد ساهمت المفاوضات في كشف مصير ثمانية عسكريين لبنانيين كانوا خُطفوا في الثاني من آب عام ٢٠١٤. وانتهت حكاية الدولة الإسلامية في لبنان بانسحاب هؤلاء باتجاه محافظة البوكمال.

«أبو مالك التلّي» «فنّان» قاتل... هزمه حزب الله أربع مرات

ليست المرة الأولى التي ينهزم فيها أبو مالك التلي. مشاركاً في تأسيس «جبهة النصرة» في حمص، انهزم في القصير. وأميراً للجبهة، انهزم في القلمون، ثم في السلسلة الشرقية، ويلقى اليوم هزيمته الرابعة في جرود عرسال. وعلى مدى السنوات الأربع الماضية، أُلحِقت به هزيمة أمنية، تمثّلت في تفكيك غالبية الخلايا التي بعث بها إلى لبنان لتنفيذ عمليات إرهابية استهدفت غالبيتها مدنيين. لكنه نجح في أمرين: تنفيذ عدد كبير من العمليات الإرهابية ضد المدنيين، ومراكمة مبالغ مالية طائلة من عمليات الخطف

يهوى أمير «جبهة النصرة» في القلمون الغربي، جمال حسين زينية، فنّ الرسم. الملقّب بـ«أبو مالك التلّي» كان يوصي زوّاره بجلب أدوات الرسم من أقلام فحم وتلوين لتهريبها له إلى الجرود. وفي مقرّ سكنه، يجد وقتاً للرسم. لكن هذا «الفنان» يُصدر أوامر بخطف جنود، وذبح عدد منهم، وصلب مدنيين، وتفجير سيارات مفخخة في المدن،

وخطف راهبات! الرجل الذي قلّما يتنقل من دون حزامٍ ناسفٍ إلى وسطه، هادئ، لكنه حادّ الطباع إذا غضب.

يجمع صفات متناقضة في شخصيته. فقد ضرب مرة بيديه شقيقَي مُصوِّر، بعدما اتهمه بتسريب صورته الأولى التي نشرتها «الأخبار»، ثم عمد إلى سجنهما من دون أي ذنب. الشيخ العقائدي الذي يحفظ القرآن بعدة قراءات، كان يعمل مقاول بناء أيام السلم، فضلاً عن امتلاكه مكتبة ورثها من والده.

في آب ٢٠١٤، احتلّ مسلّحو تنظيمي «داعش» و«جبهة النصرة» بلدة عرسال. منذ ذلك الحين، تسلّم «أمير النصرة» في القلمون أبو مالك التلّي دفة حكم جرود عرسال والمواجهة مع الدولة اللبنانية.

و«أبو مالك» قياديٌّ شرعي وعسكري في العقد الخامس من العمر. إسلامي منذ ما قبل الحرب السورية. وبسبب نشاطه «الجهادي»، سُجِن فترة طويلة (يقول مقرّبون منه إنه قضى ١٣ عاماً في السجون السورية). في سجن صيدنايا، تعرّف إلى «أبو محمد الجولاني»، أمير «جبهة النصرة» (تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الشام)، وخرج من السجن بموجب العفو العام الذي أصدره الرئيس السوري بشار الأسد عام ٢٠١١. في القلمون، اشتدّ عود «الجبهة». أمسكت القيادة الجديدة بإمرة «أبو مالك» بمفاصل بقية التنظيمات، بعدما احتلت كامل منطقة القلمون، ووصلتها بالزبداني، مروراً بمعلولا. وشرقاً، تجاوزت طريق دمشق ــــ حمص الدولية، لتصل إلى بلدة مهين السورية، حيث

المستودعات الكبرى للجيش السوري. الرجل الذي بدأ مشواره العسكري كقنّاص، سيُصبح الرقم الصعب في المواجهة الشاملة.

«أبو مالك» كان من بين ستة موفدين أرسلهم «أبو محمد الجولاني»، بتكليف من «أبو بكر البغدادي»، بإمرة شخص يلقّب بـ«أبو العيناء»، اتّخذوا من مدينة القصير مركزاً لهم، ثم بدأوا بدعوة المسلّحين إلى مبايعة التنظيم. قُتِل «أبو العيناء» بعد وقت قصير، ليولّى «أبو البراء الشامي» إمارة «النصرة» في حمص، وإلى جانبه كان «أبو مالك». كان هذا الثلاثي العصب الأساس الذي غرس «البذرة الأولى» لـ«القاعدة» في محافظة حمص (إلى جانب الشيخ «أبو جندل الحمصي» الذي قُتل في مطار الضبعة في ريف القصير عام ٢٠١٣).

كان معظم المسلّحين في حمص منضوين في صفوف «كتيبة الفاروق»، التابعة صورياً لـ«الجيش السوري الحر»، والتي كانت تحكم هذه البقعة من سوريا. استمر الأمر على حاله حتى تنفيذ أحد عناصر «النصرة» أكبر عملية انتحارية «في تاريخ سوريا»: في ٢٣ كانون الثاني عام ٢٠١٣، قاد السوري «أبو إسلام الشامي» شاحنة مجهّزة بعشرين طناً من المتفجرات، استهدف بها ثكنة المشتل في القصير. في أعقاب هذه العملية، ارتفعت أعداد المنضوين في صفوف «الجبهة».

في ١٩ أيار من العام نفسه انطلقت معركة القصير. انهزم مسلّحو المعارضة في المدينة وريفها بعد أكثر من أسبوعين من المواجهة مع مقاتلي حزب الله.

بعد القصير التي شهدت بدايات «النصرة» في المنطقة، بدأت مرحلة جديدة من عمر التنظيم. تراجع مقاتلوها باتجاه القلمون، وتمكنوا من السيطرة على قراه من دون مقاومة تُذكر، باستثناء معركة وحيدة في رنكوس.

بدأت «النصرة» ببناء قوتها. انسحب عناصرها نحو يبرود، حيث أُنشئت معظم المقارّ. في تلك الفترة، نُحِّي «أبو البراء»، ليتسلم التلّي زمام القيادة على رأس «النصرة».

راكم التنظيم فوق عتاده غنائم من الأسلحة النوعية، كصواريخ كونكورس المضادة للدروع وصواريخ غراد من مستودعات الجيش السوري التي سيطروا عليها (وبخاصة مستودعات بلدة مهين السورية).

أجبر التلّي بقية الفصائل على الالتزام بأوقات محددة للمواجهة مع الجيش السوري، وفرض على آخرين شروطاً للقتال تحت رايته ولاقتسام «الغنائم». هكذا، وفي مقابل صعود التنظيم، انطمس دور «الكتائب» المحلية. بدأت مع التلّي مرحلة استهداف المدنيين اللبنانيين بسيارات مفخخة. لم يكن تنظيمه الوحيد الذي يُرسل سيارات تنفجر في شوارع الضاحية والهرمل وغيرهما. شاركه في ذلك تنظيما «داعش» و«كتائب عبدالله عزام». لكن التلّي تمكّن من استخدام العمليات الانتحارية في لبنان وقصف القرى بالصواريخ، ليشدّ من عصب تنظيمه، فاستقطب أفراداً من فصائل أخرى، كـ«كتائب عبدالله عزام» و«فتح الإسلام».

سطع اسم «أمير النصرة» بعد خطفه راهبات معلولا، ومفاوضته لإطلاقهن مقابل مبلغ ماليّ كبير. جيّر الرجل الصفقة لمصلحته. بعدها بأسابيع (٢٠١٤)، وقعت معركة القلمون في مواجهة الجيش السوري وحزب الله. لم تصمد الكتائب المقاتلة تحت إمرته طويلاً. سقطت يبرود في يومين، بعد أسبوعين على اندلاع المعارك في المنطقة. انسحب المسلّحون إلى الجرود. ومن هناك، بدأوا باستجماع القوى لخوض معركة «تحرير قرى القلمون»، وهي المهمة التي لم ينجحوا، حتى الآن، في تنفيذ ولو جزء منها. على العكس من ذلك، خاض حزب الله معركة في وجهه عام ٢٠١٥، أدت إلى طرد «النصرة» من الجزء الأكبر من السلسلة الشرقية لجبال لبنان.

تميّزت «النصرة» في معظم المناطق السورية، عن تنظيم «داعش»، بالتكتيك. ورغم أن عقيدة واحدة تجمع التنظيمين، إلا أن عناصر الأولى أخذوا بـ«فقه الواقع»، أي أقاموا اعتباراً للظرف والوقائع. وقد جعل منهم ذلك أكثر ليونة من غيرهم. انتبهوا متأخرين إلى سلبيات عرض مشاهد القتل والذبح، فاتخذ المجلس الشرعي في «النصرة» قراراً بمنع نشر صور لعمليات الإعدام التي ينفّذها التنظيم وبإخفائها، وإذ أكّدوا شرعيتها، إلا أنهم اقتنعوا بأن نشر صورها يؤدي إلى تنفير المسلمين وغير المسلمين من الدين.

ومنذ بدء الشقاق بين «النصرة» و«داعش» في الميدان السوري، تميّز الفرع القلموني لتنظيم القاعدة عن أشقائه. ومع وصول أعمال القتل والتصفية المتبادلة إلى مستوى غير مسبوق، خرج «أبو مالك

التلّي» ببيان يرى فيه أن «كل من يعتدي على أحد من إخواننا في الدولة كأنما يعتدي علينا». أعطى ذلك انطباعاً بأنه يتمتع بهامش حرية مستقل عن القيادة المركزية، لجهة العلاقة مع تنظيم «داعش». وعززت ذلك علاقة الصداقة التي تربطه بـ«أمير الدولة» السابق في القلمون أبو عبدالله العراقي.

يعيش أبو مالك التلّي أيامه الأخيرة كأمير على الجرود وحاكمٍ لعرسال. الرجل الذي يقود بين ٣٠٠ و٥٠٠ مقاتل بات محاصراً، وباتت خياراته محدودة. الموت أو الاستسلام أو الهرب.

رفض استقبال الأسير

صيف عام ٢٠١٣، فرّ إمام مسجد بلال بن رباح، الشيخ أحمد الأسير، إثر معارك عبرا ليتوارى عن الأنظار. اختفى من أشعل شرارة المواجهة مع الجيش أكثر من سنتين متنقلاً من منزلٍ إلى آخر هرباً من التوقيف. خلال تلك الفترة، كان الأسير يحاول إيجاد منفذ لمغادرة لبنان باتجاه سوريا. كلّف مقرّبين منه التوسّط لدى أبو مالك التلّي لضمان انتقالٍ آمن عبر عرسال، لكن المفاجأة أنّ «أمير الجرود» رفض استقباله. تذرّع الرجل بأكثر من سبب أمام الوسطاء لتبرير رفض وفود الأسير إليه، لكنها لم تكن مقنعة. حاول بعدها الأسير السفر بجواز سفر مزوّر عبر مطار بيروت، فأُلقي القبض عليه في منتصف آب ٢٠١٥. التفسير الوحيد الذي أقنع المطّلعين على المفاوضات لم يقله التلّي: كان الأخير يخشى أن يأتي الأسير إلى الجرود، فينافسه على الزعامة.

أنا وسيارتي: عن موتٍ خارج ساحاته

ليست سوى سيارة «بي إم دبليو» موديل عام ٢٠٠٤، غير أنّني أجزم بأنّ ما عاشته معي من مغامرات لم تمرّ به أي سيارة «مدنية» أخرى. فهي عدا عن كونها تحمّلتني طوال ست سنوات، كتب لها أن تسير بي مرات إلى حيث يقوم الموت، لكننا عدنا سالمين. يبدو أن أجلها لم يكن قد حان بعد.

ففي قلب الجحيم السورية، تنقّلت بين خطوط التماس. أقلّت مقاتلين وجرحى، موالين للنظام السوري ومعارضين له. ست سنوات من «المقاومة» عاشتها السيارة معي، أربع منها قضتها متنقلة بين مخيمات اللجوء الفلسطيني، وعلى الطرقات الواصلة بين مجدل عنجر وعرسال البقاعيتين، وصولاً إلى وادي خالد شمالاً. ثم بين الحدود الشرعية وغير الشرعية الفاصلة بين لبنان وسوريا. دخلت سيارة الـ «بي أم دبليو» الأراضي السورية عبر معابر التهريب أكثر مما دخلتها عبر تلك الرسمية. تلك السيارة لم تخذلني يوماً. وعندما اعتُقلتُ في سوريا في فرع ٢١٥ في الأمن العسكري، بقيت تنتظرني عند حاجز المصنع ليومين. بعد خروجي من المعتقل بقدرة قادر ومساعدة

صديق، أوصلوني إلى المصنع، إلى حيث ركنتها. وبالتأكيد لا أنسى جولة المواد المتفجرة التي قمت بها على متن السيارة في الضاحية الجنوبية لمعرفة جدوى الحواجز الأمنية وأجهزة كشف المتفجرات. يومذاك كانت الفكرة الأولى فحص فعالية قطعة البلاستيك السوداء التي يخرج منها قضيب حديدي على شكل هوائي، ويُزعم أنها تكتشف المتفجرات، والتي انتشرت بكثرة في المجمعات التجارية. وضعنا قنابل يدوية عدة وأصابع ديناميت وفتيل تفجير وصاعقاً ودخلنا إلى عددٍ من المجمعات التجارية من دون أن يُكتشف أمرنا. لكن نسيت المواد المتفجرة في تابلوه السيارة، لأدخل بها إلى الضاحية وأجتاز عدداً من الحواجز من دون أن يكتشفها أحد.

من بين المحطات البارزة، كانت وادي خالد. حصل ذلك في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠١٢، عقب انطلاق «الثورة السورية». آنذاك كانت التجارة الرائجة في أوساط المهرّبين تهريب السلاح: بنادق صيد أوتوماتيكية وأسلحة حربية. يومذاك صعد في السيارة للمرة الأولى ثلاثة مسلّحين. كنّا في الأراضي الضائعة بين البلدين. وكانت «المهمّة» المُراد تصويرها عمليات تهريب السلاح من لبنان إلى سوريا. تعددت بعدها المهمّات الصحفية التي رافقتني فيها. بعد «الوادي»، جلت وأنا خلف مقودها في قرى حوض العاصي، الأراضي السورية التي يقطنها لبنانيون. يومذاك، قاد السيارة أحد أفراد «الدفاع الوطني» المدعو «أبو إيهاب» الذي يقود السيارة بسرعة جنونية. كنت أنا وزميلي فراس

الشوفي في سيارة الـ«بي أم دبليو». وكان يتبعنا زميلنا حسن عليق بسيارته. قضينا النهار بأكمله نُحاول إقناع «أبو إيهاب» بالتنحي كي يقودها أحدنا، لكن جهودنا ضاعت عبثاً. مرّ النهار على خير ونجونا من أكثر من حادث، والسيارة كادت تتحطم مرات عدة.

سيارتي بعد الانفجار

قادتني سيارتي إلى القصير والقلمون، يوم كانت الأولى معقلاً لمسلّحي المعارضة السورية، ثم بعد سيطرة حزب الله عليها. ومن عرسال، عبر الجرود الوعرة، عَبَرت «التاكسي»، كما يُسمّيها مسلّحون سوريون، إلى قرى القلمون التي انسحبت إليها كتائب المعارضة

المسلّحة. حينذاك أُزيلت لوحات تسجيل السيارة للحؤول دون استهدافها من قبل مدفعية الجيش اللبناني، ثم انطلقت في الجرود. «كارتير الزيت» ثُقِب في الطريق، لكنّ «مُكَب» سوري، جرّ السيارة إلى برّ الأمان. هناك أصلحها أحد الميكانيكيين. كان يقود السيارة فهد حمّادي، أحد الشبّان الذين تنقّلوا في صفوف المعارضة المسلحة بدءاً من الجيش الحرّ وانتهاءً بتنظيم «الدولة الإسلامية». الشاب نفسه عاد ليختطف لاحقاً مصوّراً أتعاون معه من قلب عرسال إلى وادي ميرا، ثم ساومني على فدية مالية.

صعد في سيارتي مرّة «انتحاري». حصل ذلك في عرسال. يومذاك كان يرافقني أحد عناصر «جبهة النصرة»، قبل أن ينضم الرجل الثالث. لم يكن انتحارياً بالمعنى الحرفي، بل كان يرتدي حزاماً ناسفاً. رجلٌ مزنّرٌ بحزام ناسف. سمّوه ما شئتم. في قاموس الجهاديين، يُعتبر «أمنياً»، أي إنّه ينفّذ المهمات مرتدياً حزامه الناسف لتفجيره إذا ما تعرّض للتوقيف. تلك المرة الأولى التي كنت أُعاين فيها حزاماً ناسفاً عن قُرب. كنت أظنّ أنّ هناك زرّاً يُحتمل أن يُضغط عليه بالخطأ فينفجر. كان شعوراً لا يوصف. حتى ردّ فعل ذلك الشاب كان استثنائياً. صوت ضحكاته ملأ المكان عندما طلبت إليه أن يخرج من السيارة. طلب مني الهدوء، ثم فكّ الحزام ليُرشدني إلى «عتلة التفجير والأمان». و«الحَلَقة» التي إذا ما قُطعت، يُستعاض عنها بـ«حَلَقة» بديلة لتفجير الحزام. لا أدري إن فجّر نفسه لاحقاً، أو إن كان قد قُبض عليه أو قُتل

في أحد الاشتباكات. علماً أن علاقتي بهؤلاء دفعت أحد رؤساء فروع استخبارات الجيش إلى أن يُشيع تُهمة تفيد بأنّه طُلِب منّي نقل سيارة مفخخة مقابل تسهيل إجراء مقابلة مع أمير «جبهة النصرة» الشيخ أبو محمد الجولاني. ثمّ جرى تداول التهمة نفسها لتُلصق لاحقاً بإعلاميين آخرين.

سيارتي لم تكن سيارة عادية في نظري. خرجت بخير من قلب الجحيم السورية، لكن شاءت الأقدار أن يقُضى عليها في تفجير عبوة ناسفة، استهدفت مصرف لبنان والمهجر غروب الأحد في شهر حزيران ٢٠١٦ في فردان. لم أتعرّف إلى السيارة في اللحظة الأولى. كنت أبحث عن ضحايا محتملين. لحظات مرّت في موقع الانفجار قبل أن أُدرِك أن السيارة المهشّمة بفعل عصف الانفجار وألواح الزجاج المتساقطة من مبنى المصرف هي سيارتي. ظننت لوهلة أنّ العبوة الناسفة كانت مزروعة فيها قبل أن يتبين أنّها كانت إلى جانبها.

في اليوم التالي للانفجار، أثناء وجودي في المكان، تقدّم مني رجلٌ لا أعرفه مصافحاً. هنّأني على سلامتي ثم سألني: «بدك تبيعها؟ السيارة.. بدك تبيعها؟».. سألته عمّن يكون فردّ قائلاً: «عندي كَسر سيارات.. جيت شوف شو بدي اشتري وسيارتك ما بتروح إلا كسر». قالها جادّاً، فأجبته: «صراحة.. ما قرّرت بعد». طلب رقم هاتفي وأعطاني رقمه قبل أن أنصرف. وأخبرني أنّه سيتّصل في اليوم التالي ليعرف كم أُريد مقابل سيارتي التي تحوّلت إلى قطعة خردة.

لقد دخلتُ بهذه السيارة إلى حيث الموت عشرات المرات، إلى حيث القصف والعبوات الناسفة والألغام الأرضية بين الحدود والسيارات المفخخة، لكنّ شيئاً لم يصبها. في يوم أحدٍ مُشمس وهادئ، قررت أن أركنها، على غير عادتي، إلى جانب الرصيف تحت شجرة خضراء في فردان، فانتهى عمرها هناك، آخذاً معها جزءاً من ذاكرة وحياة يومية.

الفصل الرابع

في الطريق إلى بيجي:
أسماك دجلة تعيش على الجثث

بعد أفغانستان كان العراق وجهة المجاهدين. إنه مكان مغر لأي صحافي. العراق كان مغرياً لي من هذا المنطلق تحديداً. أردت استكشاف تلك البقعة من الأرض التي تعج بالجهاديين وكانت منطلقاً لبعضهم إلى سوريا. لذلك عزمت في العام ٢٠١٥ على زيارة العراق، حيث المعارك كانت على أشدها بين القوات العراقية وبين تنظيم الدولة الإسلامية. ذهبت إلى العراق مرتين. المرة الأولى كانت في العام ٢٠١٢. حينذاك لم أتخط منطقة العريش الحدودية بين سوريا والعراق، واقتصرت زيارتي السرية على الاستكشاف. مقاتلو «جبهة النصرة» هم من قاموا بتهريبي عبر الحدود، ولم تكن «الجبهة» قد أعلنت ارتباطها بتنظيم القاعدة بعد، أما تنظيم الدولة فلم يكن قد أبصر النور. كان العراق لا يزال مركزه، ويحمل اسم «تنظيم دولة العراق الإسلامية».

أما الزيارة الثانية فكانت معلنة، وسفر عبر مطار بيروت إلى مطار النجف حيث حللت بضيافة حزب الله والحرس الثوري الإيراني.

رافقتهم في مهمتم الإشرافية. مهمة لم تكن سهلة. الموت قد يهمس في أذنك في أي لحظة ليقول لك: أنا هنا، تعال.

كان الوقت وقت صلاة. توقف المقاتلون لأداء صلاتَيْ المغرب والعشاء. طلب أحد المرافقين تأجيل الصلاة إلى حين الوصول إلى القاعدة العسكرية التي نتجه إليها؛ فالطريق لن تستهلك أكثر من ثلث ساعة، لكن قائد المجموعة لم يُرِد تأخير الصلاة أكثر. رُكِنت السيارة عند نقطة للجيش العراقي على أعتاب مصفاة بيجي، حيث السيطرة على الجزء الأكبر من الأرض لتنظيم «الدولة الإسلامية». دقائق قليلة مضت، توضّأ فيها الجميع ليشرعوا في الصلاة.

أفطر قائد المجموعة الصائم على شربة ماء ثم انطلقنا في طريق العودة إلى الدرب الواصلة بين المصفاة وأحد المعسكرات التي يتمركز فيها خبراء لبنانيون وإيرانيون يُشرفون على سير المعارك في تلك البقعة المشتعلة من العراق. على هذه الطرق، يُصبح التنقّل خطراً ليلاً. كان العساكر هناك يتداولون أخباراً عن كمائن وتسلل لـ«الدواعش» نتج منها اشتباكات جرت عن بُعد عشرات الأمتار فقط؛ فالمنطقة كانت شبه مطوّقة من جهات ثلاث من أكثر التنظيمات تشدّداً في العالم. في تلك الليلة، كان الظلام دامساً، فيما يخيّم هدوء لا تخترقه سوى أصوات محرّكات السيارات الرباعية الدفع، التي أقلّتنا، إضافة إلى بعض أصوات الانفجارات العميقة التي تخرق صمت المكان. لم يدم السكون طويلاً.

لم تكد تمر دقائق على انطلاقنا حتى بدأ الرصاص ينهمر باتجاهنا مضيئاً عتمة الليل. كنّا نتعرض لاستهداف برصاص مدفع رشّاش من عيار ٢٣ ملم، بحسب قول أحد الراكبين في السيارة. أوقف السائق السيارة وأطفأ الأضواء. كان الساتر الترابي على يسارنا، لكن الرصاص استمر يُطلق باتجاهنا. دعا «الحاج» الجميع إلى مغادرة السيارة، فانسحبنا منها. افترش البعض الأرض، فيما بقي أحد الشبان المرافقين متأهّباً خلف السيارة بسلاحه الرشّاش. كنا خمسة ركّاب في السيارة، ضابطان عراقيان وآخران من حزب الله وأنا. ظللنا على مقربة من السيارة ننتظر. في تلك الأثناء، شوهدت أضواء سيارة قادمة من بعيد. تعرّضت هي الأخرى لإطلاق نار، لكنّها أكملت طريقها لكونها مصفّحة. مضت دقائق بدت طويلة انتظرنا فيها بناءً على أمر «الحاج»، بالتريّث إلى حين يتوقف إطلاق الرصاص. كنا نسمع حينذاك أصوات تكبيرات قريبة، قال أحد مرافقينا إنّها «أصوات تكبيرات الدواعش»، فيما ردّ آخر بأن بينها «تكبيرات ونداءات جماعتنا»، أي الحشد الشعبي. تلا ذلك تبادل لإطلاق النار من كلا الطرفين. اشتدّ إطلاق النار وتخلّله صوت انفجار هدأ بعدها قليلاً إطلاق الرصاص. في حمأة تلك المعمعة، رفع «الحاج» نظره إلى السماء قائلاً: «كم هي جميلة اليوم... يا سبحان الله»، فردّ آخر «مليئة بالنجوم». هنا ضحك ثالث هازّاً رأسه، معلّلاً ضحكه بـ«يا عيني... حسيت صرنا بأجواء شهادة... الحمد لله اللي كنّا صلّينا». هنا أشار «الحاج» بالعودة إلى السيارة لتنطلق كالسهم

على الطريق نفسها. أطلقت بضع رصاصات باتجاهنا، لكنها لم تُصبنا وتجاوزنا الخطر.

تلك كانت حال الشباب المرابطين على جبهة القتال. روتينٌ يكاد يُصبح اعتيادياً بالنسبة إليهم، ولا سيما أن بيجي، تقع ضمن محافظة صلاح الدين وتبعد عن العاصمة العراقية بغداد نحو ٢١٠ كيلومترات في الطريق المؤدي إلى الموصل، معقل «أرض خلافة الدولة الإسلامية»، كان احتلّها مقاتلو التنظيم المتشدد أول مرة العام ٢٠١٤، قبل أن يتمكن «الحشد الشعبي» من استرجاع ٨٠٪ منها، ثم سقطت مجدداً بيد «الدولة الإسلامية» قبل أن يُستعاد نحو ٢٠٪ منها. تلك البقعة الصغيرة تحوّلت إلى نقطة انطلاق لمعركة استعادة بيجي. على هذه البقعة، تحوّلت بضعة منازل، استُئذِن أهلها لاستعمالها، إلى غرفة عمليات استخبارية. مجموعة ضباط من الحرس الثوري وحزب الله، لهم باعٌ طويل في القتال، ساعدوا الجيش العراقي و«الحشد» بالعمل على حُسن سير العمليات. تولى هؤلاء التنسيق بين مختلف فصائل الحشد الشعبي، ونسقوا إلى جانب ضباط من الجيش العراقي وفصائل المقاومة العراقية، في سبيل وضع خطة المعركة وإدارتها. كانوا يبذلون جهداً جهيداً في العمل الاستخباري لجمع المعلومات عن معسكر العدو واستعداداته. دخل على هذا الخط «المُسيّرات»، أي طائرات الاستطلاع والمراقبة، التي جابت سماء بيجي، راصدة كل كبيرة وصغيرة. إلى جانب المعلومات المستقاة من الهاربين من مناطق

سيطرة «داعش»، والمعطيات التي تم الحصول عليها من إفادات الأسرى الذين اعتقلتهم أكثر من جهة، فضلاً عن رصد الاتصالات وتعقّبها. وكل هذه المعطيات يسلّمها «ضباط المعلومات»، بعد أن «تسيّل» على الخرائط على هيئة أهداف وإحداثيات، إلى كتائب الحشد الشعبي. من القاعدة العسكرية في شمال بيجي، إلى تل بوجراد من الجهة الغربية، وصولاً إلى مصفاة بيجي (المصفاة الأكبر في العراق) كانت تنتشر المراصد التي تراقب «خطوط العدو». كاميرات نهارية وحرارية وليلية متطوّرة كانت تراقب تحركات المعسكر المقابل. حشودهم واستعداداتهم وتحصيناتها، وحتى معالم تدل على خنادق حفروها أو شرعوا في حفرها. في الطرقات الواصلة بين المراصد الموزّعة، حكايات متعددة. «صهريج مفخخ انفجر هنا»، لا تزال بقاياه معلماً في الطريق؛ «شاب من الحشد قنصه داعش عن بُعد ٤٠٠ متر»، وثالث اكتشف تسللاً للدواعش الذين يأتون تحت جنح الظلام. أما أصوات إطلاق النار والانفجارات فكانت تصبح خلفية موسيقية ألفها حُرّاس هذه الجبهة هنا. في تلك الأثناء، سُمعت أصوات إطلاق نار، قال مرافقنا إنها آتية من شمال شرق مصفاة بيجي، علماً أن شمال وشرق ووسط وغرب مدينة بيجي مسيطرٌ عليها من تنظيم «الدولة الإسلامية»، فيما «جزء من شمال المدينة معنا».

بعد ذلك بأيام، كان صوت المذياع يصدح بعبارات مقتطعة من خطاب للأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله، أعقبها نشيد

باللهجة العراقية. الصوت لم يكن في ضاحية بيروت الجنوبية ولا في جبل عامل اللبناني. هذا الصوت كان في قلب العراق، وتحديداً على الدرب الواصل من كربلاء إلى سامراء. تلك التي كان اسمها فيما مضى «سرّ من رأى»، بلدة جميلة شيّدها المعتصم العباسي، وتقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة في محافظة صلاح الدين، وتبعد ١٢٥ كيلومتراً عن العاصمة العراقية بغداد.

قبيل الانطلاق حاول أحد الأصدقاء التثبّت من «التاكسي» الذي يجب أن يكون «ثقة وآمناً»، بناءً على توصية مسبقة بسبب تحذيرات من حوادث خطف حصلت وأخرى محتملة. أخذ رقم السيارة ثم تبادل رقم الهاتف مع السائق، قبل أن تبدأ الرحلة باتجاه بغداد. خلال الطريق، وفي محاولة لجرّي إلى حديث بغية معرفة وجهتي الحقيقية من باب الفضول، بادرني السائق بالقول: «لبناني؟»، ثم أخبرني بأنّه سبق أن أقلّ لبنانيين كُثراً، معظمهم جاء لزيارة العتبات المقدسة وآخرون للجهاد. هززت رأسي ثم نظرت من نافذة السيارة. على مداخل بعض البلدات، صادفتني صورة عُلِّقت لـ«إرهابيين مطلوبين»، مع تحديد مكافأة لمن يُسلّمهم أو يمتلك معلومات عنهم. أربع أو خمس صور ذُيّلت بأسماء أصحابها. تتكرر بعض الصور على أحد حواجز التفتيش التي نُصبت في الطريق، علماً بأنها كانت تُسمى «سيطرة». أخبرني السائق حينذاك أن «الدواعش وصلوا إلى هنا قبل أن يدحرهم الحشد»، معدّداً روايات عن «قطع مسلّحين

متشددين طريق السيارات القادمة من كربلاء إلى بغداد لإجبارهم على التبرّؤ من أهل البيت ثم قتلهم مع عائلاتهم أو خطفهم حتى».

هذا كان على الأرض. أما في السماء فقصة أخرى. بين حينٍ وآخر، كان يلفت انتباهي مروحية أو اثنتان تُحلّقان في السماء. علق السائق بأنهم «الأميركان». سألته عن وجهتهما، فأخبرني أنهما تقصدان الأنبار لـ«قصف الدواعش». إذاً، يُقاتل الإيراني والأميركي جنباً إلى جنب؟ استنتاجٌ طرحته بصيغة سؤال استفزّ السائق الذي رد بالقول: «يا أخي الطائرات الأميركية قصفت مرات عدة مراكز للحشد وللإيرانيين زاعمة أنّ القصف جاء عن طريق الخطأ». ثم عقّب: «لكن بالتأكيد خطأ مقصود. قد تتقاطع مصالحك مع عدوّك، لكن ذلك لا يُغيّر في أنه سيبقى عدوّك».

وصلنا إلى بغداد. تلحظ ذلك من الأرصفة وإسفلت الطريق وملامح تنظيم تُنبئك بأنك بتّ في عاصمة الدولة. على «حاجز السيطرة»، أشار إلينا العسكري المدجّج بالسلاح، كأنّه في ساحة معركة، بالتوقف. سأل عن وجهتنا، ثم طلب جواز السفر. ما إن علم أنني «لبناني قادم للزيارة»، بحسب ما بادره السائق بالقول، أومئ برأسه لنا بإكمال الطريق من دون أن يرى جواز السفر حتى.

تغيير طفيف طرأ على مسار الرحلة. ورد اتصال من مضيفي أشار إليّ بالنزول بـ«بلد» بدلاً من سامراء. ساعتان أو ثلاث كانت قد انقضت على الطريق. توقفت السيارة على مقربة من حاجز لـ«حركة النجباء»،

بحسب ما ظهر من الرايات المرفوعة، على مدخل «بلد». إلى يسار الشارع، «فَرَد» أحد أبناء «بلد» السكاكر والمعلبات والعصير البارد على شكل «بسطة». هناك انتظرنا المضيف. في مقابل مجموعة مَحال متهدّمة، أبلغنا صاحب البسطة أنها دُمّرت بفعل هجومٍ انتحاري على حافلة تقلّ زوّاراً باكستانيين أو إيرانيين، مشيراً إلى أنّها تحوّلت إلى خردة بعد أن قُتل جميع من فيها. بعد ما يقرب من ثلث ساعة، وصل المضيف، لنُكمل المسير نحو بيجي، حيث كان خط التماس ملتهباً مع مقاتلي «الدولة الإسلامية».

أكل السمك مكروه في العراق

مررت بسدّ سامراء ونهر دجلة. النهر الذي يحمل في طياته ألف قصة وقصة. سئلت، هل تعلم بأن تناول السمك بات مكروهاً هنا؟ وعندما استفسرت عن السبب، تاركاً للمضيف أن يستعيد عبارة كان يكررها الضبّاط الأميركيون: «Send him in the river» (أرسله في النهر)، أي «اقتله». أشار إلى الشمال قائلاً: «تلك هي قاعدة سبايكر. هناك قتل داعش ١٧٠٠ أسير ورماهم في النهر». أخبرني أن «الأسماك كبُرت على لحم الجثث هنا. فكلُّ من يُقتل، يُرمى في النهر. ابتلع نهر دجلة عشرات آلاف الجثث التي تحوّلت غذاءً للأسماك». إلى جانب سامراء تقع تكريت، بلدة الرئيس العراقي السابق صدام حسين. البلدة التي ذاع صيتها في وقت سابق، لكنها أصبحت هادئة نسبياً اليوم.

من بيجي إلى جبل صافي

ليل بيجي كان هادئاً. هدوءٌ يحفّز الخيال على تصور أحداث وقعت في هذه الصحراء، كأنما كان هذا الليل شاهداً عليها أو شهد مقطعاً منها في فيلم سينمائي ما، وأحياناً يذهب بك وجدانياً إلى سيرة الإمام الحسين وشهادته في أرض العراق. جذوع نخيل وبيوتٌ قديمة وطقسٌ حارّ نهاراً ولطيف ليلاً. كلها عوامل تُغني المخيّلة من جهة، وتُشجّع على استثمارها في جلسة سمر بعد نهارٍ متعب. جلسة تتخللها نقاشات عن مسار المعركة وصعود «الدولة الإسلامية» في العراق والوضع الميداني في سوريا.

فجأة، هبت عاصفة رملية إيذاناً بانتهاء «الجلسة» أمام المقرّ. لم يرغب أحد في أن يبقى وحيداً بالقرب من جذوع النخيل، فيما العاصفة تلفح الوجوه بهواء مشبع بالرمال. دخل الجميع إلى الغرف، لتبدأ بعدها جلسة أخرى فيها الكثير من الحنين إلى مرحلة قتال العدو الإسرائيلي. ذكريات عن جبل صافي والرفيع وقادة شهداء ارتقوا على درب الجهاد والقضية. حكى الشباب عن المشروع التقسيمي الذي حتّم عليهم أن يكونوا في العراق يقاتلون شبّاناً مغرراً بهم، بدلاً من قتال العدو الإسرائيلي، في الخطوط الأمامية المواجهة للعدو، وكيف أنهم يقاتلون في صف معسكر الخير ضد معسكر الشر. تذكروا كيف كانوا يجمعون ثمن السلاح وأين أصبحوا اليوم يقاتلون في غير دولة. لم يجد الشبّان ما يفعلونه ليلاً، منتظرين الفجر، سوى تلاوة القرآن وقراءة الأدعية. تخلل ذلك استراحة خصّصها البعض لتدخين النارجيلة

والتواصل مع الأهل عبر تطبيق «الواتساب». في تلك المكالمات لم يبقَ الدمع حبيس المآقي. كان يسيل بعد سماع صوت ابنة أو ابن أو أم أو أب أو زوجة. من بين هؤلاء «أبو مهدي». أكثر الاشخاص حباً وتواضعاً. «أبو مهدي» كان يسامح الجميع وكان يقولها جهاراً إنه يريد علاقة صافية مع الله. وجهه كان مليئاً بالبراءة. بعد عودتي من العراق التقيته بضع مرات، ولم يعد باستطاعتي أن أراه لكثرة انشغالي. منذ فترة بسيطة التقيت شاباً جاء من القتال في العراق وأخبرني أن «اليوم ذكرى أربعين أبو مهدي» الذي أصيب بعبوة ناسفة هناك ثم توفي في لبنان أثناء العلاج. بعد استشهاده، عرفت من يكون «أبو مهدي». إنه أحد القياديين القدامى في حزب الله.

استيقظ الجميع لأداء صلاة الفجر. بعد ذلك بدأ العمل. عقدت الاجتماعات التنسيقية الصباحية، ثم جولة على خطوط التماس وأماكن تحليق «المسيّرات» (طائرات الاستطلاع). في الخارج، ازدحمت السيارات الرباعية الدفع التي صُفِّح معظمها. سيارة «التويوتا» هي الأولى إضافة إلى مدرّعات الجيش العراقي والحشد الشعبي. بعض غرف المقرّ تحوّلت إلى خلية نحل للتنسيق بين ضباط عراقيين وإيرانيين ومن حزب الله. بدأت بعدها جولة بين المقار: قابلت شبّاناً وعائلات لجأوا إلى الحشد الشعبي هرباً من «جحيم داعش». هكذا كان لسان حال من التقيتهم في بيجي، حيث قصّوا عليّ تفاصيل الرحلة «من الموت إلى الحياة» عبر جبال المكحول التي دُفنت في متاهتها عشرات العائلات، بعدما قضى أفرادها عطشاً.

الهروب من «دولة الخلافة»: الفارّ «تُصادَر» زوجته وأبناؤه

شدّت عائلاتٌ عراقية الرحال للهرب سرّاً من أرض الخلافة. قهرٌ ورعبٌ وترهيب، تلك كانت حالهم في ظل حكم «الدولة الإسلامية»، كما وصفوها. وفي بيجي، حيث لجأوا، روى هؤلاء لي تفاصيل الهروب الكبير في الرحلة «من الموت إلى الحياة» عبر جبال المكحول التي دُفنت في متاهتها عشرات العائلات بعدما قضى أفرادها جوعاً وعطشاً.

من يهرب من أرض «دولة الإسلام» إلى بلاد الكُفر، تُصادر زوجته وأبناؤه. في عُرف التنظيم المتشدِّد، كما يروي الهاربون من حُكمه، «هذا الهارب ارتدّ وبات لأمير المؤمنين حقّ النظر في أمر زوجته وأبنائه وأملاكه». هكذا يُخبر مزهر إبراهيم، أحد سكّان المكحول الذي تمكّن من الهرب عبر الجبال. ويضيف: «تُزوَّج زوجته لآخر بعدما أصبح الوالي وليّ أمرها وله حق تزويجه بعدما طُلِّقت بردة زوجها، فيما تأخذ الدولة الأبناء لتحدد مستقبلهم».

ورغم ذلك، فإن هلع بعض القاطنين في كنف «الدولة»، إثر

تلقيهم معلومات عن احتمال اعتقالهم، دفعهم إلى الفرار وترك كل شيء، بمن فيه زوجاتهم وأولادهم، للنجاة بحياتهم. لماذا لم يُهرِّبوهم معهم وهل يُعقل أن يفعل أحد ذلك؟ تساؤل يُجيب عنه أحدهم في معرض الرد على أحد محققي الحشد الشعبي: «تركتهم في عناية الله. طريق التهريب في الجبال شاقة مات العشرات عليها. ولا أطيق أن تكون عائلتي بينها». لا ينتهي الأمر هنا. تقول إحدى السيدات التي هربت أيضاً: «يسير التنظيم المتشدد على سُنّة اليهود في تفليش المنازل». والتفليش يعني تدمير المنزل بعد مصادرة محتوياته عقاباً لعائلة المرتد الهارب. تذكر أنّ إحدى قريباتها صادروا منزلها وطردوها منها بعد فرار زوجها، وهو نقيب في الجيش العراقي. تقول: «حتى ملابس ابنها لم يعطوها إياها... ولمّا راجعتهم قالوا لها: خلّي هيدا المرتد وايا الروافض يجبلك ياه. وقالولها خلي يسلم نفسوا منعطيكم البيت».

... حيث تدفن آمال عشرات الهاربين

ترك أحد العراقيين زوجته وأولاده في جبال المكحول على الطرقات التي يستخدمها المهرّبون عادة. كانوا قد ضلّوا الطريق وأنهكهم العطش بعدما مشوا أياماً في متاهة لا نهاية لها. أرادوا الهرب من «جند الخلافة» الذين يجولون بدورياتهم على هذا الجبل، لكن لم يعد بإمكان الزوجة إكمال المسير، ومعها طفلان لا يتجاوز كبيرهم الثامنة. خلع الرجل «دشداشته» ليستخدمها كغطاء يقيهم الحرّ الشديد بعدما طلب من أم ولديه الاختباء في إحدى زوايا الجبل، ثم ذهب

ليُحضر الماء لهم وكي يأتي بالنجدة... لكنه لم يفلح في ذلك. تمكنت زوجته وولداه من النجاة من «داعش»، لكنهم لم ينجوا من الموت عطشاً. ولدى عودته، وجدهم موتى... دفنهم ثم رجع. قصة يكررها محققون من الحشد الشعبي يستمعون إلى إفادات الهاربين من أرض «دولة الإسلام» على سبيل المعلومات.

في كنف «الدولة الإسلامية»

كان وجه الشاب العراقي ربيع العبدالله، أحد سكّان بلدة المكحول التابعة لقضاء بيجي، أملس بالقرب من لحيته التي تبدو مشذّبة، وقد أطلقها مُكرهاً. اشتبهت «الحسبة» (شرطة «الدولة الإسلامية») التي اشتقت اسمها من محاسبة الناس، في أن ربيع المذكور «ماخد خيط»، أي إنّه قد حدّد لحيته بشفرة حلاقة، فأوقفوه. لم يُصدّق عناصرها أنه لم يشذّبها، فشدّ «الشرطيان المسلمان» رجليه ليُجلد ٢٥ جلدة. تكرر الأمر مع مزهر إبراهيم المكنّى بـ«أبو علي»، أحد سكّان المكحول، الذي جُلِد أيضاً في الشارع بعدما ضُبط متلبّساً بـ«وزار» لا يرتفع عن كعب رجليه سوى إصبعين، فيما الشرع ينصّ على رفع الملابس عن كعب القدم قدر شبر أو أربع أصابع. لا ينتهي الأمر بالجلد وحده، إنما يُلزم هؤلاء بدفع غرامات تراوح بين ٥٠ ألفاً و٢٠٠ ألف دينار عراقي. غير أن الجلد والغرامة يبقيان أهون الشرور إذا ما تحوّل الحديث إلى الإعدامات. يحكي هؤلاء عن عمليات الإعدام التي كانت تجري في

الساحات، قبل أن تُعلّق الجثث على أعمدة الكهرباء وتتدلّى ريثما يأتي أقارب القتيل الذي أُقيم عليه الحدّ لإنزاله ودفنه.

استقبال «الحكّام الجدد» كالفاتحين

رحّبت بعض البلدات العراقية بـ«جند الخلافة». لم يُقاوم أهلها «الفاتحون» القادمون باسم الإسلام، لإطاحة «الحكم الرافضي». استبشروا خيراً، لكن ذلك لم يدُم طويلاً، فـ«الحكّام الجدد» تجاوزوا بظلمهم سابقيهم. خُنقت الأصوات وكُتِمت الأنفس. «ديننا دين عبودية لا حُريّة ولا ديمقراطية»، عبارةٌ قالها سابقاً قائد «جيش المهاجرين والأنصار» في تنظيم «الدولة الإسلامية» عمر الشيشاني في مقابلته مع مجلة «دابق»، التابعة للتنظيم نفسه. كذلك فإنّ بيعة «أمير المؤمنين»، في عُرف أبناء التنظيم، تُلزم الجميع (عامة الشعب وجند الدولة) بـ «الخضوع لأوامر الخليفة وأحكامه قولاً واحداً من دون منازعة أو عصيان أو مخالفة، أي خضوع مطلق تام لا تشوبه شائبة». تختلف المُدَد التي عاشها أهالي قرى قضاء بيجي تحت حُكم «الدولة الإسلامية». وبالتالي تختلف معاناة كلّ منهم، غير أن القاسم المشترك بين هؤلاء يبقى اختيارهم طريق موت محتمل عبر الجبال، بدلاً من تذوّق موت محتّم كانوا يرونه كل يوم».

دخل مقاتلو «الدولة الإسلامية» إلى بلدة المكحول العراقية في ١٠ حزيران العام الماضي، فكانت الحاضنة الأولى للتنظيم في هذه البقعة، بعدما كانت هذه المنطقة أقدم منطقة احتضنت «القاعدة» منذ

وجودها في عام ٢٠٠٤، علماً بأنها كانت تضم «أقلية شيعية» هرّبها بعض أهالي المنطقة قبل دخول التنظيم إلى هذه الناحية بأيام (ينتمي هؤلاء إلى عشائر عبيد والجنابيين والبقّارة والمَشاهدة). وبالتالي، بحسب أحد أهالي المنطقة، «من كان مع القاعدة سابقاً انضم إلى داعش اليوم».

زمن الرعب في حضرة الخلافة

أخبرني أحد أبناء البلدة قائلاً : «رحّبنا بها باعتبارها آتية لإقامة دولة الإسلام. دخلوا نهار الثلاثاء، فكانت أوّل خطبة جمعة تُخطب في المسجد، يخطبها عضو المجلس المحلي في المكحول والموظف لدى الدولة العراقية علاء محمد ضاحي الذي صار يُعرف لاحقاً بأبي جندل». يستعيد الرجل، الذي ينتمي إلى عشيرة إبراهيم ويُكنى بـ«أبو علي»، بعضاً من كلمات الرجل من على المنبر يومذاك: «نزفّ إليكم بشرى النصر. هنيئاً لكم النصر. صبراً يا جماعة التوحيد وشدّوا على أيدي إخوانكم في الدولة الإسلامية الذين خلصوكم من الحكم الرافضي والشيعة». ويروي أبو علي: «عشيرتنا فيهم من قُتل أو اعتُقل فيما انتسب الباقون خوفاً إلى التنظيم».

يتحدث الرجل عن أيام فرح مرّت قبل أن تتكشّف الحقيقة المرة. يُخبر كيف صادروا بعد أيام محتويات المشفى والمدرسة والمخفر، ثم بدأوا يجمعون المنتسبين إلى الدولة العراقية، من صحوات أو شرطة أو حرس وطني، ويُخفونهم. يتابع ابن المكحول: «بقي المعلم والطبيب

فقط. أما المنتسبون فلم نعرف مصيرهم. قالوا ودّيناهم للموصل أو للشرقاط أو القيّارة. من يدري قد يكونون أُعدِموا». ليس هذا فحسب، إذ يضيف الرجل الأربعيني: «حتى أعضاء المجلس المحلي اعتُقلوا لاحقاً بمن فيهم الخطيب أبو جندل، وقيل لنا إنهم قُتلوا، ومن ضمنهم رئيس المجلس المحلي لقرية الشيخ علي سعيد حمد خليفة». حتى بعد فتح المدارس وفق المناهج الإسلامية، أُجبر الأهل على إلباس أبنائهم الثوب الشرعي، الأقرب إلى الأفغاني. أما التنقل داخل حدود «الدولة الإسلامية»، فيتم عبر بطاقة الهوية التي تُحدد نفوس حاملها. أما العسكريون السابقون وموظفو الدولة الذين أعلنوا توبتهم، فتُحرّر لهم ما يُعرف بـ «ورقة توبة». وهذه التوبة لها قيود إلكترونية، إذ ما أن يعطيهم إياها الذي يريد اجتياز الحاجر، حتى يدخلوا الاسم أو الرقم ويعلموا على يد من مِن جماعتهم قد تاب. وبشأن جنسيات المقاتلين الذين ينتسبون إلى التنظيم المتشدد، يذكر الهاربون أنهم «عراقيون وسوريون وأكراد وأتراك وأوزبك وشيشانيون وأوستراليون». ويكشف هؤلاء أن الأمور الاجتماعية للمناطق الخاضعة لسيطرتهم، من شرطة الحسبة وولاية المنطقة الأمنية وشؤون مالية العشائر ومكتب المقاتلين، تخضع سلطتها للعناصر العراقيين. أما الأمور العسكرية التي تتعلق بـ«جيش الدولة» فهي بيد المقاتلين الأجانب.

«يوهمون الناس بأنهم يتنصّتون على الاتصالات الهاتفية. وبين حين وآخر، يُعدمون شخصاً بتهمة التخابر مع المرتدين أو العدو»،

يقول أحد الناجين: «جابوا منظومة روسية يتنصّتون من خلالها على اتصالات الموبايل. هيك سمعنا من الحسبة». وهنا يجزم أحد المحققين من «الحشد الشعبي» بأن «كل ذلك غير صحيح وهو مستحيل عليهم، إنما يروجونه لبثّ الرعب وإشاعات لترهيب الناس».

لماذا هربت ولم تنتسب إلى «الدولة»؟

زرعت مذبحة «سبايكر» الرعب في النفوس. المجزرة التي أعدم فيها التنظيم قرابة ١٧٠٠ جندي وألقى جثثهم في نهر دجلة في حزيران ٢٠١٤، شكّلت انعطافة لدى كثيرين، فانقلبت المفاهيم لتتكشّف هُويّة التنظيم الحقيقية. يقول أبو علي الذي عمل سائقاً عمومياً على عهد «داعش»: «كنت متعاطفاً مع داعش في البدء، لكن تركتها بعدما اكتشفت أنّها مزيّفة. كيف يُعقل أن لا آمن على نفسي في بيتي وأرضي». يَسأل، هل يُطبّقون الدين؟ فيجيب «الدين سماحة... هل قال الدين أن تأخذ ٦٠ ألف دينار كغرامة لمن يزيّن ذقنه... هل يجوز أن يُسجن زوج امرأة خرجت بلا محرم ثم يُجلد أو تُجلد المرأة التي لا ترتدي نقاباً مع محرمها»... فضلاً عن «البيعة». هذه المسألة التي يختلف فيها الهاربون من «جحيم داعش». يقول أحدهم إن عناصر التنظيم «لا يُجبرون أحداً على البيعة»، وإنّه لم يُبايع، فيما يردّ آخر بأنّهم «يجبرون الناس على زيارة المسجد. وفي المسجد، يُجددون البيعة أسبوعياً». وصيغتها واحدة يُرددها الحضور خلف إمام المسجد.

حكاية الهروب

مرّت سنة وأربعة أشهر على سقوط المكحول والقرى المحيطة بها في قبضة تنظيم «الدولة الإسلامية»، لكن الكيل قد طفح لدى كثيرين مغلوب على أمرهم. فتزايدت في الأشهر الأخيرة، أعداد العائلات الهاربة من «أرض الخلافة». إذ يهرب هؤلاء ثم يسلّمون أنفسهم للحشد الشعبي. هنا مجموعة مؤلفة من سبعة رجال وخمس نساء وستة أطفال، معظمهم من قرية النمل التابعة لقضاء بيجي، مسقط رأس قائد الشرطة في محافظة صلاح الدين، شدّوا رحالهم قبل عيد الأضحى بيوم واحد. يذكر أحدهم أن غالبيتهم انتقلوا من قرية مصباح ومنها إلى الزاب ثم بلدة شميط، فيما عبر الباقون من الزويّة إلى بلدة الزاب ومن هناك، بدأوا يستقلون واحداً تلو الآخر سيارة تاكسي لتقلهم إلى إحدى النقاط المتّفق عليها حيث اجتمعوا مجدداً. ومن هناك، صعدوا في «بيك آب» مرتدين زيّ فلّاحين ويحملون عدتهم. يروي مزهر إبراهيم الذي كان ضمن هذه المجموعة: «من هناك وصلنا إلى قرية دربان. ومشينا سيراً على الأقدام على الجبل من الساعة ٧:٣٠ مساءً حتى العاشرة صباحاً. بهدلة وعطش. نفدت منّا المياه حتى وصلنا إلى قرية الربيضة. كنا قبلها قد وصلنا إلى جبل إمرين حيث تمكنا من إجراء اتصال، وما إن وصلنا حتى سلمنا أنفسنا لمركز الشرطة حيث كان معارفنا في انتظارنا».

يروي هؤلاء قصة فرارهم كأنّها رحلة من الموت إلى الحياة.

يستذكرونها كأنها كابوس كانوا يعيشونه ثم انتبهوا. لا يتوقف هؤلاء عن شكر الحشد الشعبي. وما إن تسأل أحدهم: ماذا ستفعل الآن وكيف ستبدأ حياتك مجدداً؟ يُجيب: «أُريد أن أقاتل معكم في الصف الأول».

نساؤهم سبايا وأولادهم عبيد

في محادثة عبر «السكايب» مع أحد «الجهاديين» السوريين الذين قاتلوا في عرسال ثم انتقل إلى حمص قبل أن يُقرر الاستقرار في الرقة وينتقل منها لاحقاً إلى الموصل العراقية، يتحدّث القيادي الذي بايع تنظيم «الدولة الإسلامية» بعد تركه «جبهة النصرة»، «أبو القاسم السوري» عن شروط العيش في كنف «الدولة الإسلامية». وينفي الشاب الثلاثيني ما يتردد عن تعرض المسلمين للاضطهاد ضمن حدود «أرض الخلافة». ولدى الاستفسار عن مفهوم المسلم في عرفهم، يرد: «إذا كان شعب الموصل على الإسلام، وجاءت الدولة الإسلامية وسيطرت على شعب الموصل وكان يكره دولة الإسلام، أي لا يُريد الخضوع لسيطرتنا وأحكامنا... في هذه الحالة، من لا يخضع لحكم الدولة بإمامة أمير المؤمنين، فإنه إما يُحبس حتى يفهم الخطأ الذي وقع به ويعود عن رأيه، وإما يُحارب فئة باغية مثل جبهة النصرة حتى يعود إلى أمره، وإن لم يعد فيمكن أن يكون قد قُتل على أيديهم، أو هرب. وإن اعتبرنا أن هذا الرجل الذي عصا أوامر الدولة الإسلامية ولم يُرِد الخضوع لأحكامها، هرب وترك أولاده، فالدولة التي قاتلته قتال باغٍ لا تقترب منهم أبداً إطلاقاً. أما إذا كان الشخص شيعياً فتُقتل

زوجته ويُقتل كل ولد بالغ لديه. أما من لم يبلغ منهم، فهؤلاء يعود أمرهم إلى أمير المؤمنين أو الوالي. فإما أن يأمر بقتلهم وإما بنفيهم وإما باسترقاقهم، أي أخذهم عبيداً. وهذا الحكم مختص بالشيعة والعلويين والمراشدة من غير المسيحيين واليهود. وأما إذا كانوا مسيحيين أو يهوداً، فيمكن أن تؤخذ نساؤهم سبايا وأولادهم عبيداً. والأحكام تستمد عندنا من مجموع فتاوى ابن تيمية وابن القيم الجوزية ومن كتب الحنابلة والأحناف والشافعية والمالكية. هي الكتب الرئيسة، إضافة إلى كتب الإمام محمد بن عبد الوهاب، وبخاصّة كتابَيْ التوحيد ونواقض الإسلام».

الخاتمة

قد لا يستسيغ كلامي كثيرون، فالخلاصات التي توصّلتُ إليها مخالفةٌ للصورة الشائعة التي تُقدّم في جميع وسائل الإعلام. ذلك أنّ معايشتي لجميع أطراف القتال الدائر على أرض سوريا والعراق، كشفت لي أنّه في المعارك الكبرى لا يُمكن التصنيف بين أسودٍ وأبيض. لا وجود للخير المطلق أو الشرّ المطلق. فالحق نسبي وكذلك الشرّ. إذ لا يمكن لأي طرف يخوض معركة أن لا يكون مقتنعاً بأنّه يقاتل من أجل قضية محقّة يؤمن بها. ولا يمكن أن يحدث هذا الإيمان من العدم. في كل قضية، جانبٌ من الصواب. فـ«أبو عائشة»، الشاب الذي اطّلعتم على قصّته في الفصل الأول، نموذج لمن يتعاطون مع مفهوم الحياة بازدواجية، خلاصتها أنّ الحياة التي يبتغيها لا تقوم إلا بموت آخرين. وهذا يتجلّى في مسعاه لأن يُنفّذ عملية انتحارية تسمح له، بعد التبرّع لوالده بأحد أعضائه، أن يصل إلى الحياة الأبدية. وبهذا يكون قد منح الحياة لوالده وفاز بحياة أخرى عبر سلب الآخرين، الذين لا يستحقّون الحياة في نظره، أرواحهم. هي «رومانسية دموية»، لكنها تكشف حقيقة يعيشها حَمَلَة الفكر الجهادي.

وعلى الرغم من هذه الازدواجية، فإنّ هناك ما يمنح طرائق عملهم شرعيتها الدينية والسياسية والتاريخية. فهم، لعدم قدرتهم على المواجهة المباشرة والطويلة مع الغرب، يعمدون إلى تحطيم الأذرع التي يرون أنّها تُثبّت هيمنة الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية صاحبة التاريخ الاستعماري في الشرق. هذه الأذرع هي الأنظمة العربية. وهذا ينسحب أيضاً على كل الشعوب التي تقبل بحكم هذه الأنظمة.

الأمر نفسه ينطبق على التنظيمات العسكرية الشيعية. فبمثال حزب الله، الذي نشأ بدعمٍ إيراني من بلدٍ تحوّل إلى جمهورية إسلامية تتخذ من الشريعة دستوراً لها، حمل الحزب المنظومة العقائدية نفسها التي تُصنّف الولايات المتحدة بأنّها «شيطان أكبر» مسؤولٌ عن كل خرابٍ ودمارٍ ونهب الثروات الذي يحدث في العالم.

هكذا يشترك الطرفان النقيضان بعدائهما للغرب، علماً أنّ هذا التوافق بينهما قد اتّخذ في سنوات سابقة تعاوناً عسكرياً كبيراً. بدايات التعاون كانت مع زيارة أمين عام حزب الله السابق السيد عباس الموسوي إلى أفغانستان حيث التقى محبوب الجهاديين وأستاذ أسامة بن لادن، الشيخ الفلسطيني عبدالله عزّام. حُكي لاحقاً عن نقل تجارب مدرّبين في القاعدة لعناصر من حزب الله على إعداد العبوات والتشريكات الناسفة. كذلك كشف منظّر «القاعدة» والرجل الثالث في التنظيم بعد أسامة بن لادن والظواهري، الشيخ أبو مصعب السوري في

كتابه «دعوة المقاومة الإسلامية العالمية» أنّ عناصر من القاعدة تدرّبت في معسكرات حزب الله في البقاع اللبناني. استمرّ هذا التعاون حتى الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣. ومن ذلك الحين، بات حزب الله، وكل المحور الذي ينضوي فيه، يرى أنّ التنظيمات الجهادية بدءاً من القاعدة ومروراً بـ «جبهة النصرة» و«الدولة الإسلامية» وغيرها لاحقاً، هي صنيعة واشنطن وتل أبيب ومخابرات الأنظمة الحليفة لهما وكذلك للغرب. ولذلك يعتبرها هذا المحور أداة تهدف إلى إضعاف قدرته واستنزافه في معركته مع إسرائيل، البذرة الشيطانية التي زُرِعت في قلب العالم العربي والإسلامي لإدامة الهيمنة عليه وعلى ثرواته. هذا ما تبيّن لي أثناء زيارتي معسكرَيْ «جبهة النصرة» في سوريا والحرس الثوري الإيراني وحزب الله في العراق.

صحيح أن مظلومية المسلمين قد بدأت مع قتال «السوفيات الملحدين» في أفغانستان، ثم بالحرب على الأميركين في بلاد المسلمين المقدّسة وتحديداً في دول الخليج العربي، إلّا أنّ تطوّرات المنطقة استطاعت تشتيت مفهوم المظلومية الإسلامية إزاء الغرب لتتحوّل إلى مظلومية مذاهب. هكذا حمل الشيعة مظلوميتهم مضمّنين إياها أبعادها الدينية والتاريخية في مقابل ما عايشوه في ظل حكم الرئيس العراقي صدام حسين. ومع الاحتلال الأميركي للعراق، تحوّلت المظلومية إلى مظلومية سنّية إزاء الشيعة الذين مارسوا، بدعمٍ من الولايات المتحدة وإيران حتّى ، من دون أدنى مبالغة، ما يُمكن أن

نُطلق عليه «سياسة التشفّي». والشواهد على ذلك كثيرة. لقد أصبحت «المظلومية السنّية» العباءة الواسعة التي تستطيع أن تحتوي أصحاب مشاريع ونوازع مختلفة. قد لا يكون لها أي علاقة برفع هذه المظلومية أو بتحقيق أي شكل من أشكال العدل. هؤلاء بعضهم مجرمون وآخرون قطّاع طُرق وسماسرة يركبون الموجة لتحقيق مكاسب مادية مقابل قلّة هم حَمَلةُ «قضية»، بصرف النظر إذا كانت محقّة أم لا. وهذا ما يجعل الكثير من الشباب الذين يعيشون أميّة وجهلاً وفقراً ويرزحون، علاوة على ذلك، تحت سطوة سُلطات لا تعرف الحوار، ممارسةً أشدّ أنواع الإكراه والتعذيب. هذه السلطة تنقسم بين النظام والعائلة والمجتمع.

بعيداً عن العناوين الكبرى، أود أن ألفت نظر القارئ، كما قلت سابقاً أن لا وجود للونين الأسود والأبيض. وأنّ ما نتوهّمه أحياناً من أنّ الصراع بين مشروعٍ ومشروعٍ مضاد، ليس حقيقياً كما نعتقد. فهذه العناوين تكون وسيلةً لميول وثارات شخصية في الغالب. إذ إنّ الانتحاري اللبناني معين أبو ضهر الذي فجّر نفسه في السفارة الإيرانية في بيروت كان حاقداً على أخواله الشيعة. فهؤلاء طردوه عندما كان في السويد ورموه في الشارع. عاد بعدها إلى لبنان وانخرط في صفوف «الحركة الأسيرية» قبل أن يلتحق بـ «كتائب عبدالله عزام» ليُنفّذ الهجوم الانتحاري المزدوج. تكرر الأمر مع الانتحاري الفلسطيني نضال المغيّر الذي نفّذ هجوماً انتحارياً ضد المستشارية الإيرانية في

بيروت هذه المرة. فالمغيّر كان على خلاف مع صهره الشيعي من دون موافقته. حتى أنّه قام بطعن شقيقته الحامل لاعتقاده أنّ زواجها بالشيعي ليس شرعياً وحملها حمل زنى. تكرر ذلك أيضاً عند إعدام العسكري اللبناني علي البزّال من قبل تنظيم جبهة النصرة. فقد تبيّن أنّ المحرّض على إعدامه كان شقيق زوجته رنا، عبدالله الفليطي. فقد تبين أنّ البزال، ابن بلدة اللبوة في البقاع اللبناني، أحبّ رنا الفليطي ابنة بلدة عرسال. ولم يكن أهلها راضين عن الزواج، لكنها اتخذت قرارها بالزواج منه «خطيفة». توتّرت العلاقة بين العائلتين، ولكن مع الأيام زال التوتر، أو هكذا راهن الشابان، خصوصاً بعدما أثمر زواج علي ورنا طفلة. إلا أن الظروف شاءت أن تكون خدمة علي البزال في بلدة عرسال.

في ليلة الثاني من آب عام ٢٠١٣، وإبان «غزوة عرسال»، شاء الحظ العاثر أن يكون البزّال في صفوف العسكريين الذين اختطفتهم «جبهة النصرة». بعد سنة وعدة أشهر على اختطافه، في ٥ كانون الأول ٢٠١٤، وقعت القرعة على البزال ليكون ثاني الجنود الذين «سيدفعون الثمن»، بحسب بيان «النصرة» آنذاك. إلا أنه في الحقيقة بحسب ما بيّنت تحقيقات الأجهزة الأمنية، كان يدفع، في الدرجة الأولى، ثمن «ثأرٍ عائلي». فقد اعترف عبدالله الفليطي بأنّه حرّض على قتل زوج أخته الشهيد علي البزّال لتسبّب الأخير بمشاكل لعائلة الفليطي بعدما تزوّج برنا «خطيفة». ولدى «أسر» البزال، رأى الفليطي أن فرصة

الانتقام حانت. وأكدّ أنه لعب دوراً أساسياً في إقناع «أمير النصرة» في القلمون «أبو مالك التلّي» بأن يكون صهره من أوائل الأشخاص الذين يُطبّق بحقهم القصاص بالإعدام. وهو لم يكتف بذلك، بل كشف أنّه كان موجوداً في أثناء تنفيذ حكم الإعدام بإطلاق الرصاص على صهره.

الخلاصة التي أرجوها من هذا الكتاب، ألا تقتصر معالجة ظواهر التكفير، من أي طرف أتى، على الجانب الأمني. والدليل أنّ الانتصار العسكري الأميركي على تنظيم القاعدة في أفغانستان عام ٢٠٠١ لم يقضِ على الجماعات الجهادية، بل كان فاتحةً لنشوء عشرات التنظيمات التي تحمل الفكر نفسه وتستمد استمراريتها من مجرّد إعلان الولاء للفكرة من دون أي ارتباط تنظيمي مباشر. إذ إنّ الجانب الفكري يبقى الأساس في تناول هذه الظاهرة. لن يُسعفك أن تقتل إرهابياً أو تعتقل المئات. أقارب القتيل باسم الثأر سيعودون والمعتقل سيخرج. حتى أنّ تجفيف منابع تمويله لا يكفي. فإن انتزعت حزامه الناسف سيستدين ليصنع آخر. وهكذا يستمر. وبصرف النظر عن أنّ الانتحاري يجد الخلاص في الآخرة بعد شعوره بأنه لن يحصل في الدنيا على ما يطمح إليه، فإنّ من يُقرر تفجير نفسه من أجل القضية التي يؤمن بها، إنما يُعبّر عن صدقٍ قل نظيره وإيمان استثنائي دفعه أن يُقدّم أغلى ما يملك في سبيل ما يؤمن به، بصرف النظر عن أحقيته، وسواء اتفقت معه أم لا. وعليه، فإنّ الحلّ يتمثّل بقتل فكرة التكفير في رأسه عبر زرع فكرة بديلة تقوم على قبول مخالفيه بدلاً من قتلهم.

وبخلاف ما يتردد في الإعلام من أنّ الفقر يلعب دوراً أساسياً في صناعة الإرهاب، فالحقيقة أنّ كلاً من الفقر والتهميش السياسي والاجتماعي والإحساس بالمظلومية، جميعها عوامل تجعل الناس ينساقون إلى التطرف.

كما أنّ غياب أي مشروع سياسي لبناء مجتمعات أفضل يلعب دوراً في خلق بيئة حاضنة للتطرف. فالإعلام اللبناني، على سبيل المثال، يظلم المخيمات الفلسطينية عند تصويرها على أنّها حاضنة للإرهاب. ورغم أنّ هذه المخيمات تفتقر إلى أدنى مقومات الحياة، إلا أنّها لم تفرز حتى نسبة واحد في المئة ممن اتّخذ القتل وسيلة. لذلك تبقى الخشية من أن يكون العنف المكبوت منذ سنين طويلة جرّاء القمع والفساد هو رد الفعل الوحيد أمام الشعوب، ولو بعد حين.

لقد كنت أعتقد، كما الكثير من بني البشر، وهذا يحدث بالفطرة، أنّ الموت سيسقط عليك حتماً وأنت في دوّامة النار. لكن الفاجعة التي اختبرتها قد غيّرت نظرتي تماماً. فلقد تنقّلت في كل مناطق القتال والمعارك في سوريا والعراق حيث تواجدت بين الانتحاريين والمقاتلين المتشددين الذين لو تعرّفوا إلى هويتي المذهبية، لكنت قضيت ذبحاً. نجوت من قذائف سقطت على مقاتلين وأحالتهم أشلاءً. ولم يكن يفصلني عن ذلك سوى وقت قليل بين مغادرتي إياهم والانتقال إلى موقعٍ آخر. أنا لم يُكتب لي أن أُقتل، إلا أنّ أخي علي، الشاب الحالم، الذي كان يطمح لتحقيق الكثير، كما مئات الآلاف من

الشباب العربي، لم تُهيأ له الظروف ليصل إلى ما يطمح إليه. وبينما هو يعاند كل ذلك ليُحقِّق شيئاً ما يجعله راضياً عن ذاته، اختطفه الموت بجرثومة التقطها من هواء بيروت الملوّث بالنفايات التي تغصّ بها الشوارع، أُتبع بخطأ طبي نتيجة غياب الرقابة الصحية واستسهال قيمة حياة الإنسان، فيما رموز السلطة والأحزاب يتناقشون حول أي من المحورين اللذين ذكرتهما سينتصر.

أول مقابلة أجريتها مع الشيخ أحمد الأسير

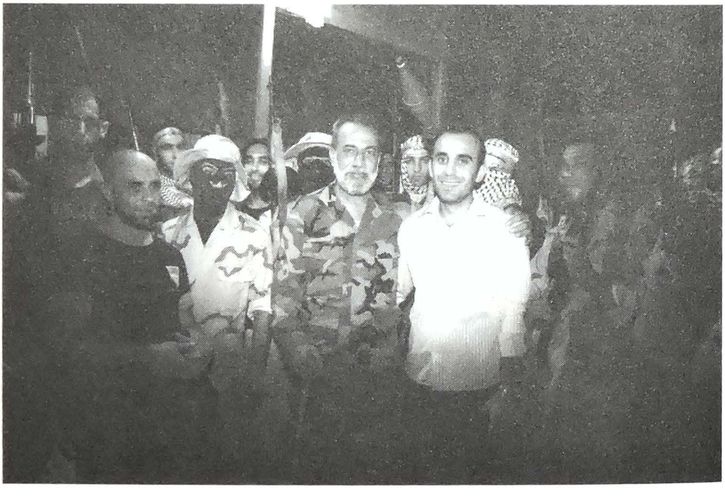

مع القيادي الفتحاوي في عين الحلوة منير المقدح

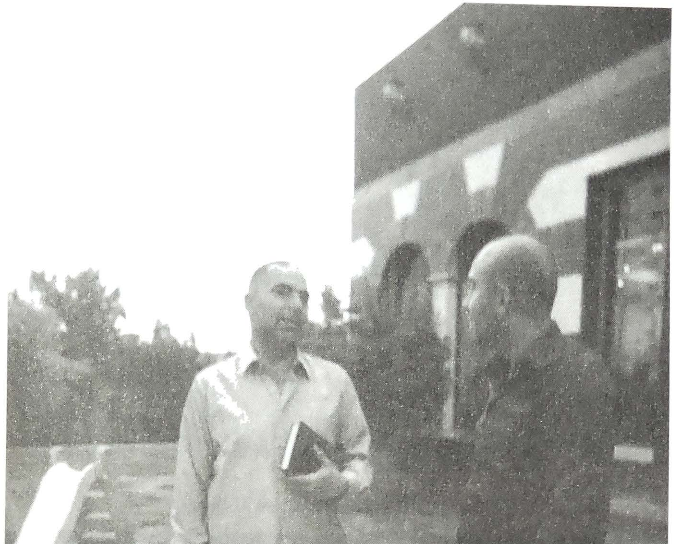

مع العقيد المتقاعد كميل حمود... محرّك المجموعات المسلحة في الشمال

أول مجموعة للجيش السوري الحر دخلت لبنان ـ وادي خالد

تشبه قصة «الثورة» في سوريا، إلى حد التطابق، حكاية قيادي في المعارضة المسلحة. كان «أبو علي الحربة» من أوائل المنشقين. لعب في بداية «الثورة»، دور «الدينامو» في تنسيق التظاهرات المطالبة بإسقاط النظام. لكنّه ما لبث أن تحوّل إلى تهريب السلاح. في بداية الأحداث، أوصى «أبو علي» صحافياً التقاه في القصير بأن يحضر له، في الزيارة المقبلة، زجاجة ويسكي من نوع «بلاك لابل»، من بيروت تحديداً. قالها ضاحكاً: «ويسكي بيروت طيب». كان حليق الذقن ويحتسي الكحول ولا يعرف عنه التزام ديني، حاله كحال كثيرين من قيادات المعارضة الذين شكّلوا نواة «الجيش السوري الحر». لكن هذه المجموعات بدأت تعزّز التزامها الديني رويداً رويداً. وهذا ما حصل معه. في أحد اللقاءات اللاحقة مع الصحافي اللبناني، حمل الأخير زجاجة الويسكي كالمعتاد، لكنّ الرجل اعتذر عن عدم قبولها: «أعدها معك. قررت وقف الشرب وبدأت بالصلاة». كان التغيّر قد طرأ على هيئة «أبو علي». أرخى لحيته، وبدأ حديثه يخلو من البذاءة المعتادة.. ثم «هاجر» إلى حلب إثر سقوطها في يد المعارضة، وقاتل هناك «في سبيل الله». بعد شهور قليلة، كانت لحية الرجل قد وصلت حتى منتصف صدره، وبدأ أتباعه يلقبونه بـ«الشيخ»، وأصبح قيادياً يقاتل تحت راية «القاعدة»، لكنه قبل ذلك لم يكن سوى «أبو علي» عاشق الويسكي.